جامعة الملك عبد العزيز
مكة المكرمة
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم اللغة العربية
فرع الأدب

المقامات الأندلسية
في عصري الطوائف والمرابطين

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية
فرع الأدب

إعداد الطالب
شاهر عوض الكفاوين

بإشراف الأستاذ الدكتور
ناصر بن سعد الرشيد

١٤٠٠ - ١٤٠١هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الموضوعـــات

* * * *

" مقدمـــــة "

الحمد لله الذى خلق الانسان علمه البيان ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين الذى أنزل عليه الكتاب بلسان عربي مبين ، ليكون بشيرا ونذيرا للعالمين .

أما بعد : فان الأدب الأندلسي لم يلق من الباحثين العناية الكافية التي تناسب ماهو عليه من الجودة والقوة فهو لا يزال بحاجة الى الدراسات الجادة التي تكشف عن أسرار وكنوز هذا التراث الذى خلقته حضارة الاسلام التي عاشت ردحا من الزمن في الأندلس فأصبحت هذه الجزيرة مركز اشعاع وسط تلك الظلمات الحالكة التي كانت تتخبط فيها أوروبا كلها في ذلك الوقت .

ولعل من أهم الأسباب التي صرفت الباحثين عن دراسة هذا الأدب والتعمق فيه قلة المصادر القديمة التي وصلت الينا منه بالاضافة الى أن معظمها لا يزال مخطوطا في مكتبات العالم المختلفة مما يجعل البحث فيها يحتاج الى جهد كبير وتفرغ لا يستطيعه الكثيرون كما أن الذين اهتموا بدراسة الأدب في الأندلس - على قلتهم - انصرفوا الى دراسة الجانب الشعرى باعتباره الأظهر والأشهر في محاكاة المشارقة ، لذا فقد اخترت ان يكون بحثي هذا في الجانب النثرى من هذا الأدب لعلي أصل رحما مقطوعة ، وأقدم بعض الخدمة لتراث الفردوس المفقود .

أما لماذا المقامات والرسائل بالذات ؟ فلأمور منها :

ان المقامة فن نشأ في الشرق وتأصلت قواعده هناك على يد بديع الزمان والحريرى، فهل عرفته الأندلس ؟

وان كانت قد عرفته فهل عرفته بنفس الخصائص المشرقية أم بخصائص جديدة ؟ أم بهما معا .

ثم ان المقامة كانت منذ دراستي الأولى لها في الجامعة ترتبط في ذهني - كما ترتبط في أذهان الكثيرين - بنزعتها اللفظية والبلاغية وليس وراء ذلك أغراض أو معان يقصدها كاتبوها . فرحت أدرسها دراسة موضوعية مرات ، ومرات وحتى وجدت فيها مايستحق الدرس اذ أنها تحوى من النقد اللاذع لأحوال تلك المجتمعات المهترئة المفككة - التي كانت في وقت انشائها - مالا يمكن التعبير عنه بأفضل مما عبرت عنه المقامات وذلك لسلوكها الأسلوب الفني الذى يغلب عليه طابع الهزل والسخرية . وفي اعتقادى ان هذه السخرية والصور الهزلية ماهي الا ستار يختفي وراءه كاتبوا المقامات خوفا من البطش والتنكيل الذى يتعرض له كل منتقد لتلك الأوضاع علانية .

أما الرسائل الأدبية فقد قرنتها مع المقامات في هذه الدراسة للتعرف على أنواعها وخصائصها في الأندلس وهل تختلف عن الرسائل الديوانية والاخوانية ؟ .

وقد حصرت دراسة هذين اللونين النثريين في فترة حكم ملوك الطوائف والمرابطين في الأندلس لأن هذه الفترة - بحق - من أزهى عصور الأدب بالاضافة الى ان فن المقامات وصل من المشرق - عن طريق الهجرات واتصال المد الثقافي - الى الأندلس في هذه الفترة وان اكثر النصوص الذى اعتمدنا عليها في دراسة المقامات عاش صاحبها السرقسطي في عصر المرابطين حيث توفي سنة ٥٣٨ هـ .

وقد حاولت في هذه الدراسة أن أجمع اكبر عدد ممكن من النصوص المقامية والرسائل الأدبية التي كتبت في عصرى الطوائف والمرابطين وذلك من المصادر المطبوعة وأهمها الذخيرة لابن بسام الشنتريني وقلائد العقيان للفتح بن خاقان .وقد وجدت من هذه المصادر عناء كبيرا حيث انها كتبت بطريقة مسجوعه وكثيرا مايطغى السجع والمحسنات البديعية على المعنى فيلتبس الأمر على الباحث وقد ينقلب الأمر الى نوع من الانشاء الحافل بالمبالغات التي يضفيها المؤلفون على كل شاعر أو كاتب كقول ابن بسام عن ابن زيدون : "(١) " كان ابو الوليد صاحب منثور ومنظوم وخاتمة

(١) الذخيرة : ق ١ ج ١ ص ٢٩٠ ، تحقيق احسان عباس.

شعراء مخزوم ، أخذ من جر الأيام جرا وفات الأنام طرا وصـــرّف السلطان نفعا وضرا . . . " .

ويقول عنه ابن خاقان : "(١) " . . . الذى بهر بنظامه وظهــر كالبدر ليلة تمامه فجاء من القول بسحر وقلده أبهى نحر لم يصرفـــه الا بين ريحان وراح ، ولم يطلعه الا في سماء مؤانسات وأفراح " .

كما أن هذه المصادر تغفل كثيرا من الأحداث الهامة في حياة الأديب أو في تاريخ عصره ، كما تخلط أحيانا بين الشخصيـــات التاريخية كخلطها بين ابن جهور الأب وأبي الحزم وابن جهـــور الأبن أبي الوليد وبين المعتضد والمعتمد وتمزج بين أبي حفص بـــن برد الجد والحفيد وما الى ذلك .

أما المصادر المخطوطة فقد اعتمدت عليها كثيرا لان النـــص المقامي الذى وصلنا كاملا وهو - المقامات اللزومية لا يزال مخطوطا بالاسكوريال ومنه نسخة بمعهد المخطوطات في القاهرة حصلت عليها .

وهناك مخطوطات أخرى على شكل مجموعات وجدنا في ثناياها ما يتعلق ببحثنا من المقامات والرسائل الأدبية . وكانت الصعوبة تكمن في قراءة هذه النصوص حيث أنها كتبت بالخط المغربي بالاضافة الى صعوبة الألفـــاظ التي كان كتاب المقامات يتعمدون غرابتها ، والتي يضطرهم السجـــع اليها أحيانا . كما أن ما يلحق بهذه المخطوطات من السقط والتآكـــل والتحريف تجعل الباحث مضطرا الى أن ينصرف عنها يائسا أحيانا .

وقد جعلت من منهجي في هذا البحث الاعتماد على النصـــوص قدر المستطاع ولم أطلق لنفسي العنان في اصدار الاحكام بدون أدلـــة أو اثباتات فان أصبت فهذا ما أقصد اليه وان اخطأت فلي عذر المجتهدين

---

(١) قلائد العقيان : ٧٠ و٧١ .

وقد درست هذا الموضوع حسب خطة تحتوى على ثلاثة أبواب مسبوقة بتمهيد عرضت فيه للأوضاع السياسية التي كانت سائدة أيام الطوائف والمرابطين ومالها من الآثار على الناحية الاجتماعية والفكرية وهذا ماصورته المقامات الأندلسية وعبرت عنه فعرضت لفساد الحكام وتسلطهم وهضمهم لحقوق الأمة مما ينتج عنه وجود طبقة من الفقراء والمشردين والمهاجرين المكدين ، كما عرضت للأخلاق التي كانت سائدة ونقدتها بأسلوب هزل ساخر .

أما الباب الأول :

فقد تحدثت فيه عن تعريف المقامة لغة ثم تتبعت المراحل التي مرت بها هذه اللفظة وتطور مدلولها حتى وصلت الى ماهي عليه الآن وأشرت الى أنها كانت بداية لظهور القصة في الأدب العربي ثم عرضت لأول من أنشأ المقامة وناقشت رأى الحصرى الذى قال بأن ابن دريد هو رائد هذا الفن وقلده بعد ذلك بديع الزمان الهمذاني وعنه أخذ الحريرى ثم تتابع كتابها عبر العصور ، وقد ملت الى هذا الرأى بعد أن ناقشت رأى الدكتور زكي مبارك الذى تولى هذه القضية ، ونقدته في بعض ماذهب إليه واستدركت عليه بعض مافاته من أحاديث ابن دريد ودلالتها على أصل المقامات . ثم بينت خصائص المقامة المشرقية وماتمتاز به من مميزات ثابتة بقيت هي قوام هذا الفن كالراوى والبطل والعقده والكديه والسخرية وغيرها .

وأما الباب الثاني :

قسمته الى أربعة فصول ، كان الفصل الأول عن انتقال الفن المقامي من المشرق الى الأندلس حيث كان الاتصال مستمرا بالاضافة الى الزيارات التي كان يقوم بها العلماء والأدباء الأندلسيون الى المشرق للتزود من العلم وأداء فريضة الحج ، وهجرة العلماء والأدباء المشارقة الى الأندلس طلبا للشهرة أمثال صاعد اللغوى وأبي على القالي وغيرهم فكان هؤلاء يحملون معهم أنفس الكتب والمؤلفات وكان من ضمنها

المقامات وبالأخص مقامات الحريري .

والفصل الثاني أفردته للحديث عن المقامات التقليدية وهي التي سارت على نفس النموذج المشرقي ، وأهم هذه المقامات مقامات السرقسطي الذي اقتفى بها أثر الحريري ولكنه زاد عليه بلزومه مالا يلزم فيها . وقد حوت هذه المقامات من الموضوعات والأغراض ماجعلني أدرسها حسب هذه الأغراض السياسية ، والاجتماعية والخلقية ، والأدبية والنقدية ، وقد كان أشهر كتّاب المقامات النقدية في الأندلس ابن شرف القيرواني ، حيث كانت له نظرات عميقة في نقد الشعراء وشعرهم خاصة مما يتعلق بالناحية النفسية عند الشاعر ، وقد حاولت ابراز هذه الناحية عنده وان أخذت عليه بعض الأمور التي سيلحظها القارئ لهذه الرسالة . كما كان هناك أديب يسمى عبد الرحمن بن فتوح كتب مقامة نقدية ولكنها قصيرة وتعرض فيها لأدباء وشعراء الأندلس فقط وقد تميز بهذا عمن سواه .

أما الفصل الثالث من هذا الباب فقد جعلته مقارنة بين موضوعات المقامة التقليدية والمقامة الشرقية وتعرضت فيه للموضوعات المشتركة بينهما كما كانت هناك بعض موضوعات امتازت بها التقليدية الأندلسية كتعرضها للحب العذري ، ووصف المدن ، والحديث من الرحلات البحرية .

والفصل الرابع تحدثت فيه عن نوع من المقامات سميته بغير التقليدية وذلك لأنها فقدت بعض مقومات المقامة المشرقية فلا راو لها ولا بطل ولا عقدة تدور حولها المقامة ، بل أصبحت تروى على لسان كاتبها وحده كما أصبحت تتناول موضوعات شعرية كالمدح والهجاء والوصف والرحلات وما الى ذلك ففقدت كثيرا من عناصر السخرية والتشويق والمغامرات التي كان يقوم بها البطل والتي كانت تضفي على المقامة جوا خاصا يميزها عن فنون النثر الأخرى على أن أصحاب هذه المقامات لم يؤلفوا كتبا بذلك وانما اكتفوا بتأليف مقامة أو مقامتين يظهر فيهما براعته في استعمال الأساليب البلاغية المتنوعة وامتلاكه للغة وسعة حصيلته من الثقافة العربية والاسلامية .

الباب الثالث :

درست في هذا الباب الرسائل الأدبية وجعلته في فصلين مسبوقين بتمهيد بسيط عن ماهية الرسالة الأدبية وبم تخالف الرسائل الديوانية والأخوانية وغيرها من ناحية الأغراض والأساليب .

أما الفصل الأول : فتعرضت فيه لأنواع متعددة من الرسائل الأدبية كرسائل السخرية والهزل أمثال رسالة ابن زيدون الهزلية وقد حاولت الربط بين هذه الرسائل وجذورها في المشرق وبينت مدى التأثر والتأثير من خلال النصوص والعبارات ، وهناك رسائل العاطفة والوجد الديني ، ورسائل وصف المطر بعد القحط . كما أن هناك رسائل المناظرات والمفاخرات بين أنواع الأزهار والورود وبين المدن الأندلسية وقد حللت هذه الرسائل وكشفت مابها من الرمز الاجتماعي والسياسي .

ولعل هذه الرسائل كانت متأثرة بعلم المنطق والجدل الذى شاع في المشرق واستعمل في المناظرات الدينية ثم انتقل الى الاندلس فتوسعت دائرته هناك .

كما كان هناك نوعا من الرسائل يحمل طابعا رمزيا على لسان طير يسمى بالزرزور فسميت بالزرزوريات وهي أشبه بالشفاعات التي يبعث بها من له حظوة عند الحكام لأجل بعض الشعراء والأدباء وذلك عندما ضعف الاهتمام بالأديب وزاد الاهتمام بأصحاب السيوف الذين يحمون البلاد .

والفصل الثاني تناولت فيه رسالة ابن شهيد المسماة برسالة التوابع والزوابع والتي يحلق فيها الى آفاق بعيدة عن أرضنا حيث يكون مسرحه في أرض الجن فيلتقي بشياطين الشعراء والكتاب وينتزع منهم الاجازة والاعجاب ، وقد حللت هذه الرسالة ودرست تأثرها بالمقامة الابليسية لبديع الزمان الهمذاني كما أوضحت أنها كانت سابقة على رسالة أبي

العلاء المعرى " رسالة الغفران " . في الزمن فيبدو أن أبا العلاء هو المتأثر ، كما أوضحت الأسباب التي دعت ابن شهيد لكتابتها ، والنحو بها هذا المنحى .

وفي الخاتمة قارنت بين الرسالة الأدبية والمقامة ووضحت التقارب بينهما ، وما امتازت به كل منهما مع اعطاء صورة مبسطة للبحث بعامته من خلال ذلك .

وفي الختام لا يسعني إلا أن أقدم جزيل شكرى وعظيم امتناني لسعادة الدكتور ناصر بن سعد الرشيد المشرف على هذه الرسالة والذى لم يدخر وسعا في التوجيه والارشاد ، وأعطاني من وقته الثمين وعلمه الغزير ماساعدني على انجاز هذا البحث . فنسأل الله أن يجزيه خير الجزاء وأن يوفقه لما فيه خير الاسلام والمسلمين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد :

الوضع السياسي في عصرى الطوائف والمرابطين وأثره الاجتماعي والفكرى على المجتمع الاندلسي :

كانت سنة ٣٩٩ هـ شوءما في تاريخ الاندلس ، حين أطاحت الفتنة البربرية بكل وحدة للدولة ، فقد اشتعل الصراع بادىء ذى بدء داخل البيت الأموى الحاكم على السلطة نتيجة استغلال الضعف لتحقيق المصلحة الشخصية دون تفكير فيما يجرى للأمة من سوء العواقب ، كما فعل محمد بن هشام بن عبد الجبار الأموى الملقب بالمهدى عندما أراد أن يتخلص من الدولة العامرية التي قامت واستبدت بالأمر زمن الخليفة المستضعف هشام المؤيد ... وبالفعل تمكن من قتل عبد الرحمن ابن أبي عامر آخر حكام بني عامر وحاول أن ينصب نفسه خليفة ، ولكن سرعان ما نازعه في ذلك أموى آخر هو سليمان المستعين ، فجمع حشودا من البربر حوله ودخل قرطبه وقتل كثيرا من أهلها وفر المهدى وأصبح الأمر للمستعين ولكن الى حين حيث يرجع المهدى مرة أخرى مستعينا بقوة النصارى ، وتستمر هذه الحالة المؤسفة من الصراع والتي ازدادت حدته عندما دخل حلبة النزال أيضا رؤساء البربر لينازعوا الأمويين على السلطة ، فطغت شهوة الحكم على الجميع ، فوصل الأمر الى الاستنجاد بالنصارى الذين كانوا يتحفزون لاستغلال مثل هذه الفرص وبالفعل سقطت في أيديهم كثيرا من المدن الأندلسية ، بل ان واسطة عقد الخلافة الاسلامية "قرطبة" ابيح للجند الصليبي الداخل مع الفريق المنتصر . وقد كانت آثار هذه الفتنة وبالا ودمارا للحضارة الاسلامية بالأندلس فكانت كما وصف ابن حيان "(١)" سنينا

(١) الذخيرة ١ / ١ / ٣٦ . ت عباس

شدادا نكدات ، صعابا مشئومات ، كريهات المبدأ والفاتحة ، قبيحة المنتهى والخاتمة ، لم يعدم فيها حيف ولا فورق فيها خوف ، ولا تم سرور ، ولا فقد محذور ... " .

وينتهي الأمر أخيرا بالغاء الخلافة نهائيا سنة ٤٢٢ هـ بعد أن حكم في هذه الفترة البسيطة أربعة عشر خليفة من الأمويين والبربر "١" . وقد خلفت هذه الفتنة مجتمعا قلقا غير مستقر ، منهار القيم ، مملوءا بالمرارة والضياع ، وخاصة مجتمع قرطبة الذى توالى عليه الخلفاء من أمويين وبربر، مع تعدد الجيوش الداخلة والمنسحبة والتي تشيع موجة عنيفة من السلب والنهب والدمار في قرطبة والزهراء وغيرها من المدن الأندلسية ، فكان من جراء ذلك " أن أخذت على الناس الأقطار ، فأظلمت الدنيا ، وابلس أهلها ، وغشيهم من أمر الله ماغشيهم ، فلزموا البيوت ، وتطمروا في بطون الأرض ، حتى قل بالنهار ظهورهم ، وغلقت أسواقهم ، فاذا دنا المساء وكف الطلب عنهم انتشروا تحت الظلام لبعض حاجاتهم . " "٢"

وبذلك توقف النمو في جميع المجالات الصناعية والتجارية والعلمية ، وجف الزرع في الحقول وعم البلاد شبح المجاعات والأوبئة واكتسحتها لهيبها من الكوارث المحرقة ، التي شملت كل شيء ... "٣"

هذه الحالة من الفوضى والاضطراب ، وتفتت وحدة الدولة السياسية ، مكنت الطامحين من القادة والزعماء المحليين من الانتزاء على السلطة كل في منطقته ، فاذا بنا أمام عشرين دويلة مستقلة استقلالا تاما في ادارتها وجيشها وحياتها الفكرية والأدبية ، وبهذا يظهر في تاريخ الأندلس السياسي من نسميهم بملوك الطوائف ، ومن أشهرهم :

---

١) رسالة التوابع والزوابع ، تحقيق بطرس البستاني ، ص١٢ - ١٦ .
٢) الذخيرة ١ / ١ / ١٠٠ .
٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ؛ ٣ / ١٠١ - ١١٥ ، وصف للحالة بالتفصيل .

في شرق الأندلس (أى في المريه ومرسية وبلنسيه ودانيه) موالي العامرية مثل خيران العامرى ، وزهير العامرى ، ثم مجاهد العامرى ، حتى استوى عليها المرابطون سنة ٤٨٤ هـ ، وفي قرطبه موالي الأمويين (بنو جهور) ، وفي غرناطة ومالطة وطليطلة قام البربر بالحكم وهم (بنوزيرى ، وبنو الافطس ، وبنو ذى النون) ، وفي أشبيلية وسرقسطه والبونت نجد العنصر العربي (بنو عباد اللخميون ، وبنو هود الجذاميون ، وبنو القاسم الفهريون ، وبنو حمود الحسنيون "١"

وهذه الامارات والممالك تسلك كلها تقريبا نهجا سياسيا واداريا واحدا ، فالسلطان مطلق يمسك بزمامه الأمير أو الملك باحكام وينحو به نحوا استبداديا قاسيا لا مجال معه للشورى أو للمعارضة ، وكان هم ذلك المتسلط ((قصر يبنيه ، وعلق يقتنيه ، وميدان من اللذة يستولي عليه ويبرز فيه)) .

أما ادارته فتنظر في المقام الأول الى جباية الضرائب من الأمة البائسة لتصرف على الجند المستأجر لحماية العروش المزيفة المتهاوية وعلى اللذات وأسباب الترف والتمتع .

نستثني من ذلك نظام الشورى الذى طبقه أبو الحزم بن جهور المتوفى سنة ٤٣٥ هـ على مجتمعه بقرطبه والذى أعطى جزءا كبيرا من السلطة لفضلاء الناس ليساعدوه في ادارة البلاد ، فكان مثلا يجمع الأموال ويعطي كلا مايستحقه ثم يترك الباقي بأيدى الثقات ، فاذا سأله سائل قال : ((ليس لي عطاء ولا منع هو للجماعة وأنا أمينهم)) "٢" .

---

١) عبد الحميد العبادى ، المجمل في تاريخ الأندلس : ١٥٤ - ١٥٥ ، ط القاهرة ١٩٦٤م ، عبد العزيز سالم ، تاريخ مدينة المريه الاسلامية : ٥٧ - ٥٨ ، ط بيروت ١٩٦٩م ، وانظر تفاصيل أكثر في الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٧٨ ، ص ٣٦١ ، ١/٢/١١٤ ، ص ٤٢٩ .

٢) انظر أخبار ابن جهور في الذخيرة ١/٢/٦٠٣ - ٦٠٤ . تعاس

ومما زان الأمر سوءً تناحر هذه الامارات أو الدويلات وتحينهـا للفرص في سبيل التوسع على حساب بعضها ، بالاضافة الى الصـراع الداخلي في الامارة الواحدة على كرسي الحكم ، كل ذلك ادى الى ضعف هذه الدويلات وجعلها غنيمة سهلة للنصارى في الشمال ، وشجـع النورمان على غزوها . "١"

والأدهى من ذلك أن هذه الصراعات انتهت الى واقع مـزرى من حيث الاعتماد على دعم قوة النصارى في محاربة المسلمين واستحدثت بدعة مريعة في تاريخ الحضارة الاسلامية ، وهي أن يدفع حاكم مسلم الجزية لحاكم نصراني كافر . "٢"

ولابد لدارس تاريخ هذه الحقبة في الاندلس أن يقف عند أحداث ثلاثة كان لها أثر كبير ومباشر في موضوعات الأدب الأندلسي ، فقد كانت أحداثا جساما مريرة أشاعت في النفوس ضربا من القلق والتوتر ممزوجـا بأحاسيس من الضياع والحزن الذاتي العميق على ضيعة الاسلام وهـو أن أمره على الناس .

وأول هذه الأحداث استيلاء النورمان على بربشتر "٣" سنة ٤٥٦ هـ بعد معركة أفنت كثيرا من المسلمين قتلا وأسرا وغنم فيها جيش الكفار من الغنائم مالا يكاد يحصى ، فقد زعموا أنه " حصل لأكبرهم في حصته نحو ألف وخمسمائة جارية أبكار ، ومن أوقار الامتعة والحلي والكسـوة خمسمائة جمل " "٤" .

يحصل كل هذا وملوك الطوائف مشغولون بأمور توافه من شرب خمر

---

١) ابن أبي دينار : المؤنس في اخبار افريقيا وتونس : ١٠٠ - ١٠١ ، ت محمد شمام ، ط تونس ١٩٦٧ م .

٢) انظر تفصيل ذلك في الذخيرة ق ٣ ج ١ ص ٢٤٨ ومابعدها .

٣) بربشتر : مدينة تقع على فرع صغير من أفرع نهر ابره بين مدينـة لارده روشقه في الشمال الشرقي لسرقسطه ، أنظر عنان ، دول الطوائف : ٢٦٤ - ٢٦٦ .

٤) أنظر ، احسان عباس ، تاريخ الأدب الاندلسي (عصر الطوائـف والمرابطين) ص ٢٠ .

واقتناء القيان وارتكاب المعاصي وسماع العيدان ، والكل منهم يلهث من أجل كسب رضى الاذفونش "١" الذى أرهقهم بالأتاوات حتى أصبح له عمالا يجبون له الأموال من ملوك الطوائف ، وفي مقدمتهم أعظمهم شأنا في الأندلس المعتمد بن عباد "٢" . ورغم هذا الذل والاستعباد الذى كان يسوّد صحائف أولئك الملوك ، اتخذوا الالقاب الفخمة كالمقتدر ، والمعتضد ، والمعتمد ، والمتوكل ، والمؤتمن ... الخ مما جعل ابن رشيق القيرواني يزهد في الأندلس قائلا : "٣"

مما يزهدني في أرض أندلس
أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد

وثاني الأحداث وأشدها خطرا استيلاء الاذفونش على طليطله "٤" سنة ٤٧٨ بمساعدة أحد حكام الطوائف وهو القادر بن ذى النون الذى كان يطمع أن يعيده الاذفونش الى حكم طليطلة بعد أن طرد منها " لكن

---

١) الاذفونش : هو اذفونش بن فردلند بن غرسين بن شانجه ، ملك النصارى ، كان أشجع اخوته ، ويرد بلفظ الفونسو ، هلك بطليطلة سنة ٥٠٢ هـ وكان ملكه نيفا وخمسين سنة . انظر : البيان المغرب : ٤/٥٠ - ٥١ .
٢) السلاوى ، الاستقصاء لاخبار دول المغرب والاقصى : ١/١١٢ - ١١٤ ، ط الدار البيضاء ١٩٥٤م ، الوفيات : ٥/٢٧ - ٢٨ .
٣) الخريده : ق ٤ ، ج ٢ ص ٥١
٤) طليطلة : مدينة كبيرة كانت تسمى مدينة الملوك ، يتصل عملها بعمل وادى الحجاره وهي على شاطئ نهر تاجه ، وبينها وبين قرطبه سبعة أيام للفارس وعلى مسافة ٩١ كم جنوب غرب مدريد : ياقوت الحموى ، معجم البلدان : ٤/٣٩ - ٤٠ .

خاب ظنه عندما أحكم عدو الله قبضته على المدينة وراح " يأسر ويقتل ، ويحرق ويمثل . وسما الشمر ، وتفاقم الأمر ، وأنكرت الموارد والمصادر ، وبلغت القلوب الحناجر ... وقضى قضاءه باستباحة الحريم ، واستئصال الراحل والمقيم واتلاف الموجود والمعدوم ... "(١)" وطفق أهل طليطلة يستصرخون من حولهم من ملوك الطوائف ، ولكنهم كانوا يضربون في حديد بارد ، فلم يستجب لهم أحد ، مما جعل الاذفونش يتمادى في تعسفه فأخذ في تحويل مسجد طليطلة الكبير الى كنيسة ، مما كان له جرح غائر في نفوس المسلمين بل وجعل الاندلسيين يفكرون في ايجاد حكم بديل ، وبخاصة عندما رأوا أطماع النصارى لم تتوقف عند طليطلة وانما أخذت تمتد الى الممالك الأخرى وقد عبر الشاعر ابن العسال عن هذا الخطر أصدق تعبير عندما قال : "(٢)"

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس
فما المقام بها الا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه وأرى
سلك الجزيرة منثورا من الوسط
من جاور الشر لا يأمن عواقبه
كيف الحياة مع الحيّات في سفط

والحدث الثالث هو سقوط بلنسية في يد رذريق المسمى بالسيد الكنبيطور الذى تربى في بلاط بني هود واستغلوه في حروبهم ، وذلك أنهم لما رأوا جيوش أمير المسلمين المرابطي تحتل الأندلس وتخضع ملوك الطوائف الواحد تلو الآخر ، خاف أحمد بن يوسف بن هود صاحب سرقسطة على ملكه فسلط الكنبيطور على بلنسية ليكون عقبة في طريق

---

(١) أنظر خبر الاستيلاء على طليطلة في الذخيرة ق ٤ ج ١ ، ص ١٦١ - ١٦٣ .

(٢) ابن العسال : أبو محمد عبد الله بن فرج اليحصبي من أهل طليطلة ، شاعرا مؤلفا ، وعارفا بالتفسير واللغة والآداب توفي سنة ٤٨٧ . أنظر الصلة : ١/ ٢٨٥ ، الوفيات : ٥/ ٢٧ - ٢٨ ، والابيات في النفح : ٤/ ٣٥٢

المرابطين يمنعهم من الوصول اليه ، وبالفعل شدد الحصار عليها واحتلها قبل وصول نجدة المرابطين اليها ، فعاث فيها فسادا حتى أنه أضرم النار وأحرق فقهاء المدينة وعلى رأسهم الفقيه الثائر ابن الجحاف ((فأضرم هذا المصاب الجليل يومئذ أقطار الجزيرة نارا / وجلل سائر طبقاتها خزيا وعارا ...)) "١" وقد ظلت بلنسيه كذلك حتى استعادها أمير المسلمين سنة ٤٩٥ هـ .

كل هذه الأحداث الجسام جعلت الأندلس تبحث عن خلاصها في ايجاد حكم بديل يفيء الناس فيه الى عدل الاسلام وعزته ، وعندما أدرك ملوك الطوائف خاصة المعتمد بن عباد أطماع الأذنونش في الاستيلاء على كل الاندلس اتجهت الانظار لاخوان العقيدة الاسلامية المتحمسين للدفاع عنها وهم المرابطون بقيادة زعيمهم الفذ الأمير يوسف ابن تاشفين اللمتوني البربري ، فبدأوا يبعثون له الكتب والرسائل تستصرخه وتحثه على تخليص البلاد المسلمة من جور النصارى الذين كلب داؤهم "٢" ولو أدى ذلك الى استيلاء المرابطين على الاندلس وضمها اليهم ، وهذا مفاد كلام المعتمد بن عباد - عندما خوف مغبة عبور المرابطين الى الأندلس - حيث قال : " ان رعي الجمال عند المرابطين خير من رعي الخنازير عند الاذفونش "٣" . وقد استجاب

---

١) خبر سقوط بلنسيه في الذخيرة ق ٣ ج ١ ص ٩٢ - ١٠٣ ، عباس (عصر الطوائف والمرابطين) : ص ٢٣ - ٢٤ .

٢) بعث المعتمد بن عباد في عام ٤٦٧ هـ الى يوسف يطلب منه الجواز، وفي عام ٤٧٤ هـ وصل وفد من أهل الأندلس الى ابن تاشفين يشكون سوء أحوالهم ، كما كتب اليه ابن الافطس سنة ٤٧٥ ، وكانت خاتمة هذه المحاولات جواز المعتمد بنفسه سنة ٤٧٩ الى مراكش فأكرمه ابن تاشفين ووعده بالجواز وقد تم ذلك في نفس السنة / انظر : ابن أبي زرع ، روض القرطاس : ص ١٤٢ ط الرباط ١٩٧٢م ، تاريخ ابن خلدون : ٣٨٠/٦ ، ط بيروت ١٣٩٩ هـ ، المعجب : ١٩٣ .

٣) عنان ، دول الطوائف ص ٣٠٦ ، الحلل الموشية : ٤٥ .

يوسف بن تاشفين لهذا النداء والاستغاثة فجهز جيشا عرمرما وشحنه بالقوارب عابرا البحر - الذى لم يعهده من قبل - الى الاندلس للجهاد في سبيل الله ونصرة المسلمين المستضعفين هناك فاستقبله ملوك الطوائف أو بعضهم استقبالا جيدا وقدموا لجيشه الميرة والهدايا وأكرموهم غاية الاكرام وبقي ابن عباد ملازما للجيش المرابطي يعرفه أحوال البلاد وطبيعتها الجغرافية من طرق ومسالك الى غير ذلك بالاضافة الى اعداده جيشا من اشبيلية يحارب الى جانب المرابطين فتكامل عدد جيش المسلمين بمختلف أنواعه زهاء عشرين ألفا "١" فزحفوا الى منطقة الزلاقة "٢" حيث لقيهم الاذفونش - لعنه الله - بعدد وافر من الاجناد والعتاد " استنفر الصغير والكبير ... وجاء يجر الشوك والشجر ، وانما كان مقصوده الأعظم قطع تشوف البرابرة عن جزيرة الاندلس والتهيب عليهم ... " "٣"

وتم اللقاء الحاسم بين الفريقين يوم الجمعة سنة تسع وسبعين واربعمائة للهجرة فأعز الله جند الاسلام ونصرهم نصرا عظيما فلم ينج من أعداء الله الا قائدهم الاذفونش جريحا وشرذمة قليلة من رهطه فعم الأندلس فرح عظيم وكثر الدعاء لابن تاشفين على المنابر وفي المساجد ، وانتشر له فيها ثناء عظيما ، ونشأ له الود في الصدور ، وقد صور يوسف بن تاشفين جوازه الى الاندلس وجهاده فيها في رسالة بعث بها الى الناصر بدين الله تميم بن المعز بن باديس بالمهدية يقول فيها : " ... ولما بلغنا من استحواذ النصارى ، دمرهم الله - على بلاد الأندلس ومعاقلها ، والزام الجزية لرؤسائهم ، واستيصال

---

١) المعجب : ١٩٣ ، وانظر تفصيل موقعة الزلاقة في الروض المعطار : ٨٤ ومابعدها ، ت عباس ، ط لبنان ١٩٧٥م
٢) الزلاقة : ارض بالاندلس بالقرب من قرطبه ،معجم البلدان : ١٤٦/٣ .
٣) المعجب : ١٩٣ ، ت سعيد العريان ط القاهرة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣م .

أقالمها وأيطابهم البلاد دارا دارا لا يتخوفون عسكرا يخرج اليهم ، فيبدد جمعهم ، ويفل حدهم ، وهم مع ذلك كله يقتلون الشيب والشبان ، ويأسرون النساء والصبيان ، فخوطبنا عن الجواز الى الاندلس من جميع الاحواز المرة بعد المرة ... فعزمنا على الغزو وجوزنا للعدو أسودا ضارية ، وسباعا عاديه ، شيبا وشبانا ، بسواعد قوية وقلوب في سبيل الله ثقية ، قد عرفوا الحرب وجربوها ، فهي أمهم وهم بنوها ، يتلمظون تلمظ الفهود ، ويزأرون زئير الأسود ... "

وتمضي الرسالة شارحة لكل ما حصل من البطولات الاسلامية ، وامداد الله سبحانه لهم بالنصر والثبات ، وكيف انهزم النصارى مخلفين وراءهم الغنيمة الوافرة " فثبت الله أقدامنا ، وقوى أفئدتنا ، والملائكة معنا ، والله تعالى ولي النصر لنا ، فولوا هاربين ، وفروا ذاهبين . وتساقط أكثرهم بقدر الله تعالى ، دون طعنة تلحقه ولا ضربة تثخنه ، وأضعف الرعب ايديهم ، فطعناهم بالسمهرية دون الوخز بالابر ، وضاقت بهم الأرض بما رحبت حتى أن هاربهم لا يرى شيئا الا ظنه رجلا ، وفتكت فيهم السيوف على رغم الانوف ، فوالله لقد كانت تقع على الدروع فتفريها ، وعلى البيضات فتبريها ... الى أن جن الليل وأرخى سدوله ، ولوا هاربين ، واسلموا رحايلهم صاغرين ، فكم من دلاص على البقاع ساقطة ، وخيول على الهقاع رابضة ، ولقد ارتبط كل فارس منا الخمسة الافراس أو أزيد ، وأما البغال والحمير فأكثر من ذلك ، وأما الثياب والمتاع فناهيك " (١)

وبعد هذا الفتح المبين رجع أمير المسلمين الى مراكش بعد أن تجول في الأندلس على سبيل التفرج والتنزه ، ويبدو أنه قد راقه منظر الأندلس وغناها وجودة مناخها وطبيعتها ففكر في الاستيلاء عليها ليمنعها من النصارى الطامعين ومن عملائهم ملوك الطوائف ، ويروى صاحب المعجب ،

---

(١) الرسالة كاملة نشرها محمد عبد الله عنان في ملحق كتابه عن دول الطوائف ، ص ٤٢٤ - ٤٢٨ .

روايات تفيد أن يوسف بن تاشفين كان طامحا في الاستيلاء على الاندلس منذ جوازه الاول اليها ومن ذلك قوله عنه "(١) " ... ورجع الى مراكش وفي نفسه من أمر الجزيرة المقيم المقعد ؛ وبلغني أنه قال لبعض ثقاته كنت أظن أني قد ملكت شيئا فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني مملكتي فكيف الحيلة في تحصيلها ؟ "

وقال عنه أيضا انه كان " يسر حسوا في ارتغاء " "٢" ولعل في هذه الروايات وغيرها التي تنحو هذا النص كثيرا من مجانبة الصواب ، وسبب ذلك عاطفة المراكشي التي كانت مائلة مع ابن عباد في نكبته الاخيرة من نفي له ولعائلته وقتل ولديه المعتد بالله والراضي بالله ، وخاصة أن ابن عباد كان شاعرا كبيرا قال من الشعر في نكبته هذه مايلين له الصخر ويعطف عليه كل من سمعه ، بالاضافة الى أن المراكشي الذى انفرد بهذه الروايات مؤرخ موحدى ، فمن غير المعقول ان يمدح المرابطين ويذكر نزاهتهم وقتالهم في سبيل الله ، وهم أعداء الدولة التي يعيش فيها ، كما أن يوسف بن تاشفين لم يكن يقطع أمرا الا بعد استشارة فقهاء المسلمين الذين كانت لهم الصدارة في الدولة ، واذا علمنا أن الرجل كان " زاهدا ، يأكل من عمل يده ، عزيز النفس ينيب الى الخير والصلاح ، كثير الخوف من الله عزوجل ، وكان أكبر عقابه الاعتقال ، مفضلا للفقهاء والعلماء ... يقضي على نفسه بفتياهم " "٣" اذا علمنا هذا أدركنا أن الرجل لم يكن تهزه شهوة الحكم والسيطرة على البلاد لاستهلاك خيراتها والتمتع بطيباتها ولو على بحر من الدماء

---

١) المعجب : ١٩١ .

٢) المصدر السابق : ١٩٣ وتأويل المثل أن ابن تاشفين يظهر أنه جاء ليخلص الاندلس ويسر في نفسه الاستيلاء عليها .

٣) الحلل الموشية : ٨٢ .

والجماجم وما الى ذلك .

ومهما يكن من أمر فقد استولى المرابطون على الأندلس وأسقطوا حكم الطوائف نهائيا سنة ٤٨٤ هـ ونعمت الاندلس في ظلهم - خاصة في عهد يوسف - بالأمن والمنعة حيث كان يهدد ملك الروم بقوله[١] :

" انما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدى الروم ، لما رأينا استيلاءهم على أكثرها ، وغفلة ملوكهم واهمالهم للغزو تواكلهم وتخاذلهم ، وايثارهم الراحة ، وانما همة أحدهم كأس يشربها ، وقينة تسمعه ، ولهو يقطع به ايامه ، ولئن عشت لاعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة الى المسلمين ، ولا ملأنها عليهم خيلا ورجالا لاعهد لهم بالدعه ، ولا علم عندهم برخاء العيش ، وانما هم أحدهم ، فرس يروضه ويستفرهه ، أو سلاح يستجيده ، أو صريخ يلبي دعوته " .

ويتوفى يوسف ويأتي من بعده ولده علي فيسير على نهج والده في تقريب الفقهاء يقول المراكشي في وصف دولته[٢] : " وكان لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فكان اذا ولى أحدا من قضاته ، كان في مايعهد اليه الا يقطع أمرا ولا يبت حكومه في صغير من الأمور ولا كبير الا بمحضر أربعة من الفقهاء فبلغ الفقهاء في ايامه مبلغا عظيما لم يبلغوا مثله في الصدر الاول من الاندلس " .

والذى يبدو أن هؤلاء الفقهاء قد استغلوا هذا النفوذ في التسلط على رقاب الناس والعمل لمصلحتهم الشخصية . فضاق بهم أهل الاندلس لأنهم أفقدوهم كثيرا من تلك الحرية بل الفوضي التي كانوا يعيشونها حيث الخمر والاباحية في القول والفعل ، ولعل من أخطاء الادارة المرابطية اعطاء قدر كبير من الحرية للنساء في فتراتهم التالية مما كان له الأثر السيء على الحكم حيث فقد الناس الثقة التي كانت من

---

١) المعجب : ٢٢٦
٢) المصدر السابق : ٢٢٨

قبل لدولة المرابطين والتي قامت على أساس ثابت من الجهاد لنشر العقيدة الاسلامية السمحاء خاصة ان هؤلاء النسوة اصبح لهن نفوذ كبير في عهد الولاة المباشرين لشئون الاندلس والذين بعدت الشقة بينهم وبين أمير المسلمين العادل ومن حوله من الفقهاء ، ولعل هذا كان بداية ضعف دولة المرابطين .

يقول المراكشي "١" : " واستولى النساء على الأموال واسندت اليهن الامور ، وصارت كل امرأة من أكابر عتونه ومسوفه ، مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور " .

وهذه الرواية على علاتها نستشف منها ان المرابطين في هذه الاونة قد بدأوا يتشبهون بالاندلسيين في التحضر والعناية في تزيين البلاط بكل فاخر بشكل يمحو آثار بساطة الصحراء الذين تربّوا فيها على التدين والجهاد والخشونة ، والترف - في العادة - هو نذير الدمار والزوال بالاضافة الى ان بعض أمرائهم جنح الى الاستبداد ، وتفضيل قومه البربر وتفويضهم كثيرا من أمور البلاد مما كان له الأثر السيء في نفوس أهل الأندلس ومن ذلك ماحدث لاهل قرطبه في سنة خمس عشر وخمسمائة مع أميرهم أبو يحيى بن رواد المرابطي حيث ثاروا عليه وعلى جنود المرابطين هناك ونهبوا دورهم وقصورهم ، حتى اضطر أمير المسلمين ان يبعث جيشا من عنده لاخماد الفتنة . "٢"

هذه الأحداث السياسية المتتابعة منذ عهد الفتنة البربرية الى حكم المرابطين تركت في النفوس آثارا عميقة جعلت كل فرد يطلب خلاصه في مهرب ومتنفس يوجده لنفسه ، فذهب بعض الناس الى اغراق متاعبهم وهمومهم في مجالس الشراب والغناء والاستهتار بالملذات ، وآخرون فروا الى العزلة والأنطواء بعيدا عن الضوضاء ، ونوع ثالث مضى محتميا

---

١) المعجب : ٢٤١
٢) الحلل الموشية : ٨٦ .

بذوى السلطان والجاه ، ونوع رابع آثر الهجرة ليجتر آلامه وعذابه في صمت ، وقد صور الادب حالات هؤلاء الناس على اختلاف أنواعهم فنجد الشعر والنثر حفل وبكثرة بوصف الخمر ومجالسها وساقيها مع الاهتمام بالغزل بالمذكر وغير ذلك حتى تحس بأن الأندلس كلها حانة كبيرة بجانب ذلك نجد نغمة الحزن والشكوى في اطار من الفلسفة والزهد ، وأهم ظاهرة اجتماعية تعنينا هنا هي ظاهرة " الهجرة والجلاء " التي تفسر لنا كثيرا من سلوك أبطال المقامات ؛ فأحداث الفتنة البربرية كانت " أجلب لنفار القلوب ، وقرف الندوب، وبعد الشرود ، ونبش الحقود " بل كانت " سببا في تفريق البلاد وتملك أصحاب الطوائف الذين في عهدهم كان الشر سببا فأصبح أسبابا ، والناس أحزابا " "١" . ويطالعنا هذا الجلاء بشكل واضح عندما بدأ أهل قرطبة يفرون نجاة بأنفسهم لمختلف البلاد الاندلسية عندما خربت قرطبه على يد البربر كما كانوا يفرون بأنفسهم أيضا في عهد الطوائف عندما تسقط مدينة من المدن في يد عدو أجنبي كالنصارى .

أما انسياح العلماء والادباء في عهد ابن تاشفين الى مراكش لتعميرها علميا وجعلها نضوا لبلاطات الاندلس فقد كان اختياريا وطبقا لرغباتهم الشخصية . حتى صارت مراكش محقل الحضارات الاسلامية في المغرب الاسلامي كله "٢" .

وظاهرة الانسياح أو الهجرة هذه سواء كانت اجبارية بسبب الفتن والحروب والظلم أو لطلب الرزق حددت بوضوح معالم شخصية البطل المقامي في ثوب الرجل الجوال المغامر بكل أشكاله كاتبا كان أو محاربا أو أديبا أو شاعرا فكل له سلاحه وميدانه ، ولعل وجود مثل هذه الشخصية متعددة تفسر لنا تطواف البطل المقامي في مختلف المدن الاندلسية وخارج الأندلس.

---

١) الذخيرة : ١/١/٣٥
٢) المعجب : ٥٢٧

ولا يسعنا في هذه الدراسة أن نغض الطرف عن سطوة الفقهاء الذين كانوا أعمدة الدولة وموضع الشورى للخلفاء والامراء في عهد الخلافة ، ولما سقطت الخلافة خفت حدة سلطانهم وانصرفوا الى التدريس أو الادب والكتابة ، ولكن عندما استولى المرابطون على الأندلس عاد للفقهاء سلطانهم ، وأصبح الفقيه المشاور حاكما مدنيا الى جانب القائد المرابطي الذى كان حاكما عسكريا ، وقد أثرى هؤلاء الفقهاء فضاق بهم الناس ومن يحمونهم من الحكام وجاهروهم بالعداء، وهذا مايفسر لنا تلك السخرية المريرة بهذه الطبقة في المقامات "٢" ، كما سنرى .

وفي مجال الأدب نجد أن عصر الطوائف - رغم التمزق السياسي - كان من أزهى عصور الاندلس الادبية حيث كان التنافس بين اولئك الملوك أو الامراء الصغار على أشده في تزيين بلاطاتهم بفطاحل الشعراء ، والكتاب وقد كان هؤلاء الادباء يجدون من الرعاية والتقدير الشيء الكثير فكانوا يحضرون مجالس أصحاب الأمر ويظفرون بالصلات الضخمة ، وتدرج أسماؤهم في سجلات الدواوين وتقرر لهم الارزاق ، وتخلع عليهم الوظائف ، حتي لقد كان الواحد منهم يرتجل المقطوعة القصيرة فيبلغ بها الوزارة . "٢"

ومما زاد الاهتمام في هذا الأمر كون بعض اولئك الحكام من الشعراء الفحول أو الخطباء والنقاد الكبار ، ويكفي أن يقف الدارس عند سيرة المعتمد بن عباد ملك اشبيليه ، واشهر ملوك الطوائف ليتبين مقدار اتساع سلطان الأدب في عهده .

ثم يحل عصر المرابطين في الاندلس ، فيفقد الأدب كثيرا من هذا

---

١) أنظر أخبار الفقهاء في النفح : ١٩٦/٦ ، والبيان المغرب ٢٥٤/٢ ، عبد العزيز سالم ،قرطبه حاضرة الخلافة في الاندلس : ١٤٥/١ ، ط بيروت ١٩٧١م .

٢) غارسيه غومس ، الشعر الاندلسي : ٤٦ ، ط القاهرة ١٩٥٦م

التشجيع ويتقهقر سلطانه كثيرا ، ليحل محله سلطان الفقه وذلك تبعا لطبيعة الدولة التي قامت على أسس اسلامية صرفة ، واتخذت الجهاد سبيلا لتحقيق مبادئها وأهدافها ، فمن الطبيعي أن يقل الاهتمام بالشعر والادب والفنون ، أضف الى ذلك أن حكام المرابطين البربر لم تكن لديهم حاسة التذوق الأدبي كالعرب الذين كانوا من قبلهم ، وفي هذا يقول ابن بسام "١" : " فلما عمت ذكر ملوك الطوائف بالاندلس طوى الشعر على قبره وما يوى من حلوه ومره " ولم يبق منه " الا نفثة مصدور أو التفاتة مذعور " .

وقد أحس الشعراء والادباء بتأخر رتبتهم عن الفقهاء فعبروا عن ذلك بأشعار كثيرة كقول الاعمى التطيلي "٢" :

أيا رحمتا للشعر أقوت ربوعه
على أنها للمكرمات مناسك
وللشعراء اليوم ثلت عروشهم
فلا الفخر مختال ولا العز تامك
فيا دولة الضيم أجملي أو تجاملي
فقد أصبحت تلك العرى والعرائك
ويا " قام زيد " أعرضي أو تعارضي
فقد حال من دون المنى : "قال مالك"

---

١) الذخيرة ٧٧٨/٢/١

٢) التطيلي : هو أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة ، له أدب بارع ، ونظر في الغوامض واسع ، وفهم لا يجارى ، وذهن لا يبارى ، ونظمه كالسحر الحلال ، ونثر كالماء الزلال ، وتوفي سنة ٥٢٥ هـ . المغرب : ٤٥١/٢ ، عن الذخيرة ، القلائد : ٣١٥ ، نكت الهيمان في نكت العميان ، للصفدي ، ١١٠ د.ت . والابيات في ديوان التطيلي ص ٩٠ ، بيروت ، ت عباس سنة ١٩٦٣

وقد قصد يقام زيد الأدباء ولقوله " قال مالك " الفقهاء حيث كان المذهب المالكي هو السائد في الأندلس . فهذه الحياة المتقلبة تبعا للاحوال السياسية فرضت على الأدب والأدباء وضعا معينا يتكيف فيه الأديب وفقا لميوله النفسية ولما يلقاه من القبول او الرفض من أمير بلاده ؛ أو حاكمها ، ولذلك نجد أدباء وشعراء بلغوا أعلى الدرجات في الدولة من طريق الأدب والشعر ، وآخرون اكتفوا بملازمة بلاط بعينه تمنح لهم رواتب أو مكافآت بقدر خدماتهم وطبقة أخيره - يهمنا أمرها - طافت الآفاق لا يقر لها قرار ، تحل بكل ربع وتأنف الاقامة والاستقرار ، ومن هذه الطبقة نعد أصحاب المقامات ، بل ونعد الزجالين أيضا "١"
كما نجد أيضا نزعة من الزهد اكتسى بها أدب هذه الفترة والذى تحول فيما بعد الى مذهب أدبي خلقي ، وكان حقلا طيبا للفن المقامي ، كما كان من الطبيعي أن تؤدى مثل هذه الفروق السياسية الى نوع من الهجاء الاجتماعي الحاد والساخر يخفف به الأدباء والشعراء حدة القهر والصراع في أنفسهم ويتلمسون من خلاله مواطن الداء طلبا للعلاج ، كقول الشاعر السميسر :

رجوناكم فما أنصفتمونا ... وأملناكم فخذلتمونا
سنصبر والزمان له انقلاب ... وأنتم بالاشارة تفهمونا "٢"

---

١) يلتقي فن الزجل مع المقامة في ثلاثة عناصر : القصص ، الكديه ، وخفة الروح .

٢) السميسر : أبو القاسم خلف بن فرج الالبيرى ، من أعلام شعراء البيرة ، مشهور بالهجاء والاقذاع ، وله كتاب في ذلك ذكره المقرى في النفح ٢/٤٩٦ ، يسمى " شفاء الامراض في أخذ الاعراض " ذكره ابن بسام بقوله : كان باقعة عصره واعجوبة دهره وهو صاحب مزدوج ، وله طبع حسن . الذخيرة : ١/٢/٨٨٢ ، انظر المغرب : ٢/١٠٠ ، والبيتين في الذخيرة ١/٢/٨٨٥

وقول الشاعر أبي بكر الابيض من شعراء المرابطين يهاجم الفقهاء ويهجوهم دون ترفق . "١"

قل للامام سنا الأئمة مالك
نور العيون ونزهة الاسماع
لله درك من همام ماجد
قد كنت راعينا فنعم الراعي
فمضيت محمود النقية طاهرا
وتركتنا قنصا لشر سباع
اكلوا بك الدنيا وأنت بمعزل
طاوى الحشا متكفت الاضلاع
تشكوك دنيا لم تزل بك برة
ماذا رفعت بها من الأوضاع

هذه بايجاز شديد لمحة سريعة عن أهم المؤثرات السياسية في عصرى الطوائف والمرابطين وماتمخض عنها من عوامل اجتماعية ونفسية لعبت دورا هاما في تشكيل الادب بمختلف فنونه الشعرية والنثرية كالرسالة الادبية والمقامه .

---

(١) الأبيض : أبو بكر محمد بن أحمد الانصارى ، أصله من قرية همدان ، وتأدب باشبيلية وقرطبة وهو شاعر مشهور ووشاح ، حسن التصرف هجاء ولع بهجاء الزبير الملثم صاحب قرطبه ، المغرب : ٢/١٢٧ ، وذكره صاحب المطرب ص ٧٦ بقوله : كان من فحول شعراء المغرب المذكورين بالسبق في الشعر والأدب ومات بعد سنة خمس وعشرين وخمسمائة . وذكره ابو البحر صفوان وذكر له الابيات المذكورة اعلاه . انظر زاد المسافر ، ص ١١٣ ، تحقيق عبد القادر محداد ، ط بيروت ١٩٣٩م . وانظر الخريده ق ٤ ج ٢ ص ١٦٠ ، وذكر وفاته بعد ٥٣٠ هـ .

البـــاب الأول

نشأة المقامات في المشـــرق

أولا : تعريف المقامه لغة واصطلاحا :

المقامة لغــة :

لقد عرّفت المعاجم القديمة والحديثة لفظة المقامة بتعاريـــف متقاربة، فممن ذكرها من أصحاب المعاجم القديمة أبو منصور الأزهـــرى اذ يقول "١" : مقامات الناس مجالسهم ، ويقال للجماعة يجتمعون في المجلس مقامه ، ومنه قول لبيد :

ومقامـــة غلب الرقاب كأنهـــم
جـن لدى باب الحصير قيـــام

ويقال : أقمت بالمكان مقاما واقامة ".

كما نجد هذا المعنى أيضا عند الجوهرى حيث يقول "٢" :

" المقامة بالفتح المجلس ، والجماعة من الناس ، والمقامة بالضـم الاقامـة " .

وجاء في لسان العرب "٣" : " المقامة المجلس ، ومقامـــات الناس مجالسهم ، قال العباس بن مرداس أنشده ابن برى :

فأيي وأيك كان شـــرا فقيد الى المقامة لا يراهـــا

ويقال للجماعة يجتمعون في المجلس مقامه ، ومنه قول لبيد :

ومقامة غلب الرقاب كأنهم جن لدى باب الحصير قيـام

---

١) تهذيب اللغة ، مادة " قوم " ، ٣٥٦/٩ ، ت : يعقوب عبد الغني ، ط القاهرة سنة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤م .

٢) الصحاح ، مادة " قوم " ، ٢١٧/٥ .

٣) ابن منظور ، ٤٩٨/١٢ ، ط بيروت ، سنة ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦م .

وقال زهيـر :

وفيهـم مقامات حسان وجوههـم
وأنديه ينتابها القـول والفعـل

والمقـام : الوضع الذى تقوم فيه ، والمقامة : السادة " .

ونفس المعنى ورد في القاموس المحيط "١" : " المقامـة المجلس والقوم ، وبالضم الاقامة ، كالمقام ، والمقام ، ويكونـان للموضع " .

وكذلك في تاج العروس "٢" : " المقامة المجلس ، ومقامـات الناس مجالسهم . . وأنشد ابن برى . . . . ومن المجاز المقامـة : القوم يجتمعون في المجلس ، ومنه قول لبيد . . . . " .

أما القلقشندى فيقول "٣" : " المقامة في أصل اللغة اسـم للمجلس ، والجماعة من الناس ، وسميت الاحدوثة من الكلام مقامـه ، كأنها تذكر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة من الناس لسماعهـا ، أما المقامة بالضم ، فبمعنى الاقامة ، ومنه قوله تعالى ، حكاية عن أهـل الجنة ((الذى أحلنا دار المقامة من فضله)) . "

وفي مختار الصحاح "٤" : " المقامة بالضم الاقامة ، وبالفتـح المجلس والجماعة من الناس ، وأما المقام ، والمقام ، فقد يكون كل واحد منهما بمعنى الاقامة ، وقد يكون بمعنى موضع القيام ، لانك اذا - جعلته من قام يقوم فمفتوح ، وان جعلته من قام يقيم فمضموم ، وقـوله تعالى : ((لا مقام لكم)) اى لا موضع لكم وقوله ((لا مقام لكم)) بالضم لا اقامة لكم " .

---

١) الفيروز أبادى ، ٤/١٦٨ ، ط بيروت ، د . ت
٢) الزبيدى ، ٩/٣٩ ، ط بيروت ، د . ت
٣) صبح الأعشى في صناعة الانشاء : ١٤/١١٠ .
٤) الرازى ، مادة قوم ص ٥٥٧

وإذا ما انتقلنا الى المعاجم الحديثة نجد أنها لم تخرج عن المعنى المتقدم للفظه في المعاجم القديمة ، ومن ذلك ماجاء في أقرب الموارد "١" : " المقامة المجلس ، والجماعة من الناس ، جمع مقامات ، وتطلق المقامات على خطب من منثور الكلام ومنظومه ، كمقامات الحريرى . تسمية للكلام بالموضع الذى يقال فيه ، وفي الاساس : قام بين يدى الأمير بمقامة حسنه ، وبمقامات : بخطبه أو عظة أو غيرهما ، والمقامة بالضم الاقامة . " .

وفي المعجم الوسيط "٢" : " المقامة : الجماعة من الناس ، والمجلس والخطبة أو العظة ونحوهما ، وقصة قصيرة مسجوعه تشتمل على عظة أو ملحه كان الأدباء يظهرون فيها براعتهم " .

المقامة اصطلاحا :

الملاحظ على التعريفات اللغوية السابقة للمقامة ، قديمها وحديثها أنها تجمع على أن معناها المجلس الذى يجتمع فيه الناس لسماع مايدور فيه من حديث واخبار وقصص واشعار ..

وقد تطور معنى لفظة مقامه عبر العصور الادبية حتى أصبح في القرن الرابع الهجرى يطلق على فن معين قائم بذاته له قواعده وأصوله ، ومرّ هذا التطور بمراحل ثلاث :

الأولى : ترجع الى العصر الجاهلي حيث تستعمل هذه اللفظة " المقامة " للدلالة على المجلس الذى هو مجتمع القبيلة العربية وناديها ، ودلالة الشعر الجاهلي قاطعة في تصوير ذلك .

---

١) سعيد الرشتوني ، مادة "قوم" ، ٢/١٠٥٤ ، ط بيروت ١٨٨٩م .

٢) مادة " قوم " ، ٢/٧٦٨ ، ط القاهرة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م

يقول زهير بن أبي سلمى "١" :

وفيهم مقامات حسان وجوههم
وأندية ينتابها القول والفعل
وان جئتهم ألفيت حول بيوتهم
مجالس قد يشفى بأحلامها الجهل

المرحلة الثانية :

أطلق لفظ مقامة على الحديث الذى يقام في المجلس ، ويجلس لاستماعه كالخطبة والعظة ونحوهما من منثور الكلام ومنظومه ، فأصبحنا نسمع في أواخر القرن الاول الهجرى عن مقامات الخطباء والزهاد ، ومجالس القصاص والوعاظ ، فأصبحت المقامة كما يقول بروكلمان "٢" : " تقترن بالشعر والادب وأخبار الوقائع القديمة " ، " وربما قالوا مقامة ومجلس لان المحدّث قد يلقي بعض حديثه قائما ، وبعضه جالسا ، وكذلك المستمعين بين قائم وجالس " "٣"

وكان مدار المقامة عندهم على رواية لطيفة مختلفة تنسب الى بعض الرواة ، ووقائع شتى تعزى الى بعض الأعراب ، لفظها ومبناها مناسب للمقام ، وواف بالغرض الذى من أجله اختلقت الوقائع مما تمخض عنه وضع الروايات والاحاديث الغريبة التي نمت الادب في عصرهم والتي كانت عماد مجالسهم وأنديتهم .

ويقول عاشور : " ولا أكون مبالغا اذا قلت ان كثيرا مما جاء به الرواة والعلماء في العصر الأموى وفي صدر الدولة العباسية هو المقامات بعينها . "

---

١) ديوان زهير : ١١٣ ، ط القاهرة .
٢) دائرة المعارف الاسلامية ١٧٢ .
٣) عبد القادر عاشور ، مقال بمجلة المقتطف (نشأة فن المقامة) ، مج ٧٧ ، ص ٨٥ ، سنة ١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠ م .

المرحلة الثالثة :

في أخريات صدر الدولة العباسية ارتقت المقامات وتأثرت بما تأثر به الادب العربي عامة من ألوان الحضارة وضروب الخيال ، فأصبحت فنا يدوّن ، ويصنف ، ويراعى في تدوينه وتصنيفه من الديباجة ورشاقة الاسلوب وترصيعه بالحكم الفائقة والنوادر الرائعة واشتماله على غريب الالفاظ وشوارد اللغة ، ونوادر الكلام ليكون ذخيرة لطلاب الانشاء وزادا لدارسي اللغة وآدابها مع عدم خلوها من الفكاهات الطريفة والامثال السائدة ، والقصص التي تزيد في عقل القارئ وتنمي خياله ، وتكسبه من التجارب مايفيده التوقي والحذر والتنبوء بما يطرأ عليه من نوازل الايام ونكباتها حتى يأمن الوقوع في شركها .

وفي نهاية القرن الرابع الهجرى حمل الموالي لواء الأدب ، وكان الاضطراب السياسي على أشده في الدولة العباسية ، من ضعف الخلفاء ، واستبداد الوزراء بالسلطة ، وتميزت طبقات المجتمع الى فقراء ، وأغنياء ، وكثر المتسولون ، وأصحاب الكديه ، جنحت المقامة الى تصوير حالة هؤلاء المكدين الذين كانوا يتوسلون الى الاغنياء بكلام مسجوع ، وكثيرا مانجد عندهم أمثال عبارة " أرحموا مقامي هذا " يريدون الموقف ، ثم صار المقام يطلق على مايقال من الكلام في تلك المواقف .

وبهذا نجد هذا الفن في صورته الفنية النهائية على يد بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ثمان وتسعين وثلثمائة هجرية ، وقلده الحريرى المتوفي سنة ستعشرة وخمسمائة .

والى هذا يشير الدكتور زكي مبارك بقوله "١" : " ومن المؤكد

---

١) النثر الفني في القرن الرابع الهجرى : ١ / ٢٤٦ ، ط بيروت ١٩٧٥م .

أن بديع الزمان ، حين أنشأ المقامات كان يتمثل مقامات السائلين في المساجد والاسواق ، ولذلك نجد راويته - أبا الفتح الاسكندرى - مشردا في جميع الأحيان " .

وللباحثين المعاصرين تعريفات موجزة للمقامة ، ومنهم الدكتور محمد غنيمي هلال حيث يقول "١" : " المقامة في الاصل المجلس ، ثم اطلقت على مايحكى في جلسة من الجلسات على شكل حكاية ذات أصول فنية . وموجز هذه الأصول : أنها حكاية قصيرة يسودها شبه حوار درامي ، وتحتوى على مغامرات يرويها راو عن بطل ، وقد يكون هذا البطل شجاعا يقتحم أخطارا وينتصر فيها . "٢"

وقد يكون ناقدا اجتماعيا أو سياسيا "٣" ، وقد يكون فقيهــا متضلعا في مسائل الدين ، أو مسائل اللغة "٤" ، ولكنه في حالاته كلها تقريبا متسول ماكر ، ولوع بالمذات ، مستهتر يحتال للحصول على المال ممن يخدعهم ، ثم هو دائما أديب يجيد في اسلوبه عن بديهة وارتجال " .

أما مارون عبود فيعرف هذا الاصطلاح بقوله "٥" : " اطلقت المقامة في ذلك العصر (اى في القرن الرابع) على قصة خيالية انشئت بعبارة مسجوعة غالبا ، محلاة بأنواع البيان والبديع ، مشتملة على كثير من الغريب . بدأ بهذا النوع من الادب بديع الزمان ، وحذا حذوه

---

١) الأدب المقارن : ٢٢٤ ، ط بيروت .
٢) كما في المقامة البشرية للبديع .
٣) انظر المقامة الشيرازية للهمذاني ، والمقامات رقم ٩ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٥٠ للحريرى .
٤) انظر المقامات رقم ٥ ، ٨ ، ٣٠ للهمذاني ، والمقامات رقم ٣ ، ٣٢ للحريرى .
٥) أدب العرب : ٣١٩ .

الحريري وغيره ، ولا عيب في هذه القصص الصغيرة الا أنها ترمي غالبا الى الاحتيال ، وطلب الرزق ، عن طريق النصب ، وهي مفيدة بأسلوبها وحفظها الفاظا كثيرة ، الا أنها غير شريفة المبادئ لا تعلم عزة النفس " .

والملاحظ على هذين التعريفين ان الاول يقول انها حكاية ذات أصول فنية يسودها الحوار والثاني ذكر انها قصة خيالية ، وحاصل التعريفين يمكن أن يستنتج منه ان المقامة كانت تشكل جسرا كبيرا عبرت عليه القصة الى ماهي عليه الآن ، ذلك لأن المقامه في مراحلها السابقة الذكر تشتمل على مبادئ أو عناصر أساسية في القصة الحديثة ، والعقدة والحوار مثلا وان كانا بشكل غير ناضج .

وأما ماجاء في كلام عبود المتقدم من انها غير شريفة المبادئ ، وانها لا تعلم عزة النفس ، فلعله مأخوذ من كلام ابن الطقطقا الذى قال (١) : " المقامات لا يستفاد منها سوى التمرن على الانشاء والوقوف على مذاهب النظم والنثر ، نعم وفيها حكم وحيل ، وتجارب الا أن ذلك مما يصغر الهمه اذ هو مبين على السؤال والاستجداء ، والتحيل القبيح على تحصيل النزر الطفيف ، فان نفعت من جانب ضرت من جانب . " .

والواقع أن ابن الطقطقا قال هذا الكلام في معرض الافتخار بكتابة الفخرى حين ألفه ، والذى وصفه بأنه فاق كتب الاوائل والأواخر ، وانه جمع فيه من العلوم باحوال السلاطين والوزراء مالا يوجد في غيره . ومن ثم أنحى باللوم على كل ماكان مشتهرا من الكتب في زمنه وأهمها المقامات .

ولا أدل على ذلك من قوله : " هو الفخرى انفع من المقامات التي الناس فيها معتقدون وفي تحفظها راغبون .. " .

---

(١) الفخرى في الآداب السلطانية : ١٦ ، ط بيروت ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦م .

أضف الى هذا أن الغرض من كتابة المقامات ليس هو تعليم الهمة ولا تصوير الاخلاق الفاضلة ، وانما جاءت لتعبر عن الواقع بكل مافيه من سعادة أو شقاء وبوءس ممثلا في الكدية التي شغلت حيزا كبيرا فيها وخاصة في مقامات البديع ، كما كان من أهدافها تعليم الانشاء بتنشيط ذهن القارئ لها بما فيها من اغراب في اللغة وزخرفة الفاظ مسجوعه وغير ذلك .

ويعرّف عمر رضا كحالة المقامة بقوله (١) : " وتطلق لفظة المقامة اصطلاحا على قصة نثرية وجيزة مشتملة على ملحمة يرويها الكاتب على لسان شخص فرضي ، وقد تكون طويلة أيضا ، وقد تورد في خلالها أشعار كثيرة لتزيد المتكلمين قوة ، والمترسلين بلاغة ، ولا بأس بأن تكون لصاحب المقامة أو لغيره ، ومن ملتزمات المقامة أن يضع الكاتب فيها غرائب اللغات وشواردها ، ويذكر حظا وافرا من الكلمات ، ويكثر عداد الألفاظ ، ويبذل واضع المقامة كل همته في تزيينها وتحسينها ، ويأتي بنوادر التركيب ، ويبالغ في الصناعة اللفظية والمعنوية ، ويزينها بما استطاع من الحكم والأمثال . وان ملاك المقامات وقوامها قصة حادثة تقتصر على رجل معين لا تتجاوز منه أبدا وهو خيالي في الأغلب " .

ويبدو أن هذا التعريف من أشمل ماعرفت به المقامة بصورتها النهائية ، فقد جمع فيه الكاتب معظم خصائص المقامة وقواعدها الأسلوبية .

---

١) الادب العربي في الجاهلية والاسلام : ٢٠٥ - ٢٠٦ .

ثانيا : أول من أنشأ المقامة :

كان السائد في الأوساط الأدبية الى عهد قريب أن بديع الزمان الهمذاني أحمد بن الحسين المتوفي سنة ثمان وتسعين وثلثمائة للهجرة هو مبتدع فن المقامات في الأدب العربي ،حتى اكتشفت حديثا ، اشارات في بعض المصادر القديمة تدل على أن هناك من سبق البديع في هذا المضمار .

ومن ذلك ماجاء في كتاب زهر الآداب عند ذكر الهمذاني حيث قال "١" : " أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمذاني ، بديع الزمان ، وهذا اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه ، وكلامه غض المكاسر ، أنيق الجواهر يكاد الهواء يسرقه لطفا ، والهوى يعشقه ظرفا . ولما رأى أبا بكر محمد بن الحسين "٢" بن دريد الأزدى أغرب بأربعين حديثا ، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره واستنخبها من معادن فكره ، وأبداها للابصار والبصائر ، وأهداها للافكار والضمائر ، في معارض أعجمية و الفاظ حوشية ،فجاء أكثر ما أظهر تنبوء عن قبولـه الطباع ولاترفع له حجبها الأسماع ، وتوسع فيها ، وصرّف ألفاظها ومعانيها في وجوه مختلفة ، وضروب متصرفة ، عارضها بأربعمائة مقامة في الكدية تذوب ظرفا ، وتقطر حسنا ، لا مناسبة بين المقامتين لفظا ولا معنى ، وعطف مساجلتها ووقف مناقلتها بين رجلين سمى أحدهما عيسى بن هشام ، والآخر أبا الفتح الاسكندرى ، وجعلهما يتهاديان الدر ، ويتنافثان السحر في معان تضحك الحزين وتحرك الرصين ، يتطلع منها كل طريفه ، ويوقف منها على كل لطيفه وربما أفرد أحدهما بالحكاية ، وخص أحدهما بالرواية " .

ومؤدى هذا النص أن بديع الزمان الهمذاني ليس هو المبتكر لفن المقامات ، وانما كان يحاكي ابن دريد في أحاديثه الأربعين المذكورة .

---

١) الحصرى ، زهر الأداب ، ١/٣٠٥

٢) هو محمد بن الحسن وليس الحسين كما جاء في نص الحصرى ، انظر : الاعلام: ٦/٣١٠ ، نزهة الالباء : ٩٦ ، خزانة الادب ٣: ١١٩/٣

ويذكر الدكتور زكي مبارك "١" أنه أول من لفت الانتباه الى هذا النص الفريد الذى لم يذكره أى مصدر آخر والذى أثار الدهشة لدى المسيو مارسيه استاذ مبارك وتعجب من اتفاق الناس الى اليوم على أن البديع هو منشيء المقامات . وقد تساءل عن امكانية الشك في نص الحصرى السابق فأجابه مبارك بقوله "٢" : " ان الحصرى تحدث بأسلوب يدل على أنه كان مفهوما في أوائل القرن الخامس أن بديع الزمان انما عارض ابن دريد وحاكاه ... "

ومما جعله يطمئن الى هذا الرأى أيضا أنه وجد ياقوت الحموى ينقل هذا النص عن زهر الآداب ويثبته دون تعليق أو نقد وذلك علامة قبوله "٣" ثم نجد الدكتور مباركا يطلع طه حسين على اكتشافه هذا فيندهش لذلك ويقول "٤" : " ان ابن دريد كان رجل لغة ورواية ولم يعرف عنه أنه كان كاتبا ممتازا ، فكيف أثار بديع الزمان بما ابتكر من الأحاديث ؟ ؟ ثم عاد فقال : ارجع الى كتاب الأمالي للقالي وانظر الأحاديث التي نقلها عن الاعراب ، فان رأيته يروى عن ابن دريد - وكان استاذه - فاعلم اذن أن الأربعين حديثا التي ذكر صاحب زهر الآداب انه اخترعها لم تكن شيئا آخر غير هذه القصص التي احتواها مرويه عن ابن دريد من ذلك مثلا حديث البنات اللاتي وصفن أزواجهن ، وحديث العاشق الجميل ، وقصة خنافر الكاهن ، والرواد الذين أرسلتهم مذحج لوصف بعض أقطار الجزيرة العربية ، وكذلك يمكن المضي في استقصاء ماذكره القالي من القصص العربية المسجوعه ، وان كان هذا لا يعني انها نفس القصص التي عارضها بديع الزمان " .

---

١) النثر الفني في القرن الرابع الهجرى : ١/ ٢٤٤

٢) نفس المرجع والصفحة .

٣) معجم الأدباء : ١/ ١٦٩

٤) النثر الفني : ١/ ٢٤٤

ويعقب مبارك على هذا الكلام بقوله "[١] : " وعندى أن من أسباب غفلة مؤرخي الادب عن كشف هذا الغطأ ان ابن دريد يسمى قصصه أحاديث في حين أن بديع الزمان سمى قصصه مقامات " .

والملاحظ أن مباركا رغم ترجيحه محاكاة الهديع لأحاديث ابن دريد الا انه لا يسلّم ان كل الاحاديث التي رواها القالي في مواضع شتى من كتابه الامالي هي التي ذكر الحصرى - كما تقدم - بان ابن دريد أغرب بها ، بل انه بصدد اثبات وصول طائفة منها الينا عن طريق أبي علي القالي وكتابه الأمالي ، فيعود للفكرة مرة ثانية ليجليها ، ويحاول دحض كل مايدور حولها من شكوك وشبهات بادئا بالرد على شكوك الدكتور طه حسين فيقول "[٢] : " ان الذى كان يريب الدكتور طه حسين من ابن دريد هو روايته عن عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي ، وكان يرى في كلمة ابن أخي الاصمعي مثارا للشك ، وقد رأيت أن أتعقب هذه الفكرة عند العرب فوصلت الى أن رواة العرب كانوا يستعملون مثل هذا التعبير فاننا نجد الاصفهاني ينقل : " حدثني أبو مسلم عن ابن أخي زوقان " .

وكان مثارا للشك ان عبد الرحمن هذا لم يذكر أحد من أبوه ، وقد وصلت بعد البحث أنه عبد الرحمن بن عبد الله ذكره ابن خلكان "[٣] ، وذكره ابن الانبارى "[٤]" من بين من أخذ عنهم ابن دريد وفي معجم ياقوت قال أبو حيان "[٥]" : " وكان يختلف الى مجلس أبي سعيد علي بن المستنير وكان هذا ابن بنت قطرب " وكلمة ابن بنت قطرب تدل على أنهم كانوا يعطون قيمة لمن يتصل بكبار العلماء اتصال قرابة ، ومثل هذا مانقل ياقوت "[٦]" : " حديث يموت بن المزرع عن خاله الجاحظ " .

---

١) نفس المرجع السابق والصفحة .
٢) الاغاني : ١/٦٩
٣) وفيات الأعيان : ٢/٣٤٠
٤) نزهة الألباء : ٢٥٧
٥) معجم الادباء : ٦/٧٨
٦) نفس المصدر السابق والصفحة

ثم ينتقل زكي مبارك الى حديث آخر جديد - غير التي ذكرها من قبل - مركزاً على أنه جزء من الاربعين حديثا التي ابتكرها ابن دريد وذلك هو حديث " حج أبي نواس " يقول [١] : " حديث ابن دريد في حج أبي نواس كتب بطريقة روائية تصلح تمام الصلاحية لأن تكون أساسا لفن المقامات ، ولست أشك الآن أن هذا الحديث جزء من الأربعين التي ابتكرها ابن دريد " . وهذا الحديث مشهور أورده جامع ديوان أبي نواس حمزة بن الحسن الاصبهاني بقوله [٢] :

" حدثنا محمد بن الحسن بن دريد ، قال : حدثني مخلد بن القاسم العتكي ، قال : حدثني اسماعيل ، قال : قال أبو نواس :

" حججت مع الفضل بن الربيع حتى كنا بارض فزاره في أوان الربيع ، نزلنا منزلا بازاء باديتهم ، ذا روض أريض ، ونبت غريض ، وترب كترب الكافور حتى اكتست الارض بجميم نباتها الزاهر ، واتزرت بمحض عشبها الناظر ، والتحفت بأنواع زخرفها الباهر بما يقصر عنه النمارق المصفوفة ولا يداني زهرتها الزرابي المبثوثة ، فراقت بنضرتها الأبصار وارتاحت لزبرجها القلوب ، واشتاقت الى نسيمها الصدور وابتهجت ببهائها النفوس ، فما لبثنا ان اقبلت السماء فأشفت بربابها ، وتدانى من الارض ركام حتى اذا كان كما قال عبيد بن الابرص :

دان مسف فويق الأرض هيدبه
يكاد يدفعه من قام بالراح

همت السماء برذاذ ثم بطش ثم برش ثم بوابل ثم هتنت حتى اذا تركت الربى كالوهاد ريا تقشعت فأقلعت ، وقد عادت الغدران مترعة تدفق ، والقيعان ناضرة تألق ، تحدق بحدائق مرنقة ورياض رايقة وغياض من عرفها فايحة تتحاك بأنواع النورالفضي الذى اذا همصت

---

١) النثر الفني : ١/٢٨٢ - ٢٨٣ .

٢) ديوان أبي نواس : ٥١-٥٦ ، ط. مصر سنة ١٨٩٨م

بتشبيهه بشيء حسن اضطرك حسنه الى رده اليه ، فاذا تقت اليه تضوع طيب لم تجد معولا في الذكاء الا عليه ، فسرحت طرفي رامقا في أحسن منظر ، واستنشقت من رياها أطيب من المسك الاذفر ثم قلت لزميلي : ويحك امض بنا الى هذه الخيمات فلعلنا نلقي بعض من نؤثر عنه خبرا نرجع به إلى بغداد ، فلما انتهينا الى أولها اذا نحن بخباء على بابه جارية مبرقعة تدنو بطرف مريض الجفون ، وسنان النظر ، قد حشي فتورا ، وملئ سحرا ، قد مدت يدا كأنهما لسان طائر بأطراف المداري ، وخضاب كأنه عنم ... " وبقية الحديث ان أبا نواس ورفيقه سحرهما جمال الفتاة ، فطلبا منها أن تسقيهما الماء ففعلت ، وبدأ الحديث والغزل ، ولكن طبول الرحيل أعجلت أبا نواس عن الظفر بشيء من تلك الجارية ، وعندما رجع من الحج مرّ بتلك الخيمات فوجد تلك الجارية في رهط من صويحباتها ، وكلهن من الجمال والأدب بمكان رفيع ، فحادثهن ساعة لعله يظفر ببغيته منهن فأظهرن له قبول ذلك ، ثم دبرن له مكيدة خرج على اثرها يجر أذيال الخزى والخيبة وهربن وتركنه .

ثم يقرر الدكتور مبارك بعد ذلك أن "(١)" الأحاديث التي نقلها القالي عن ابن دريد تشتمل على طائفة من القصص المسجوعة تقرب في وضعها من قصته عن حج أبي نواس وتصلح أيضا أن تكون أساسا لفن المقامات ، فلا بأس من الاطمئنان الى أنها شطر من الأربعين حديثا التي عارضها بديع الزمان " .

ويعلق الدكتور محمد رجب البيومي على هذا النص بقوله "(٢)" :
" ان مارواه القالي عن ابن الانباري والاصمعي والكلبي وأبي عبيدة وغيرهم يشمل انماطا من القصص المسجوعة التي تقرب من قصة أبي نواس

---

(١) النثر الفني : ١/٢٨٢
(٢) مجلة الثقافة المصرية ، عدد ٧٤ ، سنة ١٩٧٩ م ، مقال بعنوان " من رائد فن المقامة " .

فلم يذهب ابن دريد وحده بفضل الابتكار ؟ ولم لا يكون اذن رواة القصص المسجوعة كلهم روادا للبديع ؟ ثم مامعنى لا بأس هذه في قوله " لا بأس من الاطمئنان الى انها شطر من الأربعين حديثا " أيكون لكلمة لا بأس موضع في قضية ذات دليل ؟ "

والحق أن نقد الدكتور البيومي لكلام زكي مبارك جاء في موضعه اذ أن مباركا لم يبين لنا الخصائص الفنية لهذه الاحاديث التي تجعلها صالحة لتكون اساسا لفن المقامات البديعة ، بل انه اكتفى بذكر اشتمالها على القصص المسجوعة بدون تفصيل ، ولعله مما يشفع للدكتور مبارك في تخصيصه ابن دريد دون غيره من كتاب القصص المسجوعة أنه رأى معظم القصص والحكايات في الأمالي مرويه عن ابن دريد ، وليس هناك الا القليل تروى عن غيره كالاصمعي وابن الانبارى والكلبي وغيرهم .

ثم يأتي مبارك بحجة أخرى تؤيد ماذهب اليه من وصول أحاديث ابن دريد او بعضها الينا عن طريق كتاب الامالي فيقول "١" : " يلاحظ أن اكثر ماروى القالي عن ابن دريد من الاحاديث جرى على ألسنة ناس مجهولين : فأشخاصه يكونون حينا من الاعراب ، وتارة يكونون من أقيال اليمن الذين لا يعرف لهم اسم ولا يحفظ لهم تاريخ وأحيانا يكونون من النكرات التي لا يعرف لها وجود وهذا دليل على الوضع والاختراع " .

ويردف هذا بدليل آخر استنبطه من نص الحصرى في زهر الآداب ، ولعله يكون أكثر أدلته وضوحا ودلالة على فكرته فيقول "٢" : " لاحظ صاحب الزهر أن الاربعين حديثا التي ابتكرها ابن دريد جاء أكثرها مما تنبو عن قبوله الطباع ولا ترفع له حجبها الاسماع . . .

---

١) النثر الفني ، ١/٢٨٢ ،

٢) نفس المرجع ص ٢٨٣ ج ١

ولو أننا تتبعنا مانقله القالي من تلك الاحاديث لوجدنا الصنعة والاغراب ظاهرين فيها كل الظهور ، وربما ساغ لنا أن نفترض أن ابن دريد تعمد أن يدس في أحاديثه بعض الألفاظ التي أتهم بافتعالها وتوليدها ، وكان همه اذن أن يجرى ما أتهم بافتعاله على ألسنة الأعراب لتسقط عنه تهمة الاختلاق " .

وممن اتهم ابن دريد بادخال ماليس من كلام العرب في كلامها أبو منصور الازهرى حيث يقول "١" : " وممن ألف في عصرنا الكتب فوسم بافتعال العربية وتوليد الألفاظ التي ليس لها أصول ، وادخال ماليس من كلام العرب في كلامهم : أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الازدى صاحب كتاب الجمهرة ، وكتاب اشتقاق الاسماء ، وكتاب الملاحق وحضرته في داره ببغداد غير مرة ، فرأيته يروى عن أبي حاتم والرياشي ، وعبد الرحمن بن أخي الاصمعي ، فسألت ابراهيم بن محمد ابن عرفه المقلب بنفطويه عنه ، فاستخف به ولم يوثقه في روايته " .

وقال عنه المسعودى "٢" : " ... وأورد أشياء في اللغة لم توجد في كتب المتقدمين "" ومما ذكره ابن خلكان في ترجمته لابن فريد قوله "٣" : " كان واسع الرواية لم ير أحفظ منه ، وكانت تقرأ عليه دواوين العرب فيسابق الى تمامها من حفظه ، وسئل عنه الدارقطني أثقة هو أم لا ؟ فقال : تكلموا فيه ، وقيل انه كان يتسامح في الرواية فيسند الى كل واحد مايخطر له ، قال الأزهرى : دخلت عليه فرأيته سكرانا فلم أعد اليه ، وقال ابن شاهين : كنا ندخل عليه ونستحي مما نرى من العيدان المعلقة والشراب المصفى " .

---

١) مقدمة تهذيب اللغة : ٨ ، ط القاهرة سنة ١٩٦٤م ، تحقيق عبد السلام هارون .
٢) مروج الذهب : ٣٢٠/٤ ، ط بيروت سنة ١٩٧٣م
٣) وفيات الاعيان : ٣٢٦/٤ ، ط بيروت ، تحقيق احسان عباس .

ومن هذه النصوص يتضح لنا أن ابن دريد كان يدخل في لغة العرب ماليس منها ، ويولد الالفاظ التي تروى غليله في طلب وتتبع غريب اللغة ، كما أنه كان غير ثقة ، سكيرا ووضاعا يضع الكلام وينسبه الى من شاء من الاعراب ، فلا يستبعد اذن أن تكون هذه الأحاديث المذكورة أو بعضها هي احاديث ابن دريد التي أشار اليها صاحب زهر الآداب خاصة حديثه عن الرجل الذى "١" من مقاول حمير ، وما بينه وبين ابنيه عند ما كبرت سنه وفيه حوار يدور على اسئلة من جانب الأب يجيب عليها الابنان ، وذلك عن أحب الرجال اليهما ، والنساء ، والجياد ، والسيوف ... الخ ونجد هنا أن هدف هذا الحديث هو الوصف المقصود لذاته ، لذلك نلاحظ حشدا ضخما من الصفات لكل ماتقدم تظهر فيها الصنعة اللفظية والحسنات البديعية بالاضافة الى ماحوته من غريب الالفاظ ، وحديثه أيضا عن قيل من أقيال حمير "٢" منع الولد دهرا ثم ولدت له بنت فبنى لها قصرا ووكل بها نساء من بنات الاقيال يؤدبنها ، ويخدمنها حتى كبرت ، فأشرف عليها بالزواج .. الخ وهو يسير أيضا على نفس الاسلوب الذى اتبعه ابن دريد في الحديث السابق ، وربما ان بديع الزمان الهمذاني قد اطلع عليها فاستهوته فعارضها بمقاماته ، ولكن قد يرد اعتراض على هذه الروايات ، وهو ان ابن دريد يروى هذه الاحاديث عن أشياخه بسند طويل ، فكيف يقال انه استخرجها من ينابيع صدره ، واستخصها من معادن فكره ؟

فمثلا نجد في الحديث الأول المذكور في أعلى الصفحة يرويه ابن دريد بالسلسلة التالية "٣" " حدثنا الاشناندانى عن التوزى عن ابي عمر بن العلاء " . والثاني قال ابن دريد "٤" : " اخبرنا

---

١) القالي ، الامالي : ١٥٢/١ - ١٥٤ ، ط بيروت - سنة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .
٢) نفس المرجع ج ٢ ص ٨٠ - ٨١
٣) نفس المصدر السابق : ١٥٢/١ .
٤) المصدر نفسه : ٨٠/٢ .

السكن بن سعيد عن محمد بن عباد عن ابن الكلبي عن أبيه " ؛ وحديث خنافر الكاهن عن ابن دريد قال "١" : " أخبرنا عبد الرحمن عن عمه " ؛ وحديث حج ابي نواس مروى عن ابن دريد قال "٢" : " حدثني مخلد بن القاسم العتكي قال ؛ حدثني اسماعيل " . ويمكن المضي مع باقي الاحاديث على هذا النحو كحديث البنات الثلاث اللواتي وصفن أزواجهن ، وحديث رسل مذحج وغير ذلك ، على أن الدكتور مباركا لم يتنبه الى هذا الأمر ، ولكن لعلنا نستطيع القول أن هذا السند الذى يأتي به ابن دريد ماهو الا مجرد ستار يضفيه على قصصه وأحاديثه ليقبلها الناس وليسلم من تهمة الاختلاق كما مر سابقا ، أضف الى ذلك تأثر ابن دريد بطريقة رواة الحديث النبوي الشريف .

والى هذا يميل الدكتور شوقي ضيف حيث يقول : " ... فابن دريد يبدأ أحاديثه دائما بالسند ، وفي نص الحصرى السابق مايشير الى أن أحاديث ابن دريد من مخترعه ، ومعنى ذلك ان سندها من مقترحه ، وكان ابن الكندى وغيره ممن يسند اليهم أحاديثه ليسوا أكثر من رمز الى سنة الرواة ، أما في حقيقة الأمر فلا رواية ولا راو وانما هي من عمل ابن دريد ومن نسج خياله . "٣" وانا جاز لنا أن نعترض على الدكتور مبارك في قوله أنه أول من اكتشف نص الحصرى السابق ولفت الانتباه اليه وبنى عليه بالتالي سبق ابن دريد الى ريادة فن المقامات ، وذلك ان النص مذكور في شرح الشريشي لمقامات الحريرى "٤"

---

١) المصدر نفسه ١/٣٨ .
٢) ديوان أبي نواس : ٥١ ، ط القاهرة ١٨٩٨م
٣) كتاب المقامة : ٢٤ ، ط القاهرة ١٩٧٦م
٤) انظر ج ١ ص ٢٤ .

وفي وفيات الأعيان "١" ، وفي معجم الأدباء "٢" ، فلم يكن النص اذن مخبوءا في مكان يصعب الوصول اليه .

كما أننا يمكن أن نستدرك عليه بعض الاحاديث الدريدية التي لم يشر اليها مع أنها قريبة الشبه جدا بالمقامات بل يمكن القول أنها تصلح لأن تكون من أصول المقامات وبالتالي يترجح أنها جزء من احاديث ابن دريد الاربعين ، ومن ذلك مانقله ابن خلكان بقوله "٣" :

" قال المرزباني : قال لي ابن دريد : سقطت من منزلي بفارس ، فانكسرت ترقوتي فسهرت ليلتي ، فلما كان آخر الليل غمضت عيني فرأيت رجلا طويلا أصفر الوجه كوسجا ، دخل عليّ ، وأخذ بعضادتي الباب وقال : أنشدني أحسن ماقلت في الخمر ، فقلت : ماترك أبو نواس لاحد شيئا ، فقال : أنا أشعر منه ، فقلت : ومن أنت ؟ قال : أنا أبو ناجيه من أهل الشام وأنشدني :

وحمراء قبل المزج صفراء بعده
أتت بين ثوبي نرجس وشقائق
حكت وجنة المعشوق صرفا فسلطوا
عليها مزاجا فاكتست لون عاشق

فقلت له : أسأت ، فقال : ولم ؟ قلت : لانك قلت حمراء فقدمت الحمرة ، ثم قلت : " بين ثوبي نرجس وشقائق " فقدمت الصفرة فهلا قدمتها على الأخرى ، فقال : ماهذا الاستقصاء في هذا الوقت يابغيض ؟ ،

---

١) ١٩٧/١ تحقيق عباس .
٢) ج ١ ، ص ١٦٩ .
٣) وفيات الأعيان : ٣٢٧/٤ ، المرزباني ، نور القبس ، ص ٣٤٣ ، تحقيق رودلف زلهايم ، ط بفيسبادن ، سنة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤م

وجاء في رواية أخرى أن الشيخ ابا علي الفارسي النحوى قال : أنشدني ابن دريد هذين البيتين لنفسه وقال : جاءني ابليس في المنام ، وقال : أغرت على ابي نواس ؟ فقلت : نعم ، فقال : أجدت الا أنك أسأت في شيء ثم ذكر بقية الكلام الى آخره " .

هذه الحكاية التي صنعها ابن دريد تذكرنا بالمقامة الابليسية "١" من مقامات بديع الزمان الهمذاني التي تدور حول لقاء تم بين عيسى بن هشام راوى مقامات الهمذاني وبين شيخ يجلس في أرض خضرة مصردة الأنهار - وذلك في أثناء بحث الأول عن ابل له أضلها - فيسأل الشيخ ابن هشام أن ينشد له مما يحفظ من أشعار العرب ، فأنشد له من شعر امرىء القيس ، وطرفه ولبيد وغيرهم ، فلم يطرب لشيء من ذلك ثم ينشده الشيخ من شعره :

بان الخليط ولو طوعت مابانا
وقطعوا من حبال الوصل أقرانا

فيتعجب عيسى بن هشام منه ويقول : " ياشيخ هذه القصيدة بجرير قد حفظها الصبيان ، وعرفها النسوان ، وولجت الأخبية ، فيخبره انه هو الذى أملاها على جرير ، وانه الشيخ أبو مره شيطان جرير " .

ومن المقارنة بين النصين يتضح الشبه الكبير بينهما من ناحية الاسلوب ، والهدف الذى هو تحقيق فكرة شياطين الشعراء واملائها الشعر عليهم ، وهي فكرة قديمة آمن بها العرب في الجاهلية .

---

(١) محمد محيى الدين عبد الحميد ، شرح مقامات الهمذاني : ٢٥٣ ، ط القاهرة ١٣٨١ هـ ، ١٩٦٢م .

وكذلك حديث ابن دريد من سؤال الاعرابي في المسجد الجامع بالبصرة ، رغم قصره الا انه يشبه الى حد كبير سؤال أبي الفتح الاسكندرى - بطل الهمذاني - في المقامة البخارية ، ولنأخذ نموذجا من كل

قال أبو علي القالي "١" : " حدثنا أبو بكر رحمه الله قال : أخبرنا أبو حاتم عن ابي عبيدة عن يونس قال : وقف اعرابي في المسجد الجامع بالبصرة فقال : قل النيل ونقص الكيل وعجفت الخيل ، والله ما أصبحنا ننفخ في وضح "٢" ، ومالنا في الديوان من وشمه ، وانا لعيال "٣" جريّه ، فهل من معين ، اعانه الله ، يعين ابن سبيل ونضو طريق وفك سنه ، فلا قليل من الأجر ولا غنى عن الله ولا عمل بعد الموت . "

وفي المقامة البخارية ، حدثنا عيسى بن هشام قال "٤" : " احلني جامع بخارى يوم وقد انتظمت مع رفقة في سمط الثريا ، وحين احتفل الجامع بأهله طلع الينا ذو طمرين ، قد أرسل صوانا واستتلى طفلا عريانا يضيق بالضر وسعه ، ويأخذه القر ويدعه ، لا يملك غير القشرة بردة ، ولا يكتفي لحماة وعده ، فوقف الرجل وقال : لا ينظر لهذا الطفل الا من الله طفلّه ، ولا يرق لها الضر الا من لا يأمن مثله ، يا أصحاب الجدود المفروزة ، والاردية المطروزة ، والدور المتجره ، والقصور المشيدة ، انكم لن تأمنوا حادثا ، ولن تعدموا وارثا ، فبادروا الخير ما أمكن ، وأحسنوا مع الدهر ما أحسن ، فقد والله طعمنا السكباج "٥"

---

١) الامالي : ٢/١٩٧ .
٢) الوضح : اللبن سمي كذلك لبياضه : انظر اساس البلاغة : مادة وضح ص ١٠٢٧ .
٣) الجريّه : الجماعة ، عيال جرية أى المتساوون في الكبير فلا صغير فيهم . لسان العرب (مادة جرب) ج ١ ص ٢٦٢ ، ط بيروت سنة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م
٤) شرح مقامات الهمذاني : ٩٥ - ٩٦ .
٥) السكباج : لحم يطبخ بالخل ، الهملاج : الدابة السريعة في سيرها ، انظر المصدر السابق ونفس الصفحة .

وركبنا الهملاج ولبسنا الديباج ، وافترشنا الحشايا بالعشايا ، فما راعنا الا هبوب الدهر بغدره ، وانقلاب المجن لظهره " ...

فالتشابه واضح في عرض حال كل من السائلين فكلاهما يشكو تقلبات الأيام التي اضطرته الى السؤال بعد أن كان من أهل النعمة واليسار كما نلاحظ التقارب في استعمال السجعات القصيرة الحادة مع ميل ابن دريد الواضح الى البحث عن الغريب ، بينما يميل البديع الى وصف الكدية واساليبها حيث أنها أصبحت صناعة في عصره ، فالشيخ السائل يسحب خلفه غلاما أشعث أغبر كي يثير الشفقة والعطف من الناس لتنهال عليه الدراهم ، ولعل الهدف عند الاثنين كان تعليميا ولكنه عند البديع يمتزج بتصوير حالات المجتمع ومايدور فيه من أمور سياسية واجتماعية أهمها ظاهرة الكدية والتسول .

وهناك أيضا حديث وصف الفرس الذى جاء في الامالي يشبه الى حد كبير وصف الفرس في المقامة الحمدانية .

ففي الحديث ، قال ابن الاعرابي واصفا أعضاء الفرس : "١"

" التسعة الطوال عنقه وخداه ووظيفا رجليه وبطنه وذراعاه وفخذاه .. وتسع غلاظ ... والسبع الرقاق ... وعريض الثمان ... الخ " .

وفي مقامة البديع المذكورة يقول : "٢" " طويل الاذنين ، قليل الاثنين ، واسع المراث ، لين الثلاث ، غامض الاربع ... لطيف الخمس ... رقيق الست ... غليظ السبع ... عريض الثمان .... قصير التسع ... بعيد العشر ... الخ " .

وهكذا يمكن للباحث أن يجد كثيرا من الاحاديث ذوات الصلة بالمقامات كحديث الاعرابي السائل في المسجد الحرام "٣" المروى

---

١) الأمالي : ٢٥٢/٢ - ٢٥٥ .
٢) شرح مقامات الهمذاني : ٢٠٩ .
٣) الامالي : ١١٣/١ .

في الامالي ، وحديث المرأة التي سكنت البادية قريبا من قبور أهلها "١" وغير ذلك .

ولعل الذى جعل الباحثين يترددون في الجزم بأن الهمذاني حاكى أحاديث ابن دريد هو اختلاف وحدة الموضوع بين الاحاديث والمقامات ، ذلك أن احاديث ابن دريد لا ربط بينها من ناحية الموضوع وهذا راجع الى الهدف التي صيغت من أجله الاحاديث وهو تتبع وطلب شوارد اللغة وغريبها بينما صيغت المقامات على نمط واحد ، وبأسلوب واحد تهدف بجانب تعليم الانشاء الى تصوير واقع حياة الناس كما يظهر ذلك من تقلبات شخصية ابي الفتح الاسكندرى بطل المقامات الهمذانية ، ولعل هذا هو الذى حدا بالدكتور عبد الوهاب عزام الى القول "٢" : (وفي كتب الادب كثيرا من القصص الصغيرة المصنوعة في اسجاع مختارة ، وكلمات منتقاة ، ولكن مهما يقل فبديع الزمان فيما نعرف ، مخترع هذه القصص الخيالية التي عرفت في الادب العربي باسم المقامات ، وأما روايات اللغويين فقد رويت على أنها حقائق ، واريد بها رواية اللغة قبل أى شيء آخر ، وحديث الراوى فيها مرسل لا صناعة فيه ، ولا يقصد في الرواية على حين يستوى في القامة او يتقارب من حيث البلاغة والفصاحة حديث عيسى بن هشام وكلام الاسكندرى " .

وذهب بعض الادباء والنقاد الى أن بديع الزمان الهمذاني كان محاكيا او مقلدا لاديب ظهر في عصره هو ابو المطهر الازدى في حكايته " أبي القاسم البغدادى " وأبو المطهر هذا رجل غامض التاريخ والسيرة فلم استطع العثور على شيء من أخباره في كتب التراجم القديمة

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٧ .
(٢) مجلة الرسالة ، مج ١ ، العدد ٤٦ ، مقال بعنوان : (بديع الزمان الهمذاني) ص ٨٦٢ ، السنة الثانية ١٩٣٤م

والحديثة الا اني وجدت بعض اخباره وطرفا من حكايته تلك في كتاب النثر الفني لزكي مبارك "١" الذى يشير الى ان الازدى كان يعيش في صميم القرن الرابع ، وأنه الف هذه الحكاية في أواسط القرن الرابع لانه يتحدث فيها عن مجلس أنس قضاه مع ابن الحجاج واليعقوبي وابن سكره وهؤلاء من أهل القرن الرابع ، أما عن الحكاية فيقول مبارك "٢" : " وليست حكاية أبو القاسم البغدادى التي وضعها أبو المطهر الازدى الا فنونا من القول أراد بها وصف المجون وتصوير الماجنين من أهل بغداد وأصفهان ... وهي مجلس واحد يطرّد فيه القول من فن الى فن في دعابة وظرف ، وأبو القاسم بطلها رجل جمع أدوات النصب والاحتيال والنفاق ، وهو يشبه من بعض الوجوه ابا الفتح الاسكندرى في مقامات بديع الزمان ، فانا نراه يداوى أهل المجلس وينافقهم فيلبس ثوب التقى والصلاح ، حتى اذا رآهم على استعداد للهزل انقلب لاعبا متمردا عارفا بغرائب الخلاعة والمجون " . أما عن منهج الأزدى في حكايته فيقول "٣" : (... أما الذى اختاره من الادب فالخطاب البدوى ، والشعر القديم العربي ، ثم الشوارد التي اقترعتها خواطر المتأخرين من أعلام الادباء والنوادر التي اخترعتها قرائح المحدثين من أعيان الشعراء ، هذا الذى أحصله من أدب غيرى وأقتنيه وأتحلى بهوأدعيه ، وأرويه من ملح ماتنفسوافيه ، ويصدق شاهدى عليه اسفار لنفسي دونتها ورسائل سيرتها ومقامات حضرتها ، ثم أن هذه حكاية عن رجل بغدادى كنت اعاشره برهة من الدهر فيتفق منه ألفاظ مستحسنة ومستخشنة ، وعبارات من أهل بلده مستفصحة ومستفضحة ، فأثبتها خاطرى لتكون كالتذكره في معرفة أخلاق البغداديين على تباين طبقاتهم ، وكالانموذج المأخوذ عن عاداتهم وكأنها قد نظمتهم في صورة واحدة يقع تحتها نوعهم ، وتشترك فيها أشخاص ذلك النوع على أحد واحد بحيث لا يختلفون فيه الا باختلاف المراتب " .

---

١) النثر الفني : ١/٤١٦ - ٤٣٢ .
٢) نفس المرجع : ١/٤١٧
٣) نفس المرجع والصفحة .

ويتضح من هذا أن مؤلف هذه الحكاية يقصد الى تصوير جانب من حياة البغداديين وهو جانب العبث والمجون الذى شاع في عصره ، ولعله هنا أشبه البديع في أخذه جانب من حياة مجتمعه وهي الكدية التي أدار عليها مقاماته ، ولكن الخلاف في الشكل واضح فحكاية الازدى رواية تتسلسل حوادثها بتتابع موضوعي مطرد بينما مقامات البديع مشاهد متعددة ومختلفة وكثيرا ماتنسب المقامة الى البلد التي يجوبها ابو الفتح الاسكندرى ، كالبغدادية والكوفية والاهوازية والاذربيجانية ... الخ .

واذا أتينا لاستعراض هذه الحكاية نجد أن بطلها أبا القاسم البغدادى يقضي يوما كاملا ابتدأه في دار أحد الأكابر باصفهان حيث دخل متماوتا يظهر النسك والتقوى ويحيي بالسلام في خشوع ويقرأ آيات القرآن ... ثم يعلم أن رواد المجلس من الشيعة فيأخذ في مدح الامام علي كرّم الله وجهه ثالبا معارضيه ... ثم يسأل عن صاحب الدار فيوصيه بوصايا الكرم والتبذير ويدعو الى المبالغة في المأكل والمشرب استكمالا للسعادة ، داعيا الى معاقرة الخمر والتمتع بالجوارى والغلمان ، ثم ينتقل الى سب اصفهان وأهلها شعرا ونثرا ، وهو لا يزال ضيفا عند أحد كرامها ويمدح بغداد ... ثم العكس يمدح اصفهان ويذم بغداد ... وهكذا تستمر الحكاية على هذا النحو المتهتك ، ثم نرى أبا المطهر يرينا صورة من صور النفاق الاجتماعي حيث جعل أبا القاسم يتصدر مجلسا يلقى فيه حديثا فيميل الى من يجلس عن يمينه ويقول "١" : " ياسيدنا ذا والله ليس كلام البشر انما هو سحر يولّه القلوب والاسماع ، كلام والله كبرد الشراب ، وبرد الشباب ، بل كالنعيم الحاضر ، والشباب الناضر ، قطع الزهر ، وعقد السحر ، ماهو الا كالبشرى بالولد الكريم الى سمع الشيخ العقيم ، حسن الديباجة صافي الزجاجة ، حلو المساغ ، يعافى به المريض ، ويجبر به المهيض ... "

---

١) النثر الفني : ١ / ٤٢١

فيقول الذى على يساره : في أى شيء أنتم ؟ فيغمز اليه بعينه ويقبل عليه ويقول : " ياسيدنا ، أنا في محنة صلعاء بلاطاقة شعر ، في كلام اثقل من الجندل وأمر من الحنظل ، هذيان المحموم، وسواد المهموم ، لمثله يتسلى الاخرس عن كلمه ، ويفرح الاصم بصممه ، كلام والله يصدى الخاطر ، ان لم يحتى الناظر ... " .

ثم يأخذ المتحدث فينشد شعرا ، فيلتفت البغدادى الى الذى عن يمينه ويقول "١" : اعيذه بالله ؟ ما أصفى نظره وأنقى درره ، واغزر بحره ، وأحكم نحته ونحره ، لو جعل خلعه على الزمان لتحلى بها مكاثرا ، وتجلى فيها مفاخرا ، شعر والله يختلط بأجزاء النفس ، الأذان والله تصير أصدافا لهذا الدر " .

ويلتفت عنه مرة أخرى الى صاحبه الايسر ويقول : " ياسيدنا : أما كنت تسمع ذا الشعر البارد العبارة ، الثقيل الاستعارة وتلك الاشارة الفاترة ، ياسيدنا بلاحلاوة ولا طراوة ، ليس الا اقواء وابطاء وأخطاء لو شعر ، اعزه الله بالنقص لما شعر " وهكذا يستمر الحديث الذى يظهر فيه البطل بمواقف متناقضة حسب ما يقتضيه حاله فيمدح الشيء ثم يذمه في نفس الوقت . حتى ضجر منه أهل المجلس وتشاوروا في الخلاص منه ، فيلجأون الى اتخامه بالشراب حتى يهمد ثم يفيق ، فيتبين مشاعر الكراهية في جلسائه ، فيصيح بهم ياكلاب ، ياذئاب ، يايهود يابقايا عاد وثمود .. ومايزال يهذى حتى تألق نور الصباح فيصيح : مرحبا بالنهار الجديد والكاتب الشهيد ، ثم يعابث الجماعة بالنكات قبل أن يفارق غير مشكور .

وفي وصف الثقيل يقول : " يا أول ليلة الغريب ، اذا بعد الحبيب ، ياطلعة الرقيب ، يايوم الاربعاء في آخر صفر ، يالقاء الكابوس في وقت السحر ، ياخراجا بلا غله ، وياسفرا مقرونا بعله ، يا أبغض

---

١) نفس المرجع : ١/٢٢٤

من قدح اللبلاب في كف المريض ، وأنكر من نظر المفلس في وجه الغريم البغيض .. الخ " .

كما يصف ايضا جمال النساء والغلمان بأوصاف حوت كثيرا من ألوان المجون والخلاعة . ويقول زكي مبارك معلقا على حكاية الأزدى "[١] :

" وفي الكتاب قصص كثيرة عن مجون أهل بغداد وخلاعة مغنيهم ، وأوصاف سابغة لسهراتهم ومجالس لهوهم وأنسهم ، ذلك كله باسلوب جميل جذاب يحمل الفارغين على تشهي اللهو والمجون .

وكأنما أراد المؤلف أن يجعل تلك القصة مرجعا لاكثر المعاني الهزلية ، فلم يترك بابا من أبواب الدعابة الا طرقه ، ولم يدع معنى من معاني الخلاعة الا ألم به ، وأحسبه حشر في كتابه أقذر ماروى من الشعر الماجن الخليع . "

ولعلنا من هذه النصوص نلاحظ ان هناك بعض الشبه في الاسلوب بين حكاية الأزدى ومقامات البديع من ناحية التزام السجع واستعمال المحسنات كالازدواج ولطيف الجناس والطباق بالاضافة الى البراعة في الظهور بالمواقف التي يتطلبها المكان أو الزمان الذى يكون فيه البطل ، واجادة الوصف اجادة تامة كما رأينا في وصف الازدى للثقيل فقد استعمل في ذلك كل محفوظة من الاوصاف والامثال المشهورة عند الناس كقوله : " أخلق من طيلسان ابن حرب " أبرد من الشمال في كانون ، أقذر من طين السماكين ... الخ " .

كما أن مواقف أبي القاسم البغدادى وتصرفاته مع الناس تشبه مواقف أبي الفتح الاسكندرى الى حد ما .

---

(١) النثر الفني : ١/٤٣١ .

يقول الدكتور العماري "١" : " ولعل التشابه في التسمية بين هاتين الشخصيتين الخرافيتين بالاضافة الى تشابه الافعال ، له دلالة على التأثر والتأثير " .

وهناك عملا آخر ربما استمد منه الهديع زادا لمقاماته ، ذلك هو حديث الجاحظ عن أهل الكديه واصنافهم وأوصافهم ونوادرهم وغير ذلك ، فنجد من أصنافهم مثلا "٢" : " المخطراني : الذى يأتيك في زى ناسك ، ويريك ان بابك قد قوّر لسانه من أصله لانه كان موذنا هناك ، ثم يفتح فاه كما يصنع من يتثاءب ، فلا ترى له لسانا البته ، ولسانه في الحقيقة كلسان الثور ، وأنا أحد من خدع بذلك ، ولابد للمخطراني أن يكون معه واحدا يعبر عنه او لوح أو قرطاس قد كتب فيه شأنه وقصته ، والكاغاني : الذى يتجنن ويتصارع ويزبد ، حتى لا يشك انه مجنون لا دواء له لشدة ماينزل بنفسه وحتى يتعجب من بقاء مثله على مثل علته ، والبانوان : الذى يقف على الباب ، ويسد الغلق ، ويقول : بانوا ، وتفسير ذلك بالعربية : يامولاى ، والقرسي : الذى يعصب ساقه وذراعه عصبا شديدا ويبيت على ذلك ليلة ، فاذا تورم واختنق الدم مسحه بشيء من صابون ودم الأخوين (نبات أحمر) وقطر عليه شيئا من سمن ، وأطبق عليه خرقه ، وكشف بعضه ، فلا يشك من رآه ان به الاكله أو بليه شبه الاكله . والمشقب . . والفلو . . والعواء . . الى آخر هذه الاصناف الكثيرة . " .

ويذكر البيهقي في هذا المجال فصلا طويلا يرويه عن الجاحظ ، ويبدأه بمحاورة بين شيخ من أهل الكدية وشاب منهم حديث العهد بهذه الصناعة ، وقد سأله الشيخ عن حاله ، فسب الكدية وصناعتها ، فغضب الشيخ وثار لصنعته وأخذ يتحدث عن فضلها وشرفها ويصف حال المكدى بقوله "٣" : " . . . فهو على بريد الدنيا ومساحة

---

١) مجلة الأزهر ، حج ١٦ ص ١٣٥ - ١٣٧ سنة ١٣٩٤ هـ .
٢) البخلاء : ٧٦ - ٧٨ ، ط بيروت .
٣) المحاسن والمساوئ : ٥٨٠ - ٥٨٢ ، ط بيروت ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .

الارض ، وخليفة ذى القرنين الذى بلغ المشرق والمغرب حيثما حل لا يخاف البوس ، يسير حيث شاء ، يأخذ أطايب كل بلدة ، فهو رضي الحال ، حسن البال ، لا يغتم لأهل ولا مال ، ولا دار ، ولا عقار . . . " .

ثم يقص على الشاب انه دخل بعض بلدان الجبل ووقف في مسجدها الأعظم وعليه فوطة قد ائتزر بها وتعمم بحبل من ليف وبيده عكاز فنادى في الناس فاجتمعوا اليه فقال (١) : " ياقوم : رجل من أهل الشام ، ثم من بلد يقال له المصيصة ، من أبناء الغزاة المرابطين في سبيل الله من أبناء الرّكاضه وحرسة الاسلام ، غزوت مع والدى أربع عشرة غزوة ، سبعا في البحر وسبعا في البر ، وغزوت مع الأرمني : قولوا رحم الله ابا الحسين ، ومع عمر بن عبيد الله قولوا رحم الله ابا حفص ، وغزوت مع البطال بن الحسين ، والورداق بن مدرك ، وحمدان بن أبي قطيفة ، وآخر ماغزوت مع يازمان الخادم ، ودخلت القسطنطينية ، وصليت في مسجد مسلمة بن عبد الملك ، من سمع باسمي فقد سمع ، ومن لم يسمع فأنا أعرفه نفسي ، أنا ابن الغزيل بن الركان المصيصي المعروف المشهور ، في جميع الثغور ، والضارب بالسيف ، والطاعن بالرمح ، سد من أسداد الاسلام ، نازل الملك على باب طرسوس ، فقتل الذرارى وسبى النساء واخذ لنا ابنان ، وحملوا الى بلاد الروم فخرجت هاربا على وجهي ، ومعي كتب من التجار فقطع علي ، وقد استجرت بالله ثم بكم ، فان رأيتم أن تردوا ركنا من أركان الاسلام الى وطنه وبلده ، فوالله ما أتممت الكلام حتى انهالت عليّ الدراهم من كل جانب وانصرفت ومعي أكثر من مائة درهم ، فوثب اليه الشاب ، وقبل رأسه ، وقال : أنت والله معلم الناس الخير ، فجزاك الله عن اخوانك خيرا " ، ولعل البديع أطلع على ماكتبه الجاحظ في هذا

---

(١) نفس المصدر والصفحة .

الشأن فان التأثر واضح بين كلام الشيخ صاحب الكدية وبين كلام أبي الفتح الاسكندري في المقامة السجستانية فيذكر الراوي عيسى بن هشام أنه ذهب الى سجستان في حاجة له ولما نزل الى السوق ليختار له منزلا سمع رجلا على فرسه يقول "١" : " من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي : انا باكورة اليمن واحدوثة الزمن ، أنا أدعية الرجال ، وأحجية ربات الجمال ، سلوا عني البلاد وحصونها ، والجبال وحزونها ، والاودية وبطونها ، والبحار وعيونها ، والخيل ومتونها ، من الذى ملك أسوارها وعرف أسرارها ، ونهج سماتها ، وولج حرّتها ؟ سلوا الملوك وخزائنها والاغلاق ومعادنها ، والأمور وبواطنها والعلوم ومواطنها ، والخطوب ومخالقها ... والحروب ومضايقها من الذى أخذ مخترقها ولم يوف ثمنها ؟ ... انا والله فعلت ذلك وسفرت بين الملوك الصيد ، وكشفت أستار الخطوب السود ... " .

وهكذا يمضي في مدح نفسه مشيدا بصلاحه وتقواه ، وبالتالي فان عنده دواء لابد أن يعرضه في الاسواق ليشترى منه المسلمون وهو امانة في عنقه لا يستطيع كتمان منافعه عن عباد الله ، فيبتز أموال الناس بهذه الطريقة الماكرة .

والمقامة الجرجانية ايضا تسير على نفس النمط "٢" . ولا أدل على صلة الهديع بالجاحظ وقراءة أدبه ونقده من مقامته التي سماها الجاحظية وفيها يشير الى أن الجاحظ غير متكامل البلاغة لقصوره في الشعر عن النثر فيقول "٣" : " ياقوم لكل عمل رجال ولكل مقام مقال ، ولكل دار سكان ولكل زمان جاحظ ، ولو انتقدتم لبطل ما اعتقدتم ... ان

---

١) شرح المقامات الهمذانية : ٢٦
٢) نفس المرجع : ٥٦
٣) نفس المرجع : ٨٦

ألجاحظ في أحد شقي البلاغة يقطف وفي الآخر يقف ، والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره ، ولم يزر كلامه بشعره ، فهل ترون للجاحظ شعرا رائعا ؛ قلنا : لا ، قال : فهلموا الى كلامه فهو بعيد الاشارات قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، منقاد لعريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصة يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة أو كلمة غير مسموعة ؟ فقلنا : لا .. " . وبعد ذلك يسمعهم البطل من شعره هو مقابل خلعة يخلعها عليه أحدهم . ومن هذا النص نتبين روح البديع المستعلية فهو يحاول أن يرتفع بنفسه وأدبه في أعين الناس عن طريق الحط من قيمة امام الأدب الجاحظ الذى كان قد ملأ على الناس اسماعهم ، وطبقت شهرته آفاقهم ، فينتقده بمقاييس جودة الاسلوب والبلاغة في القرن الرابع الذى كان يقوم على الصنعة ، التمحل والغوص وراء الغريب وكثرة الاقتباس وضرب الامثال السائرة ، والتي لم يكن يقصدها الكتاب المترسلون في عصر الجاحظ .

ويضاف الى تأثيرات الجاحظ تأثيرا آخر لا يقل أهمية من سابقه ، وهو بروز طائفة كبيرة من أصحاب الكدية ، في عصر البديع وهم الذين كانوا يعرفون بالساسانيين نسبة الى ساسان ، ولا بد أن تكون هذه الطائفة من الأصل الفارسي الذى امتزج بالعرب في ذلك القرن ، ذلك لان العرب منذ الجاهلية لم يعرفوا الكدية بهذا الشكل الذى يجمع كل صنوف الاحتيال والشر والشعوذة والمخرقة في سبيل العيش ، بل ماعرفه العرب قديما فهو الصعلكة التي تعتمد على القتل والسلب والنهب ، والفرق بينها وبين الكدية ان الصعلكة بسط اليد قوية عزيزة بينما الكدية بسطها بالسؤال ضارعة ذليلة ، وتختلف الروايات في ساسان هذا ؟ فمن قائل انه ساسان بن اسفنديار كان من حديثه انه لما حضرت أباه الوفاة فوض أمر الحكم الى ابنته ، فأنف ساسان من ذلك واشترى غنما ، وجعل يرعاها ، وعيّر بأنه راعي الغنم ، فقيل : ساسان الراعي ، وساسان الكردى ، ثم نسب اليه كل من تكدى ، اى تسوّل فيقال فلان من بني ساسان ، وقيل كان ساسان ملكا من ملوك العجم حاربه دارا

ملك الفرس ، ونهب كل ماكان له واستولى على ملكه فصار رجلا فقيرا يتردد في الأحياء ، ويستعطي ، فضرب به المثل ، وقيل انه كان رجلا فقيرا بصيرا في استعطاء الناس والاحتيال ، فنسبوا اليه. "١"

ولعلنا نستشف من ظهور هذه الطائفة المكدية في أواخر الدولة العباسية مدى ماوصلت اليه الحالة الاجتماعية تبعا للتمزق السياسي الذى حل بالدولة فكثر الفقر المدقع بجانب الغنى المفرط وقلة الوازع الديني عند الناس . كما يمكن أن نتبين ان هذه الطائفة شعرت بأنها نبذت من المجتمع وحرمت العيش الكريم ، لذلك فهي تحاول أن تبتز أموال الناس بشتى الوسائل وتسخر منهم حتى عن طريق الوعظ الديني الذى يستر تحته لهيب التلهف لجمع المال وممارسة الشهوات بأنواعها ، وهذا مانلاحظه على الاسكندرى بطل مقامات البديع عندما يوقع انسانا بشرك نصبه له يكون في منتهى السعادة مفتخرا بكيده وحنكته ، كما في المقامة البغدادية ، حينما رأى سوادى من أهل ريف العراق ، واحتال عليه وأوهمه أنه يعرفه ، وكنّاه بأبي زيد وانه كان رفيق والده حتى يوصله الى السوق فيأكلان من اللحم المشوى والحلوى حتى اذا استوفيا خرج الاسكندرى موهما ابا زيد انه سيأتي بماء يشعشع بالثلج ، فلم يعد بل جلس بعيدا ينتظر مصير أبي زيد مع الشواء يقول "٢" : فلما أبطأت عليه ، قام السوادى الى حماره ، فاعتلق الشواء بازاره ، وقال اين ثمن ما أكلت ؟ فقال أبو زيد : أكلته ضيفا ، فلكمه لكمة وثنى عليه بلطمة ، ثم قال الشواء : هاك ومتى دعوناك ؟ زن يا أخا القحة عشرين ، فجعل السوادى يبكي ويحل عقده بأسنانه ويقول كم قلت لذلك القريد أنا أبو عبيد وهو يقول : أنت أبو زيد " ثم ينشد الاسكندرى بعد ذلك :

---

١) أحمد أمين ، ظهر الاسلام : ١٤٢/١ ، ط بيروت ، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م

اعمل لرزقك كل آلـــه   لا تقعدن بكل حالـــه
وانهض بكل عظيمـــة   فالمرء يعجز لا محالـة

وفي المقامة الأصفهانية "١" : ، نجد ابا الفتح الاسكندرى يقوم خطيبا واعظا في أحد المساجد باصفهان ، فيتحدث عن رؤيته لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام كالشمس تحت الغمام ، والبدر التمام ، ويسير والنجوم تتبعه ... ثم يعطي أبا الفتح وصية للأمة فيكتبها على أوراق بخلوف ومسك وزعفران ، فمن استوهبه مني وهبته ، ومن ردّ عليّ ثم القرطاس أخذته ، فتنثال عليه الدراهم من كل جانب ، ثم يخرج فيسأله عيسى بن هشام راويته ، كيف اهتديت الى هذه الحيلة؟ فتبسم وأنشأ يقول :

الناس حمر فجـــوّز   وابرز عليهم وبـــرّز
حتى اذا نلت منهـم   ماتشتهيه ففـــروز

فانظر الى هذه السخرية بالناس ، بعد أن حبسهم ساعة يرغي ويزبد ، ونال عطاياهم ونهب دراهمهم ، وهذا كثير في المقامات حتى اننا نجد الاسكندرى يسم المجتمع كله باللوم لان الكريم أصبح فيه فقيرا كقوله في آخر المقامة البصرية "٢" :

والفقر في زمن اللئا   م لكل ذى كرم علامـــه
رغب الكرام الى اللئا   م ، وتلك اشراط القيامـــه

ثم نراه في المقامة "٣" الساسانية ساخطا على الزمن حتى انه ليذم العقل ويمجد الحمق ، وانه هو سبب جمع المال لديه من اولئك الناس اللئام الذين بيدهم الأموال :

---

١) نفس المرجع : ٦٣ - ٦٥
٢) المرجع السابق : ٧٦ - ٧٧
٣) شرح المقامات الهمذانية : ١٠٩

هذا الزمان مشـوم   كما تـراه غشـوم
الحمق فيه مليـــح   والعقل عيب ولـوم
والمال طيف، ولكـن   حول اللئام يحـوم

وقد اشتهر من شعراء بني ساسان في القرن الرابع شاعران كبيران يعاصران البديع وهما : والاحنف العكبرى ، وأبو دلف الخزرجي ، شاعر المكدين وظريفهم ، ومليح الجملة ، والتفصيل منهم ، وقرأت للصاحب فصلا في ذكره فأوردته وهو : لو أنشدتك ما أنشدنيه الأحنف العكبرى لنفسه ،وهو فرد بني ساسان اليوم بمدينة السلام ، وحسن الطريقة في الشعر لامتلأت عجبا من ظرفه واعجابا بنظمه ، ولا أقل من ايراد موضع افتخاره فانه يقول من الهزج :

على اني بحمد الله   في بيت من المجـد
باخواني بني ساسا   ن أهل الجد والحسد
لهم أرض خراسان   فقاشان الى الهنـد
الى الروم الى الزنج   الى البلغار والسنـد
اذا ماأغور الطـرق   على الطراق والجنـد
حذارا من أعاديهم   من الاعراب والكـرد
قطعنا ذلك النهـج   بلا سيف ولا غمـد
ومن خاف أعاديـه   يخافي الروع يستعـدى

ولهذا البيت الاخير معنى بديع ، وتفسيره : يريد ان ذوى الثروة وأهل الفضل والمروءة اذ وقع أحدهم في أيدى قطاع الطريق وأحب التخلص قال : انا مكدى ،فانظر كيف غاص وابرز هذا المعنى الممتاص.

أما أبو دلف "١" فهو : مسعر بن مهلهل الخزرجي الينبوعي ، من ينبع البحر ، وينتسب الى الخزرج أنصار رسول الله صلى الله عليه

---

(١) عبد المنعم خفاجي ،أبو دلف ، ص ١٩ .

وسلم ،قال فيه الثعالبي "١" : " شاعر كثير الملح والظرف ، مشحون المدية في الجدية ، خنق التسعين في الاطراب والاغتراب ، وركوب الاسفار الصعاب ، وضرب صفحة المحراب بالجراب ، في خدمة العلوم والآداب ، وفي تدويخه البلاد يقول ـ من أبيات أنشدنيها أبو الفضل الهمذاني :

وقد صارت بلاد الله   في ظعني وفي حلي
تغايرن بلبثي و   تحاسدن على رحلي
فما أنزلها الا   على أنس من الأهل

وكان ينتاب حضرة الصاحب بن عباد ، ويكثر المقام عنده ، ويكثر سواد غاشيته وحاشيته ، ويرتفق بخدمته ، ويرتزق في جملته ، ويتزود كتبه في أسفاره ، فتجرى مجرى السفاتج في قضاء أوطاره ، وكان الصاحب يحفظ مناكاة بني ساسان حفظا عجيبا ، ويعجبه من أبي دلف وقور حظه منها ، وكانا يتجاذبان أهدابها ويجريان فيما لا يفطن له حاضرهما ، ولما أتحفه أبو دلف بقصيدته التي عارض بها داليه الاحنف العكبرى في المناكاة وذكر المكدين والتنبيه على فنون حرفهم وانواع رسومهم ، وتنادر بادخال الخليفة المطيع لله في جملتهم ، وقد فسرها تفسيرا شافيا كافيا اهتز ونشط لها وتبجح بها وتحفظ لها وأجزل صلته عليها " . وهي قصيدة طويلة حشد فيها اصطلاحات الساسانيين وافعالهم وما اخترعوه من لغة خاصة يتفاهمون بها ، كما أنه أورد الخليفة العباسي المطيع لله من ضمن المكدين ، وهذا يدل على الحالة المتردية التي وصلت اليها الخلافة العباسية في هذا العهد فالخليفة لا يملك غير اللقب والدعاء له على المنابر ، أما أمر البلاد فهو للوزراء المستبدين كالصاحب وابن بويه وغيرهم .

---

١) اليتيمة : ٣/٣٥٢ - ٣٥٣ .

ومن هذه القصيدة يقول أبو دلف : "١"

على اني من القوم البهاليل بني الغــــــــر
بني ساسان والحامي الحمس في سالمف العصــر
تغربنــا الى أنــا ... تنائينا الى شهــر
فظل البين يرمينــا ... نوى بطنا الى ظهــر
كما قد تفعل الريـــح ... بكثب الرمل في البـــر
فنحن الناس كل النــا ... س في البر وفي البحــر
أخذنا جزية الخلــق ... من الصين الى مصــر
الى طنجة بل في كـــل ... أرض خيلنا تسـرى
لنا الدنيا بما فيهـــا ... من الاسلام والكفـــر
ومنا شعـــراء الار ... ض أهل البدو والحضر
ومنا سائـــر الانصا ... ر والاشراف من فهـــر
ومنا قيم الديـــن المطبخ ... الشائـــع الذكـــر
يكدى من معـــز الدو ... لة الخبـــز على قـــدر

وتشير الدراسات الحديثة التي تناولت ابا دلف الخزرجي الى أن تأثيره كان جد كبير في عمل بديع الزمان ومن ذلك مايذكره الدكتور غنيمي هلال حيث يقول "٢" : " ... وهو متأثر في اختراعه بنموذج واقعي لمقاماته وهو الشاعر أبو دلف الخزرجي الينبوعي مسعر بـــن مهلهل وهو معاصر للبديع ، وقد كان مثال الجوال جواب الأفـــاق المحتال على كسب الرزق بالأدب والشعر والحيل الاخرى الكثيرة التي تنبو عن الخلق الكريم " . بل ان هناك من يذهب الى أن أبا دلـــف هو نفسه الاسكندرى بطل مقامات البديع يقول الاستاذ عبد المنعـــم

---

١) يتيمة الدهر : ٣/٣٥٥
٢) الادب المقارن ، ٢٢٤ ، ط بيروت

خفاجي "١" : " ورأيي الذى أذهب اليه اليوم هو ان ابا الفتح شخصية تاريخية معروفة في عصر البديع وهو أبو دلف الخزرجي ، وهذا الرأى لم يسبقن اليه باحث ، ودليلنا عليه هو ماقاله الثعالبي في يتيمة الدهر : أنشدني بديع الزمان لابي دلف ونسبه في بعض في بعض مقاماته الى أبي الفتح الاسكندرى :

ويحك هذا الزمان زور   فلا يغرنك الغرور
زوق ومخرق وكل وأطبق   واسرق وطلق لمن يزور
لا تلتزم حالة ولكن   در بالليالي كما تدور

ومن هذا النص نعرف الحقائق التالية :

١ - انشد البديع الثعالبي شعرا لابي دلف وهذا الشعر نسبه البديع الى ابي الفتح في المقامة القريضية فتكون النتيجة أن ابا الفتح هو ابا دلف نفسه باقرار البديع .

٢ - كان البديع راوية لشعر أبي دلف ، ويبدو لي أن البديع كان ينزل ابا دلف عن نفسه منزلة الاستاذ والمعلم ، واذن يكون امامنا رأى جديد نجزم به هو ان البديع حين كتب مقاماته اختار ابا دلف ، استاذه وصديقه ومعاصره بطلا لمقاماته وكنى عنه بأبي الفتح ، وكان أبو دلف أروع نموذج ساساني يصلح بطلا للمقامات لان حياته وشخصيته وتجاربه مطابقة تماما للنموذج الذى صوره البديع في المقامات في شخص أبي الفتح الاسكندرى ، ولان شهرة وتجارب أبي دلف كانت تصلح معينا يستقي منه البديع كل مايريد أن يصور به أبا الفتح ذلك ماقد كان . بل اني اضيف الى ذلك أن البديع الهمذاني حين سمع قصص أبي دلف الشيخ الحكيم

---

(١) ابو دلف الخزرجي : ٩٩ - ١٠٠ .

المجرب عن رحلاته وتطوافه في البلاد ، واستمع الى فكاهات هذا الشيخ وسمره في مجالس الملوك والامراء والوزراء رأى أن هذه الصورة الفنية تصلح أساسا لفن جديد ابتكره وسماه المقامة ".

ومع أن هذا الاستنتاج جيد في مجمله الا اننا نجد من القدماء من يشير الى أن شخصية ابي الفتح نكرة مجهولة من اختراع بديع الزمان ، فهذا الحريرى المتوفى سنة ستعشرة وخمسمائة يذكر في مقدمةمقاماته عند كلامه عن مقامات البديع " ... وعزا الى ابي الفتح الاسكندرى نشأتها والى عيسى بن هشام روايتها ، وكلاهما مجهول لا يعرف ونكرة لا تتعرف ". "١"

ويرى بعض المستشرقين امثال Thomas Chenery مترجم مقامات الحريرى الى اللغة الانكليزية " ان اساطير التوراة عند اليهود وقصة لقمان وبعض الاساطير في اللغة السنسكريتية والبهلوية قد أوحت الى بديع الزمان بفكرته " "٢" ، وهذا الكلام فرض بعيد لا يقوم عليه دليل اذ لم يعرف عن البديع انه عرف السنسكريتية أو اطلع على التوراة ونصوصها حتى يتأثر بها .

---

١) المقامات الادبية : ٤ ، ط القاهرة ١٩٥٠م
٢) مصطفى الشكعة ، بديع الزمان الهمذاني ، ٢١٣ ، القاهرة ١٩٥٩م

أبرز المؤثرات في مقامات البديع :

اذا تأملنا جملة المؤثرات أو الأعمال الأدبية التي سبق ذكرها، نجد انها جميعا ذات مساس بالمقامات بعضها شديد التأثير الى حد المحاكاة وبعضها ضعيفة وذلك من حيث شكل المقامة واسلوبها، وموضوعها .

ولكنني أكاد أجزم بأن ثمة عاملين كان لهما دور بارز في ذلك :

أولهما أحاديث ابن دريد حيث التشابه من حيث الاسلوب والهدف ، فكلا الرجلين كان يهدف الى تعليم طلابه اللغة بغريبها وشواردها ، وتمرينهم على الانشاء ، وسلكا لذلك سبيل الحكايات والاحاديث ، فابن دريد كان يأتي بالحديث مسندا بسند مختلق من عنده جريا على السنة المتبعة آنذاك عند المحدثين والقصاص ، ويكون الحديث عن اناس مجاهيل لا يعرف له تاريخ ولا شخصية ، وقد يطول الحديث ويقصر وربما كان يحتوى على قصيدة شعرية فقط مما له أعظم دلالة على قصد اللغة ولا شيء غيرها ، يؤيد ذلك تلك الشروح التي أوردها القالي للمفردات في ذيل تلك الاحاديث سواء أكانت تلك الشروح من صنع القالي أو من ابن دريد نفسه .

أما البديع فربما كان أحذق من ابن دريد في اختياره فقد جعل عمله حكايات طريقة وشيقة ضمنها الاخبار الممتعة والنكات والاشعار الرائعة على لسان أبي الفتح الاسكندرى مما جعلها تلقى قبولا واستحسانا كبيرا لدى الناس بالرغم من أن هدفها كان تعليميا اكثر من أى شيء آخر ، فقد روى انه كان يختم بها مجلسه مع تلاميذه في نيسابور "١" ، ولا بد أنه كان يلقي على تلاميذه مسائل لغوية وأدبية ،

---

١) يتيمة الدهر : ٤/٢٥٧

خاصة وانه تلميذ أحمد بن فارس اللغوى المشهور ، وربما كان فيما يلقيه عليهم احاديث ابن دريد .

ويذهب شوقي ضيف الى أبعد من هذا كله فيقول "١" : " وكثير من الادعية والمواعظ في المقامات يتصل اتصالا مباشرا بما في الأمالي ، ونفس الحكم والامثال والوصايا كل ذلك نجد صوره واضحة عند بديع الزمان ، وبين مقاماته مقامة تسمى الوصية ، وأخرى تسمى الوعظية ، وليس ذلك فحسب فقد تكون الفكرة التي أدار حولها مقاماته ونقصد الكدية او الشحاذة استمدها مباشرة من خطابة الاعرابي السائل في المسجد الحرام والتي رواها صاحب الامالي عن ابن دريد " . أما الحديث المذكور فهو "٢" : " حدثنا ابو بكر رحمه الله ، قال : أخبرنا أبو حاتم ، قال : أخبرنا أبو زيد قال : بينا أنا في المسجد الحرام اذ وقف علينا اعرابي فقال : يامسلمون ان الحمد لله ، والصلاة على نبيه ، اني امرؤ من أهل هذه الملطاط الشرقي ، المواصي اسياف تهامة ، عكفت علي سنون محش فاجتبت الذرى وهشمت العرى ، وجشمت النحم وأعجبت البهم ، وهمّت الشحم ، والتحبت اللحم ، وأحجنت العظم ، وغادرت التراب مورا ، والماء غورا ، والناس أوزاعا والنّبط قعاعا ، والضّهل جزاعا والمقام جعجاعا .... فهل من آمر بمير أو داع بخير وقاكم الله سطوة القادر وملكة الكاهر وسوء الموارد . " .

والواقع اننا نجد شخصية الاسكندرى واضحة في هذا النص الا أن الاغراب الشديد في الكلمات الواردة على لسان السائل يجعلنا نقطع بأن تأثير أحاديث ابن دريد في مقامات البديع كان في أغلبه من ناحية الهدف التعليمي اللغوى وان كانت لغة البديع يمتزج فيها الغريب بالقريب ، والى ذلك يشير الشيخ محمد عبده في شرحه للمقامات

---

١) المقامة : ١٨
٢) الامالي : ١/١١٣ - ١١٤

فيقول "١" : " ومن اشرف ما امتاز به كلامه انه يباهي كلام أهل الوبر رصانة ورفعة ، ويمتزج بطباع أهل الحضر رقة ورواء صنعة ، فبينما يخيل لسامعه انه بين الأخبية والخيام ، اذ يتراءى له أنه بين الأبنية والا طام " .

والمؤثر الثاني هو بزوز تلك الطائفة الساسانية التي احترفت الكدية في القرن الرابع الهجرى وفي زمن الهديع وان كان بزوغ هذه الطائفة تمتد جذوره الى ايام الجاحظ كما مر سابقا الا أنها تبلورت ، وأصبحت فنا ورواية ، ولها أصولها التي لابد من اجادتها حتى يصبح المرء كداء ناجحا أصبحت كذلك في عصر بديع الزمان .ولها أصولها التي لابد من اجادتها .

يقول الشكمة ٢ : " ولابد للمكدى أن يكون محتالا ذكيا فطنا ، فصيحا ، شجاعا ، يتقن الحيلة ، ويجيد النزال ، ويحسن القول أمام السلطان ، ويتحمل المتاعب ، ولا يتبرم بقيد الأسر أو تعذيب السجون ، فمن لم يحسن ذلك كتب عليه الفشل والخيبة . "

ولا شك أن هذه الطائفة أمدت الهديع بمادة حية لمقاماته ، كما أن زعماء هذه الطائفة من أمثال أبي دلف والعكبرى كانوا يمثلون ابطالا للمقامات من خلال تصرفاتهم وتقلباتهم ومنادمتهم لبعض الأمراء والسلاطين ، وهم في ذلك يشبهون شخصية أبي الفتح الاسكندرى .

ولعل هذه الطائفة وملاحظة الهديع الفاحصة لاعمالها جعلته يتخذ الكدية مدارا لمقاماته .

ومهما يكن من أمر وايا كانت التأثيرات التي استفاد منها البديع في وضع مقاماته فانه يظل هو المبتدع الحقيقي لفن المقامات بهذه الصورة التي وصلتنا عنه ، فقد نهج بها نهجا خاصا جعلها تقترن باسمه في تاريخ الأدب العربي ، فهو الذى أطلق عليها اسم مقامه ،

---

١) انظر مقدمة شرح المقامات الهمذانية ص (٨) ، ط بيروت ١٩٢٤م
٢) بديع الزمان الهمذاني : ٢٢٠

ووضع لها هيكلها المحدد واختط لها الاسلوب الذى سارت عليه المقامة بعده قرونا طويلة .

يقول الدكتور زكي مبارك "١" : ومع ان ابن دريد هو المبتكر لفن المقامات ، فان عمل بديع الزمان في هذا الفن أقوى وأظهر وطريقته في القصص تختلف عن طريقه ابن دريد ، والذين كتبوا مقامات بعد ذلك لم يكن في اذهانهم غير فن البديع ، فهو بذلك منشيء هذا الفن في العربية ، ولم تسم تلك القصص بعد ذلك أحاديث كما سماها ابن دريد وانما سميت مقامات كما سماها بديع الزمان " .

ويقول مارون عبود "٢" : " ان خطة المقامات من عمل البديع فهو الذى ألبسها هذا الطراز ، وعلى طريقه هذا التي شقها سارت عجلة الادب الف عام ، وعبثا نحاول العثور على اثر الخطة عند غير البديع " .

فهذه النصوص تدل على أن بديع الزمان أجاد في هذا الفن اجادة أحلته منه محل الزعيم ، ولا غرو فقد كان البديع آية عصره في الذكاء والحفظ وسرعة البديهة يقول فيه الثعالبي "٣" : " ... فرد الدهر ، وغرة العصر ، ومن لم يلق نظيره في ذكاء القريحة ، وسرعة الخاطر ، وشرف الطبع ، وصفاء الذهن ، وقوة النفس ، ومن لم يدرك قرينه في ظرف النثر وملحه ، وغرر النظمة ونكته ، ولم ير ، ولم يرو أن أحدا بلغ مبلغه من لب الادب وسره ، وجاء بمثل اعجازه ، وسحره فانه كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب ... الخ " .

---

١) النثر الفني : ١/٢٤٤
٢) كتاب بديع الزمان الهمذاني : ٢٤
٣) يتيمة الدهر : ٤/٢٥٦ .

ثالثا : اثر بديع الزمان في من خلفه :

منذ أن أملى الهمذاني مقاماته ، وذاعت بين الناس ، استقبلوها بالاستحسان والاعجاب وأصبح لها من المنزلة مايضاهي منزلة الشعر ، ولا سيما عند الخلفاء والوزراء وتسابق الأدباء في النسج على منوالها اظهارا للقدرة والبراعة اللغوية والفنية ، وكأني بالمقامات أصبحت مقياساللفن والادب الرفيع ، لذلك لم تجد عصرا من عصور الادب منذ عهد البديع ، وحتى القرن التاسع عشر الميلادى يخلو من مقامات .
وأول من تأثر خطوات البديع ابن نباته السعدى "١" ، وأشار الثعالبي الى ذلك بقوله "٢" : " وله مقامات كمقامات الحريرى اطلعت على شيء منها" ، ولكن هذه المقامات لم يصل منها الينا شيئا ، غير ان بروكلمان يقول في معرض كلامه عن ابن نباته : " ولم تحفظ عنه الا مقامة واحدة في برلين تحت رقم ٨٥٣٦ " "٣" .

ثم جاء بعد ذلك ابن نافيا عبد الله بن محمد بن الحسين ، أبو القاسم ، يقول ابن خلكان "٤" : " شاعر ، مترسل ، لغوى ... ومن كتبه ملح الممالحة ، وتفسير الفصيح لثعلب ، والجمان في تشبيهات القرآن ، ومقامات في الأدب ... " ويقول صاحب

---

١) هو ابن نصر ، عبد الله بن عمر بن عبد الله بن نباته السعدى عاش من سنة ٣٢٧ هـ - ٤٠٥ هـ ، وهو من شعراء سيف الدولة الحمداني قال فيه ابو حيان : " شاعر الوقت لا يدفع ما أقول الا حاسد أو جاهل أو معاند ... " الامتاع والموانسة : ١٣٦/١ . وانظر : الاعلام : ١٤٨/٤ ، الخطيب البغدادى تاريخ بغداد : ٤٦٦/١٠ ، ط بيروت .

٢) المنتحل : ٣٣١

٣) تاريخ الادب العربي : ١١٦/٢ .

٤) وفيات الاعيان : ٩٨/٣ .

الاعلام "١" : " جاء في مقدمة مقاماته ، قال الاستاذ الفاضل أبو القاسم عبد الله بن محمد بن ناقيا بن داود ... وهي تسع مقامات طبعت في استنانبول سنة ١٣٣١ هـ " .

ثم جاء بعد ذلك "٢" الحريرى وهو أشهر من حذا حذو البديع فألف خمسين مقامة بلغ بها قمة الجودة الأدبية التي أكسبته شهرة عريضة امتدت قرونا طويلة بعد وفاته يتضح ذلك من عدد الشراح الذين اعتنوا بها شرحا وتعليقا ، فقد أحصى صاحب كشف الظنون اكثر من خمسة وثلاثين شارحا ، من أشهرهم الشريشي أحمد بن عبد المؤمن القيسي المتوفي ٦١٩ هـ "٣"

يقول ياقوت مشيدا بصنع الحريرى لمقاماته "٤" : " ان الحريرى أبر بكتاب المقامات على الأوائل وأعجز الأواخر .... " ويضيف قائلا "٥" : " لقد وافق كتاب المقامات للحريرى من السعد مالم يوافق مثله كتاب فانه جمع بين حقيقة الجودة والبلاغة ، واتسعت له الالفاظ وانقادت له البراعة ... حتى لو ادعى بها الاعجاز لما وجد من يدفع في صدره ولا من يرد قوله ولا يأتي بما يقاربها فضلا عن أن يأتي

---

١) ٢٦٦/٤
٢) هو ابو محمد القاسم بن علي الحريرى ولد سنة ٤٤٦ بالمشان ، قرية قرب البصرة وتأدب بها ، وعين صاحب الجند بالبصرة الى أن مات سنة ٥١٦ هـ ، كان غاية في الذكاء والفطنة والفصاحة ، ومن مؤلفاته غير المقامات " درة الغواص في أوهام الخواص " و " ملحة الاعراب في صناعة الاعراب " . أنظر : ياقوت ، معجم الادباء : ٢٦١/١٦ - ٢٦٢ .
٣) حاجي خليفة ، كشف الظنون ١٧٨٧/٢ - ١٧٩٠ .
٤) معجم الادباء : ٢٦٢/٢٦ .

بمثلها ، وقد رزقت - مع ذلك - من الشهرة وبعد الصيت ، والاتفاق على استحسانها من الموافق والمخالف ما استحقت وأكثر . " . ومع هذه الاجادة وهذا الابداع نجد الحريري يرد الفضل لأهله فيعترف بسبق البديع في هذا المجال ، وانه مقلد له فيقول في مقدمة مقاماته "[1] :

" وبعد فانه جرى في بعض أندية الأدب الذي ركدت في هذا العصر ريحه ، وخبت مصابيحه ، ذكر المقامات التي ابتدعها ، بديع الزمان وعلامة هذان - رحمه الله تعالى - وعزا الى أبي الفتح الاسكندري نشأتها والى عيسى بن هشام روايتها ، وكلاهما مجهول لا يعرف ونكرة لا تتعرف ، فأشار من اشارته حكم وطاعته غنم الى أن أنشيء مقامات أتلو فيها تلو البديع ، وان لم يدرك الظالع شأو الضليع . . . وأنشأت على ما أعانيه من قريحة جامدة وفطنة خامدة ، وروية ناضبة ، وهموم ناصبة خمسين مقامة تحتوى على جد القول وهزله ورقيق اللفظ وجزله ، وغرر البيان ودرره ، وملح الأدب ونوادره الى ما وشحتها به من الآيات ومحاسن الكنايات ورصعته فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الأدبية والاحاجي النحوية ، والفتاوى اللغوية ، والرسائل المبتكرة ، والخطب المحبرة ، والمواعظ المبكية والاضاحيك الملهية ، مما أمليت جميعه على لسان أبي زيد السروجي واسندت روايته الى الحارث ابن همام البصرى . . هذا مع اعترافي بأن البديع رحمه الله - سباق غايات وصاحب آيات ، وان المتصدى بعده لانشاء مقامه ولو أوتي بلاغة قدامه ، لا يغترف الا من فضالته ، ولا يسرى ذلك المسرى الا بدلالته ، ولله در القائل :

فلو قبل مبكاها بكيت صبابة
بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا
بكاها فقلت الفضل للمتقدم "

---

(١) المقامات الأدبية : ٤ - ٦ ، ط . مصر ١٩٥٠ .

ولكن هذا التواضع الذى يظهره الحريرى أمام عمل البديع ماهو الا تمهيد لاظهار فضل مقاماته ، رغم تأخرها في الزمن عن مقامات البديع فيقول على لسان بطله السروجي :

ان يكن الاسكندرى قبلـي فالطل قد يبدو أمام الوبـل
والفضل للوابل لا للطـل

أما سبب انشاء الحريرى لمقاماته ، فقد نقل ياقوت الحموى عن عبد الله بن حمد بن أحمد النقور البزاز ببغداد قال : " سمعت الرئيس ابا القاسم بن علي الحريرى صاحب المقامات يقول "[1] : " أبو زيد السروجي كان شيخا شحاذا بليغا ومكديا فصيحا ، ورد علينا البصرة فوقف يوما في مسجد بن حرام فسلم ثم سأل الناس ، وكان بعض الولاة حاضرا ، والمسجد غاص بالفضلاء ، فأعجبهم فصاحته ، وحسن صياغته كلامه ، وملاحته ثم ذكر أسر الروم ولده ... واجتمع عندى عشية ذلك اليوم جماعة من فضلاء البصرة وعلمائها ، فحكيت لهم ماشاهدت من ذلك السائل ، وما سمعت من لطافة عبارته ، وتحقيق مراده ، وظرافة اشارته في تسهيل ايراده ، فحكى كل واحد من جلسائه انه شاهد من هذا السائل ومجلسه مثلما شاهدت وأنه سمع منه في معنى آخر فصلا أحسن مما سمعت منه وكان يغير في كل مسجد شكله وزيه ، ويظهر في فنون الحيل فضله ، فتعجبوا من جريانه في ميدانه وتصرفه في تلون احسانه ، فأنشأت المقامة الحرامية ثم بنيت عليها سائر المقامات وكان أول شيء صنعته . "

وقد اختلف فيمن كتب الحريرى له المقامات فذكر ابن الجوزى الحكاية المتقدمة وزاد فيها : " ان الحريرى عندما أنشأ المقامة الحرامية صعد بها الى بغداد وعرضها على أنوشروان بن خالد وزير السلطان المسترشد فاستحسنها ، وأمره أن يضيف اليها ماشاكلها

---

1) معجم الأدباء : ٢٦٣/١٦

فأتمها خمسين مقامة ."١"

ويذكر ابن خلكان أنه رأى "٢" " في بعض شهور سنة ست وثمانين وستمائة بالقاهرة المحروسة نسخة مقامات وجميعها بخط مصنفها الحريري ، وقد كتب أيضا بخطه على ظهرها أنه صنفها للوزير جلال الدين عميد الدولة أبي الحسن علي بن أبي العز بن صدقة وزير المسترشد . . . " .

كما نجد الشريشي شارح مقامات الحريري ينقل عن ابي القاسم "٣" ابن جهور قوله "٤" : " ان الذى أشار اليه الحريري في قوله : فأشار من اشارته حكم هو المستظهر بالله العباسي ، وكان لهذا المستظهر رغبة في الطلب وحظ من الادب ، وعناية بأهل العلم ، وحدث ابن جهور انه دخل بغداد في أيامه وبها ألف رجل وخمسمائة رجل حامل علم ، وكلهم قد أثبت اسماءهم السلطان في الديوان ، وأجرى على كل واحد من المال بقدر حظه من العلم . " والى هذا الرأى يذهب الدكتور شوقي ضيف حين يقول "٥" : " ان من يرجع الى تاريخ تأليف الحريري لمقاماته يراده قد أتمها سنة ٥٠٤ ومعنى ذلك ان مايقال من صلة

---

١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم : ١٠/٧٧ ، ط حيدر أباد ١٣٥٨ هـ . / انو شروان بن خالد : وزير المسترشد .

٢) الوفيات ١/٢٤٠ (٥١٢ - ٥٢٩) له صنف الحريري مقاماته . . كان من عقلاء الرجال ودهاتهم فيه جود وحلم وتدين مع تشيع قليل وله تاريخ لطيف سماه (صدور زمان الفتور وفتور زمان الصدور) القفطي ، انباه الرواة : ٣/٢٦ ، القاهرة ١٣٧٤ هـ .

٣) ابن جهور : احد العلماء الاندلسيين الذين وفدوا الى الشرق وأخذوا المقامات عن الحريري نفسه في سنة ٥٠٥ هـ ، انظر ابن الأبار التكملة : ٢٦٠ .

٤) شرح مقامات الحريري : ١/٢٧ ،

٥) المقامة : ٤٥ .

ابن صدقة وانو شروان بتأليفها غير صحيح فأنو شروان انما ولي الوزارة بعد وفاة الحريرى ، أما ابن صدقة فوليها وهو حي سنة ٥١٢ هـ ، ولكن بعد تأليفه للمقامات بسنوات ثمان . من أجل ذلك كنا نذهب الى مارواه الشريشي ، شارح مقاماته الكبير ، اذ روى عن بعض اساتذته ان الذى أشار اليه الحريرى في مقدمته هو الخليفة المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢ هـ) وكان له حظ من الادب وعناية بأهل العلم ، فقصده الحريرى ، ومازال يبعثه على صنع المقامات حتى أتمها ورفعها اليه فبلغ عنده اسنى المراتب ، ويظهر انه ظل بالقرب منه في بغداد حتى توفي وخلفه المسترشد فاتصل بكبار رجال الدولة لعهده ، ومن هنا تأتي صلته بابن صدقة وزيره ، وربما اتصل بأنو شروان حينئذ كما اتصل بغيره من البارزين وقدم لهم نسخا من مقاماته ، فأشكل ذلك على من تحدثوا عن حياته واخباره " .

ومهما يكن من أمر فان المقامات الحريرية عمل فني بلغ الذروة في الروعة والاتقان وصارت مضرب المثل في الفصاحة والبيان ، وطارت شهرتها في العالم الاسلامي كله في ذلك الوقت حتى وصلت الى الاندلس ونسج على منوالها الكثيرون ، فكادت أن تطغي على مقامات الهمذاني يقول القلقشندى "(١)" : " واعلم أن أول من فتح باب عمل المقامات علامة الدهر ، وامام الادب ، البديع الهمذاني ، فعمل مقاماته المشهورة المنسوبة اليه وهي غاية من البلاغة وعلو المرتبة في الصنعة ، ثم تلاه الامام أبو محمد القاسم الحريرى فعمل مقاماته الخمسين المشهورة ، فجاءت نهاية في الحسن وأتت على الجزء الوافر من الحظ وأقبل عليها الخاص والعام ، حتى أنست مقامات البديع وصيرتها كالمرفوضة " .

وعند مقارنة مقامات الحريرى بمقامات البديع نجد أن البديع يخلو من التكلف وينشيء على البديهة يجرى مجرى الطبع ويعتمد

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الانشاء : ١١٠/١٤

على الابتكار ، وان كان في بعض الاحيان يوشيه بالصنعة بعض الشيء كالجناس والمزاوجة مراعاة لمذهب الصنعة والتأنق الذى كان سائدا في عصره .

أما الحريرى فنجد نثره مثقلا بأنواع من الزخارف اللفظية والاشكال الجديدة من الالاعيب التي كان يبتدعها ليجعلها حليا يطوق بها مقاماته ، فهو لا شك كان يبحث عن شيء جديد يبرز فيه فنه ، ويظهر طرزه ، ولكنه وقع في التوعر والغرابة الى حد بعيد ، فنجده يستعمل الالغاز النحوية والفقهية على نحو مغروب في التوريه والايهام ، ففي المقامة الطيبية "١" يذكر مائة مسألة فقهية على نحو بعيد في الالغاز والاحاجي ، وفي المقامة النصيبية "٢" يسرد عددا كبيرا من الكنايات الغريبة فيكني الموت بأبي يحيى ، والجوع بابي عمرة ، والخوان بأبي جامع ، والملح بأبي عون ... الخ .

كما نجد أنه جاء بفن جديد استعمله في المقامة المغربية "٣" ،وهو مالا يستحيل بالانعكاس ، اى انك تقرأ الجملة من آخرها كما تقرؤها من أولها نحو : لم أخامل " ، كبر رجاء أجر ربك " وينشد أبياتا من الشعر على لسان أبي زيد السروجي من هذا القبيل .

ويصف الدكتور زكي مبارك لغة الحريرى بأنها تعد من أغرب نماذج النثر المصنوع فيقول "٤" : " ... وعند الرجوع الى آثار من تأثروا بفن المقامات نراهم في الأغلب تلامذة الحريرى لا تلامذة البديع، فقد أولع أكثرهم بالصنعة والزخرف ، ولم يأنس منهم الى فطرته الا القليل " .

---

١) المقامات الحريرية : ٢٥٤ ، ط بيروت ١٣٩٨ هـ ، ١٩٧٨م
٢) نفس المصدر ص ١٥٥
٣) مقامات الحريرى : ٢٩
٤) النثر الفني : ١/٢٤٩ .

كما نجد الدكتور شوقي ضيف يعيب على الحريري كثرة الزخارف ويسمه بالتعقيد فيقول "١" : " كأن اللغة العربية اجدبت ولم تعد تستطيع أن تقدم زخارف التعبير سوى هذه الطريقة الملتوية المعقدة التي لا تتصل بالفن ولا بأي زخرف من زخارفه الا اذا جعلنا التعقيد من حيث هو زخرفا وفنا يقصد لذاته " .

أما بالنسبة لبناء المقامة الشكلي فقد كانت عند البديع متوالية على غير نسق مخصوص أما الحريري فالتزم أن تكون كل مقامة سادسة أدبية وكل حادية عشر زهديه ، وكل خامسة وعاشرة هزليه ."٢"

وعلى أي حال فان فضل الحريري على المقامات كبير فهو الذي أعطاها الحياة التي استمرت قرونا طويلة ، ولولاه ما اشتهر من اشتهر من هؤلاء المتأخرين لان جلهم لم يضيفوا شيئا جديدا يذكر وانما اكتفوا بتقليد الحريري والسير على نهجه ومن أشهرهم :

أبو الطاهر السرقسطي المتوفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة للهجرة وقد كتب خمسين مقامة أنشأها بقرطبة عند وقوفه على ما أنشأه الحريري بالبصرة وقد أتعب فيها خاطره وأسهر ناظره ، والتزم في نثرها ونظمها مالا يلزم ، فجاءت على غاية من الجودة حدث فيها المنذر بن حمام عن السائب بن تمام "٣" ، وسيأتي الحديث عنها في باب قادم ان شاء الله .

وفي نفس الحقبة نجد جار الله الزمخشري المتوفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة بنشيء مائة مقامة كالمقالة تدور كلها حول الوعظ ، وليس فيها راو ولا بطل ، بل خاطب في جميعها نفسه وذكرها بالآخرة ورغّبها في الاعمال التي تؤدي بها الى نعيم الله ورضوانه ... ولعله أحسن في مقاماته قصورا عن شأو مقامات الحريري مما جعله يقول : "٤"

---

١) الفن ومذاهبه في النثر العربي : ٢٠٢ - ٣٠٣ ، القاهرة
٢) محمد احمد الصديقي : ابن الحريري ومقاماته : ١٧٤
٣) كشف الظنون : ١٧٨٥/٢
٤) شرح الشريشي للمقامات الحريرية : ٩/١

أقسم بالله وآياتـــه ومشعر الحج وميقاتـــه
ان الحريرى حرى بأن تكتب بالتبر مقاماتـــه

وفي القرن السادس نجد الحسن بن صافي "١" المصرى الملقب بملك النحاه وكان يقول : " مقاماتي جد وصدق ومقامات الحريرى هزل وكذب ، " وتوفي سنة ثمان وستين وخمسمائة .

وممن حاول تقليد الحريرى فلم يوفق الشميم الحلي ، يروى ياقوت الحمودى "٢" " وردت آمد في سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ، وانا في عنفوان الشباب وريحة فبلغني أن بها علي بن الحسن بن عنتر المعروف بالشميم الحلي ، وكان من العلم بمكان مكين ، واعتلق في حباله بركن ركين - الا انه كان لا يقيم لاحد من أهل العلم المتقدمين ولا المتأخرين وزنا ، ولا يعتقد لاحد فضيله ، ولا يقر لأحد باحسان في شيء من العلوم ، ولا حسن ، فحضرت عنده ، وسمعت من ازراءه على اولي الفضل ، وتنديده بالعيب عليهم بالقول والفعل ، فلما أبرمني وأضجر ، وامتد في غيه وأصحر ، قلت له : اما كان فيمن تقدم على كثرتهم وشغف الناس بهم عندك مجيد قط .. فقال : لا أعلم الا ان يكون ثلاثة رجال : المتنبي في مديحه خاصة ، ولو سلكت طريقه لما برّز عليّ ، ولسقت فضيلته نحوى ، ونسبتها اليّ ، والثاني ابن نباته في خطبه ، وان كانت خطبي أحسن منها وأشهر ، وأظهر عند الناس قاطبة وأشهر ، والثالث ابن الحريرى في مقاماته .

قلت : فما منعك أن تسلك طريقته وتنشد مقامات تخمد بها جمرته ، وتملك دولته ؟ فقال : يابني الرجوع الى الحق خير من التمادى في الباطل ، ولقد أنشأتها ثلاث مرات ، ثم أتأملها فأسترذلها

---

(١) كشف الظنون : ١٧٩١/٢
(٢) معجم الأدباء : ٢٦٧/١٦ - ٢٦٨

وأعمد الى البركة فأغسلها ثم قال : وما أظن الله خلقني الا لاظهار فضل الحريري" .

وفي نفس القرن نجد ابن الجوزي المتوفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة يؤلف خمسين مقامة في الوعظ ، صاغها على شكل قصص قصيرة يتأنق في ألفاظها وأساليبها ، ويلتزم فيها بالسجع والجناس ، ومختلف أنواع البديع ، وجعل لها بطلا هو ابو التقويم ، ولعل اسمه يدل على عمله فهو يظهر دائما في صورة واعظ ، يترفع عن الكديه بل انه يذمها في بعض مقاماته "١" .

وفي القرن السابع نجد نوعا من المقامات الفلسفية والترجمانات الصوفية وعدتها خمسون مقامة في ضروب من الفنون في مجلد ضخم ، مؤلفها ابو القاسم عبد العزيز بن تمام العراقي المتوفي سنة سبع وثلاثين وستمائة ، جعل الراوي لها أبا القاسم النواب والمروي عنه أبا عبد الله الأواب . "٢"

ويسرد لنا صاحب كشف الظنون "٣" أعدادا كبيرة من المقامات ، كالمقامات الزينية لابن الصيقل الجزري المتوفي سنة ٧٠١ هـ وهي خمسون مقامة كالحريري لكنه مؤخر عنه ،نسبها الى ابي نصر المصري وعزا روايتها الى القاسم بن جريال الدمشقي . والمقامات الشهابية لابن الصائغ الدمشقي ، المتوفي ٧٢٢ هـ عملها للقاضي شهاب الدين الخويي . . . وفي القرن العاشر نجد مقامات لمشاهير العلماء كالسيوطي المتوفي ٩١١ هـ وهي تسع وعشرون رسالة كل واحدة منها مقامة ، ومن مقاماته ساجعة الحرم وهي الاولى لانها في الحرمين مكة والمدينة والسندسية في أبوي النبي صلى الله عليه وسلم - ، واللازوردية في موت الاولاد ، وطرز العمامة في التفرقة بين المقامه والقمامه . . . الخ وهي بالرسائل أشبه منها بالمقامات .

---

١) كشف الظنون ٢ / ١٧٩٠

٢) المصدر نفسه ٢ / ١٧٩٢

٣) انظر كشف الظنون ج ٢ ص ١٧٨٥ - ص ١٧٩٢

كما نجد ايضا في هذا القرن نفسه مقامات للشهاب الخفاجي الذى يصفه المحبي بقوله "١" : " صاحب التصانيف السائرة وأحد أفراد الدنيا المجمع على تفوقه وبراعته ، وكان في عصره بدر سماء العلم ومنير أفق النثر والنظم ، رأس المؤلفين ، ورئيس المصنفين ، سار ذكره سير المثل ، وطلعت أخباره طلوع الشهب في الفلك ، وكل من رأيناه أو سمعنا به ممن أدرك وقته معترفون له بالتفرد في التقرير والتحرير وحسن الانشاء " .

وورد له في الريحانه خمس مقامات هي "٢" : الرومية ، مقامة الغربة ، المقامة الساسانية ، المقامة المغربية ، ومقامة عارض بها الوطواط ، وهو في مقاماته لا يلتزم راويا واحدا ، ولا بطلا واحدا كمقامات الحريرى والبديع بل يختلف الراوى والبطل من مقامة الى أخرى مع التزام السجع وأنواع البديع الأخرى .

وفي المغرب العربي نجد في القرن الحادى عشر مقامات أبو عبد الله الورغي "٣" المتوفي سنة ١١٩٠ هـ وقد ألف ثلاث مقامات هي : الباهية أنشأها عندما ابتنى أحمد الباهي حاكم تونس مدرسة الزاوية الباهية ، ونستطيع منها ان نلمح معالما من ثقافة الورغي واكتمال مقومات الصناعة الادبية والعلمية عنده ، والمقامة الختانية كتبها بمناسبة ختان أولاد الامير ، والخمرية كتبها يمدح فيها الحاكم علي بن الحسين ويشيد بعمله الجليل من هدم للحانات وبناء المدارس لسكن الطلبة مكانها ، وهو يبدع في هذه المقامة ويجدد فيجرى حوارا رمزيا بينه وبين فتاة جميلة لا تعدو أن تكون رمزا لتونس وأهلها ، وهو يصور من خلال حواره الرمزى وضع المملكة التونسية آنذاك السياسي والثقافي والاجتماعي على عهد الدولة الحسنية ، ومقاماته مزيج من الشعر والنثر .

---

١) خلاصة الاثر : ١/ ٣٣٠

٢) ريحانة الالباء : ٢/ ٣٤١ - ٤٠٢ ، ط القاهرة ١٣٨٢ هـ تحقيق عبد الفتاح الحلو .

٣) مقامات الورغي ورسائله : ١٢ ، تحقيق عبد العزيز الفيزاني ، ط تونس ١٩٧٢م

وفي القرن الثالث عشر نجد مقامات البربير المتوفي سنة ١٢٢٦ هـ وهي تمثل تطورا فنيا نحو الفن القصصي ، حيث مقاماته حلقة واحدة مسلسلة تبدأ بكلمة حكي ، وليس بحدثنا أو أخبرنا كما رأينا عند القدماء ، كما ان العنصر الخيالي متوفر فيها ففي أخرها يقول "[١] : " ثم اني رجعت الى حسي فوجدتي اخاطب نفسي ، ولا بدوى ولا بصير . . . " أي أن حوادث هذه الحكاية كلها حديث منام . والحوار ظاهر فيها وقد أدارد فته بدقة متناهية ولكن مايشوبها هو غرضها أي جلب المال عن طريق المدح .

وفي القرن التاسع عشر جاء ناصيف اليازجي ، وهو أشهر من قلد الحريري من المتأخرين ، وقد نبغ في علوم العربية كلها فألف في النحو والصرف والعروض بالاضافة الى نبوغه في الشعر ، ثم انصرف الى كتابة المقامات فقرأ مقامات الحريري ، ومازال يروض قلمه على مقامات تنحو نحوها حتى استطاع أن يعمل ستين مقامة سماها " مجمع البحرين " أي الشعر والنثر . واتخذ رواية سماه سهل بن عباد وبطلا سماه ميمون بن خزام ، وهو أديب شحاذ من نوع أبي زيد السروجي ، وأبي الفتح الاسكندرى وقدم اليازجي لمقاماته بمقدمة اعترف بها متواضعا - بقصور همته عن الحريري والبديع فيقول "[٢" : " . . . انني قد تطفلت على مقام أهل الأدب من أيمة العرب بتلفيق أحاديث تقتصر من شبه مقاماتهم على اللقب ، ونسبت وقائعها الى ميمون بن خزام ورواياتها الى سهيل بن عباد ، وكلاهما هيّ بن بي ، مجهول النسب والبلاد ، وقد تحريت فيها ما استطعت من الفوائد والقواعد والغرائب والشوارد ، والامثال ، والحكم والقصص التي يجري بها القلم وتسعى لها القدم . "

---

١) يوسف الشاروني ، المقامة في تراثنا العربي ، مجلة الفيصل ، العدد السابع سنة ١٩٨٠ هـ .

٢) مجمع البحرين : ٣ ، بيروت سنة ١٨٨٠م ، ١٢٩٧ هـ .

وهو يسير على طريقة الحريرى في كل شيء حيث يبدأ في المقامة الاولى بالتعريف بين البطل والراوية كما فعل الحريرى في مقامته الاولى ، وتتابع المقامات بعد ذلك وفي كل مقامة يكتشف سهيل بن عباد صاحبه ميمون بن خزام كالحارث بن همام عندما يكتشف السروجي بعد أن تنطلي على الناس حيله ومكائده .

كما انه استعمل الالاعيب الحريرية كالكلمات المهملة والمعجمه ، ومايستحيل بالانعكاس ، وابتكر نوعا سماه عاطل العاطل ، وفيه اشترط على نفسه أن لا تكون الحروف التي تتكون منها الابيات مهملة فقط بل يكون مسمى الحرف حين ينطق به خاليا من النقط أيضا ومنه قوله :

وله صول وطـــــول   وله صدّ ورد

بالاضافة الى الالغاز كقوله في الثمر :

ومولود بدون أب وأم
بلا قوت يعيش ولا يمـــــوت
له وجه وليس له لســـــان
فيخبرنا ويلزمه السكـــــو ت

وفي المقامة الأخيرة نجد ميمون بن خزام في المسجد الاقصى يقف خطيبا يقرع الآذان بزواجر الوعظ ويحذرهم من عذاب النار ، ويتوب الى الله توبة نصوحا ويختفي عن الأبصار ، وهي تماما كتوبة أبي زيد السروجي بطل الحريرى الذى تزهد ولبس الصوف وأم الصفوف .

ثم جاء بعده ابراهيم المويلحي ليختم هذه السلسلة من كتـــاب المقامات وذلك بكتابة المسمى (حديث عيسى بن هشام) والـــذى يعتبر تحولا ظاهرا عن سياق المقامات المعتاد .

فلا راو واحد ولا بطل معين بل ان هذا الحديث يشبه الـى حد كبير المسرحية ، لكنه غير موحد الموضوع وانما هو درس اجتماعـي

يحاول فيه الكاتب عرض احوال مصر ونقدها في شتى مجـــالات الحكم والادارة والقضاء والمحاماة والشهادات المزورة التي تشتـــرى بالمال وغير ذلك .

يقول المؤلف "١" : " حديث عيسى بن هشام وان كان فـــي نفسه موضوعا على نسق التخيل والتصوير فهو حقيقة متبرجة في ثـــوب خيال لا أنه خيال مسبوك في قالب حقيقة ، حاولنا أن نشرح بـــه اخلاق أهل العصر وان نصف ماعليه الناس في مختلف طبقاتهم مـــن النقائص التي يتعين اجتنابها والفضائل التي يجب التزامها "

---

١) المويلحي : حديث عيسى بن هشام : ٦ ، القاهرة ١٣٣٠ هـ

رابعا : خصائص القامة المشرقيه :

أريد قبل ذكر خصائص المقامات الشرقية أن أعرض لاسلوب الكتابة الفنية في القرن الرابع الهجرى عصر بديع الزمان الهمذاني ، ذلك الاسلوب الذى ترك لمسات معينة تأثر بها بديع الزمان في انشائه لمقاماته ، وبقيت هذه المؤثرات مطبوعة في اسلوب المقامة على مر العصور .

فالقرن الرابع عصر ازدهار الادب ولا شك لذلك كان فيه تطورات في الكتابة واسلوبها عما كان من قبل فأصبحت الصنعة والزخرفة اللفظية والمحسنات البديعية هي قوام اسلوب هذا العصر ، نستشف ذلك من كتابات ورسائل كبار الناثرين في هذا العصر كابن العميد والخوارزمي ، وبديع الزمان الهمذاني ، فكانوا يعتمدون السجعات القصيرة بالاضافة الى تضمين النص حشدا من الآيات والاحاديث والابيات الشعرية والامثال السائده والحوادث التاريخية ، اظهارا لسعة الثقافة والاطلاع ، كما اعتمدوا أيضا حل الابيات الشعرية ذوات المعنى الجميل ، كما ظهر هذا واضحا في مقامات البديع وفي مقامات الحريرى أظهر .

ويمكن تلخيص خصائص المقامة المشرقية بما يلي :

١ - موضوعها : تدور المقامات حول موضوعات مختلفة ومتنوعة ، فكل مقامة تكون نصا متكاملا لاعلاقة لها بالتي تليها في أغلب الاحيان فمثلا أكثر المقامات كانت تتحدث عن الكديه وأصحابها وحيلهم وطرقهم الملتوية للحصول على الاموال والاقوات كما في مقامات البديع والحريرى كما أن من مقاماتهم ماهو ذوغاية علمية وأدبية ونحوية وفقهية وفكاهية ، وتاريخية يتحدث عن أشخاص مضوا في غابر التاريخ كالمقامة الغيلانية يذكر فيها ذو الرمه الصميرية يذكر فيها الصيمرى ... وقد تكون خيالية كالمقامة

الاسدية عند البديع ومقامات البربير ، ومن المقامات المشرقية ماكان هدفها الوعظ والارشاد فقط كمقامات الزمخشرى .

٢ - هدفهـــا : تهدف في الغالب الى اظهار براعة كاتبهـــا في استعمال الاساليب الادبية وحسن الصياغة للحكاية ، وللزيات رأى في هذا حيث يقول :"١" " وليس الغرض من المقامة جمـال القصص ولا حسن الوعظ ولا افادة العلم وانما هي قطعة أدبيــة فنية يقصد بها (الفن للفن) وتجمع شوارد اللغة ونوادر التركيب في اسلوب مسجوع أنيق الوشي يعجب أكثر ما يوءثر ، ويلـــذ أكثر ما يفيد ، ولم تراع قواعد الفن القصصي فيما كتب من هــذا النوع فلم يعن كاتبوا المقامات بتصوير الحكايات وتحليـــــل الاشخاص ، وانما صرفوا همهم الى تحسين اللفظ وتزيينه " .

ونستطيع أن نوافق الاستاذ الزيات في بعض ماذهب اليه ، فهـي لم تكن قصة ، ولم يتعمق كاتبوها بمراعاة قواعد الفن القصصي ، اما أن هدفها كان الفن للفن فقط ، فهذا فيه نظر لأن من هدفها تعليــم اللغة للناشئة وقول الزيات انها تجمع شوارد اللغة فيه دلالة على ذلك ، كما أننا نجد بديع الزمان في المقامة النهدية والحمدانية يسرف فـــي استعمال الالفاظ الغريبة حتى اذا استوفى ذلك عاد فشرح لفظــــه كمعلم لغة لا كأديب ينشيء قصة ، وهذا الحريرى أيضا يكشف عن نيته التعليمية عند انشائه لمقاماته فيقول "٢" : " اذا كانت الاعمال بالنيات ، وبها انعقاد العقود الدينيات ، فأى حرج على من أنشأ ملحا للتنبيـه لا للتمويه ، ونحا بها منحى التهذيب لا الاكاذيب ، وهل هو فـــي ذلك الا بمنزلة من انتدب لتعليم او هدى الى صراط مستقيم " . كما أن من جل أهدافها نقد الاوضاع السائدة في ذلك الوقت فوجود الفقـر

---

١) تاريخ الأدب العربي : ٣٩٧
٢) مقامات الحريرى : ٨

المدقع في ظل الغنى المفرط أوجد طبقة من المكدين واللصوص الذين عبرت عنهم المقامات أصدق تعبير ولعل التعقيد اللفظي في أسلوب المقامات أو بعضها تعبير عن التعقيد والتكلف في حياة الناس ، كما أن السخرية التي نجدها بين السطور تعبر عن الألم الذي ساد طبقات المجتمع من جراء الفوضى السائدة .

٣ - أشخاصها : الشخصيتان الرئيسيتان التي تدور عليهما المقامه هما : البطل والراوى ، وبينهما صلة وثيقة ومعرفة قديمة ، فالراوى دائما يحدث عن البطل ويتتبعه في أسفاره ويحضر مجالسه المختلفة في الاقطار المختلفة فيسمعه واعظا مرة وعالما أخرى ومكديا شحاذا أحيانا . وفي كل مرة يكشف النقاب عن وجهه أو يتسلل خلفه حتى يعرف حقيقته فاذا هو صاحبه البطل لا يخطئه أبدا . وكلا من البطل وراويته مجهول يخترعه صاحب المقامه ويعطي لهما اسماء موحية لاشياء يريدها .

٤ - اسلوبها الفني : السجع هو الطابع العام لاسلوب المقامات مع الاختلاف بين المنشئين من حيث العناية به وتطلبه فمنهم من يقصده في جميع عباراته حتى يضطره الى التكلف والتعسف والاتيان بالغريب واللغات الشاذة ومنهم يجنح اليه ولكن بغير تكلف ، هذا بالاضافة الى انواع الحلية والزخرفة اللفظية من جناس وطباق وتوريه ... وكثرة الاستشهادات الشعرية وترصيع المقامة بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية الشريفة والحكم والامثال وغيرها ، ولعل هذا الاهتمام الزائد بهذه النزعة اللفظية في المقامات هي التي قللت من القيمة النقدية لأوضاع الناس فيها كما هو سبيل القصة والمسرحية في الآداب الأخرى ، ولعل في كتاب عيسى بن هشام للمويلحي دليل على مانقول اذ انه لما تحرر من سيطرة السجع وتكلف المحسنات استطاع أن يعالج مختلف المشكلات التي أرادها في مجتمعه مع أن كتابه يعد ضمن حيز المقامات .

٥ - العقدة والحوار : لكل مقامة عقدة تدور عليها أحداث المقامة ، وتشتد هذه العقدة احيانا وتتأزم وتسهل الى حد البساطة أحيانا ، ولكنها تظل دوما نقطة ارتكاز الحوار الذى يجرى في الغالب بين الراويه والبطل ، والذى يستمر مثيرا لعواطف السامعين وانفعالاتهم حتى تحل العقدة بظهور أمر البطل وانكشاف شخصيته .

ولكن مما يضعف عقدة المقامة . انها دائما تسير الى حل واحد وشخصية واحدة تشتبه على الراوى في كل مرة ثم يندهش حينما يتوصل الى أنه من أراد .

وبهذا فان المقامة فيها نفحة من الاقصوصة أو القصة القصيرة التي تعتمد على الفطرة ، كأقاصيص العرب القديمة ، يقول زكي مبارك : "(١)" ولا عيب أن تخلو آثار العرب من القصص الطويل ، فان الفن الصحيح يرتكز أولا على الفطرة ولم يكن العرب مفطورين على القصة التي تقرأ في أيام واسابيع ، ولذلك خلا شعرهم ونثرهم من الآثار القصصية التي وجدت عند معاصريهم في الشرق والغرب " .

---

(١) النثر الفني : ١/ ٢٤٩

الباب الثانـــــي

المقامـات الأندلـســــية

* * * *

الفصـــل الأول

انتقال فن المقامة الى الاندلس

كان لاتصال المد الثقافي بين المشرق والمغرب دور هام في انتقال الفن المقامي بجانب فنون أخرى الى الاندلس . فقد لعبت رحلات الأندلسيين الى المشرق دورا أساسيا في وقوفهم على هذا الجنس الادبي ، ثم ان المشارقة الوافدين على الاندلس طلبا للمجد والشهرة العلمية والأدبية قد دعّموا كثيرا من ركائز هذا الفن الجديد على أهل جزيرة الأندلس "١" فقد ((هاجرت الى الاندلس كتب الفارابي وديوان المتنبي ومقامات الحريري ورسائل البديع والخوارزمي وخطب ابن نباتة وكتب الثعالبي وخاصة اليتيمة)) "٢"

ومن المؤكد أن أهل الاندلس عرفوا مقامات بديع الزمان الهمذاني ورسائله في عهد ملوك الطوائف . اذ أن ابن بسام يذكر لنا مقامات لابن شرف القيرواني المتوفي سنة احدى وستين وأربعمائة للهجرة ((عارض بها البديع في بابه وصب فيها على قالبه)) "٣" ، كما نجد لابن شرف نفسه مقطوعات صغيرة في مدح الشيء وذمه تسير على نهج الهمذاني في مقامته الدينارية كقوله "٤" : ((أوضح من جبال

---

١) أفرد المقرى الفصول الطوال لاستعراض من رحلوا من الاندلس الى المشرق ومن قدم الاندلس من المشارقة ، انظر : نفح الطيب : ج ٢ ، جميع صفحات المجلد ٥ - ٧٠٤ ، ت احسان عباس ، ط بيروت ، ١٣٨٨ هـ ، كما وقف ابن بسام وقفة طويلة لذكر الكتّاب والوزراء والاعيان والادباء والشعراء الوافدين على جزيرة الاندلس . الذخيرة : القسم الرابع ، مج ١ ، جميع صفحات المجلد - أيضا ٧ - ٣٨٠ ، ت عباس .

٢) المراكشي ، الذيل والتكملة : ٣٧/١ ، ت ، احسان عباس ، ط ، بيروت .

٣) ابن بسام ، الذخيرة القسم الرابع الجزء الاول ص ١٩٦ ، ت ، احسان عباس ، بيروت .

٤) ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الرابع الجزء الاول ص ١٨٣ ، ت ، احسان عباس ، بيروت .

تهامة ، لعيني زرقاء اليمامة . أشهر من النار على المنار ، والليل كالنار . أبين من الكعبة للطائفين ، ومن المساجد للعاكفين ، أشهر من الزبرقان عند جرول ، ومن الابلق الفرد عند السموأل ، أظهر في العينين من الهرمين ، أشهر في العطاء من الطائي ، وفي الأيادي من الايادي ، أشهر من الآس في الاعراس ، أوضح من النجوم لبطليموس ، والطب لجالينوس ، والعاج في الآبنوس)) .

وقال في ضده "١" : ((هو أخفى من نقطة الجيم ، ومن بياض الميم . أخفى من الأسرار عند الأحرار . أخفى من السهى ومنديل الرها "٢" . أخفى من نفس الجبان اذا التقت حلقتا البطان . أخفى من بيضتي الخائف ، وقد أحس بالطائف . أخفى من تفسير شعر لبيد ، على فهم البليد . أخفى من عطارد على المطارد . أخفى من السوسة في العود ، ومن السر في الرعود)) .

ويقول البديع في المقامة الدينارية "٣" : (ياكربة تموز ، ياوسخ الكوز ، يادرهما لا يجوز ، ياحديث المغنين ، ياسنة البوس ، ياكوكب النحوس ، ياوطأ الكابوس ، ياتخمة الرؤوس ، يا أم حبين ، يارمد العين ، ياغداة البين ، يافراق المحبين ، ياساعة الحين ، يامقتل الحسين ، ياثقل الدين ، ياسمة الشين ، يابريد الشؤم ، ياطريد اللؤم ، ياثريد الثوم ، ياباديه الزقوم ... يا كلبا في الهراش ، ياقردا في الفراش ، ياقرعية باش ، يا أقل من لا شيء ... الخ))

---

١) نفس المصدر السابق ص ١٨٣ - ١٨٤ .

٢) الرّها : مدينة بالشام ، وكان أهل الانجيل يخفون هذا المنديل في كنيستها ويزعمون أنه منديل عيسى عليه السلام ثم سرق واشترى فعدمت بركته . الذخيرة ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٨٤ .

٣) شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني ، محمد محيي الدين عبد الحميد ، ص ٣٧٦ - ٣٧٧ .

فالتأثير واضح جلي من حيث التزام السجعات القصيرة المتلاحقة التي تعطي للمذموم أو الممدوح هيئة معينة تجعله اما مثالا للمحاسد او انموذجا حادا للمخازى بالاضافة الى التركيز على الحوادث التاريخية ومشاهير الاشخاص الذين ارتبطت أسماؤهم بحوادث جرت على الألسنة مجرى المثل في عبارات كلا من الكاتبين .

ثم نجد للشاعر والكاتب الاندلسي أبي "١" المغيرة بن حزم ، رسالة يعارض بها بديع الزمان الهمذاني في وصف غلام تسير على نفس النهج في الاسلوب والفكرة ومنها "٢" : (ورد كتابك ينشد ضالة ودنا ، ويرفع خلق عهدنا ، ويطلب ما أفاتته جريرتك الينا ، وذهبت به جنايتك علينا ، أيام غصنك ناضر ، وبدرك زاهر ، لا تجد رسولا اليك الا نظرة تخرق حجاب الدموع ، ونفرة تقيم منآد الضلوع ، فان رمنا شكوى ينفث بها مصدورنا ، ويستريح اليها مهجورنا لقينا دونك أمنع سد وأقبح صد ، وأقدح زند ، وأبرح رد ، حتى اذا طفئت تلك النيران ، وانتصف لنا منك الزمان بشعرات أغشت هلالك كسوفا وقلبت ديباجتك صوفا ، وأعادت نهارك ليلا ، وناحت عليك تلهفا وويلا ...

---

١) هو عبد الوهاب بن أحمد بن سعيد بن حزم أبو المغيرة الوزير الكاتب من المقدمين في الآداب والشعر والبلاغة ، وهو ابن عم الفقيه أبي محمد بن حزم .. وله شعر كثير مجموع منه :

لما رأيت الهلال منطويا في غرة الفجر فارق الزهرة
شبهته والعيان يشهد لي بصولجان اوفى لضرب كرة

مات أبو المغيرة قريبا من العشرين واربعمائة . انظر : بغية الملتمس ، للضبي ، ط مدريد ، ص ٣٨٠ ، ترجمة رقم ١١١٠ ، نفح الطيب ، ت عباس ١/ ٦٢٠ ، ط بيروت ، جذوة المقتبس : ص ٢٩١ ، رقم ٦٥٨ ، ط القاهرة ١٩٦٦م ،
الصلة : ٢/ ٣٨٠ وذكر وفاته سنة ٤٣٨ هـ ودفن بطليطلة .

٢) الذخيرة ، ق ١ ، ج ١ ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

أقبلت تتسلسل الينا لواذا وتطلب منا عواذا . قد أنساك ذل العزل عز الولاية وأولاك طمعا نسيانك تلك الجناية ، أيام ترشقنا بسهام لحاظك رشقا ، وتقتلنا بسيوف الفاظك عشقا ، وتميس غصنا فتثير حزنا ، وتطلع شمسا وتغيب نفسا ، فالآن نلقاك بدمع قد جف ، ووجد قد كف .... فاطو ثوب وصلك ، ولا حاجة لنا الى لباسه ، وازوطارق شخصك فلا رغبة لنا في ايناسه ، فما نشتهي اليوم زيارة رمس من زهد فينا أمس .

حانت منيته فأسود عارضه

كما تسود بعد الميت الدار .))

فانظر مدى التشابه بين هذه الرسالة ورسالة بديع الزمان الهمذاني التي بعث بها الى شاب كتب اليه بعد أن عزل عن ولاية حسنه يستميل فؤاده "١" وردت رقعتك - أطال الله بقاءك - فأعرتها طرف التعزز ، ومددت اليها يد التقزز ، وجمعت عنها ذيل التحرز ، فلم تند على كبدى ، ولم تحظ بناضرى ويدى ، وخطبت من مودتي مالم أجدك لها كفوءا . وطلبت من عشرتي مالم أرك لها رضى وقلت : هذا الذى رفع عني اجفان طرفه ، وشال بشعرات أنفه .. والآن اذ نسخ الدهر آية حسنة ، وأقام مائل غصه ... وانتصر لنا منه بشعرات كسفت هلاله ، وأكسفت باله وسخت جماله .... جاء يستسقي من جرفنا جرفا ، ويغرف من واديا غرفا فمهلا يا أبا الفضل مهلا :

أرغبت فينا اذ علا ك الشعر في خد قحل

وخرجت عن حد الظبا ء وصرت في حد الابل

الآن تطلب عشرتي عد للعداوة ياخجل

---

(١) كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان ، ت ابراهيم الطرابلسي ، ص ٨٤ ، ط بيروت سنة ١٨٩٠ م .

وتناسيت أيامك اذ تكلمنا نزرا ، وتلحظنا شزرا ، وتجالس من حضر ونسترق اليك النظر ... أيام كنت تتمايل والاعضاء تتزايل ، وتتفارنج والاجساء تتفالج وتتلفت والاكباد تتفتت ...

وتبسم عن ألمي كأن منورا تخلل حر الرمل غض له ندى .

.... فأما ما استأذنت رأبي فيه من الاختلاف الى مجلسي فما أقل نشاطي لك وأضيق بساطي عنك ، وأشبع قلبي منك ، وأشد استغنائي عن حضورك ... مالك يا أبا الفضل تعتاض من الرغبة عنا رغبة فينا ، ومن ذلك التدلل علينا تذللا لنا ومن ذلك التعالي تبصبصا ، ومن ذلك التغالي ترخصا ؟ ولئن اعتضت عن ذلك الذهاب رجوعا ، لقد اعتضنا من هذا النزاع نزوعا ، فانا برحلك وجانبك ، فلق حبلك على غاربك ، لا أوثر قربك ولا أتده سريك ولو أحببت أن أوجعك لقلت :

مايفعل الله باليهود ولا بعاد ولا ثمود
ولا بفرعون اذ عصاه ما يفعل الشعر بالخدود"

والمدقق في النصين السابقين لايكاد يجد فارقا يذكر بين ماكتبه ابن حزم وما كتبه الهمذاني ، بل انا لنحس النفحة الهمذانية في أدب ابن حزم في العبارات والمعاني ، حتى اننا نجد ابا المغيرة ينقل بعض عبارات البديع بنصها مع شيء قليل من التغيير كقوله :

" وانتصف لنا منك الزمان بشعرات أغشت هلالك كسوفا .... "

وقول البديع " ... وانتصر لنا منه بشعرات كسفت هلاله ..... "

بالاضافة الى التزام السجع وتدبيج الرسالة وختمها بالابيات الشعرية ويعلق الدكتور الشكعة على مابين الكاتبين من تأثر وتأثير بقوله "[1] :

" أنه من الانصاف أن نذكر أن ابن حزم نقل كل معاني بديع الزمان وصاغها في أسلوب أقرب الى الحضارة وأدنى الى الرقة وأبعد عن حرارة العنف التي عرف بها بديع الزمان . وليس من شك في أن

---

(١) الأدب الاندلسي : ٥٨٨ - ٥٨٩ ، ط بيروت سنة ١٩٧٥م

السبب في هذه الفارقة الوحيدة بين الرسالتين ترجع الى طبيعة كل من الكاتبين ، فالبديع كتب رسالته في ظل من غضارة العمر لأنه لم يعمر أكثر من أربعين حولا ، وكانت فيه طبيعة الأديب من ناحية أخرى ، أما ابن حزم فكانت فيه سجية العالم ، وفيما عدا ذلك فالمعاني واحدة والمسلك واحد ، وليس هناك من خلاف الا مافرضته طبيعة كل من الاديبين والبيئة التي ينتسب اليها كل منهما ، ولم نك نلحظ هذا الفرق الا في الاسلوب وفيما عدا ذلك فيكاد يقع الحافر على الحافر " .

ثم نجد من المتذوقين للمقامات الهمذانية الناسجين على منوالها - أيضا - "١" ابن شهيد الاندلسي الذى عاش في فترة ملوك الطوائف والمتوفي سنة ست وعشرين وأربعمائة وأكثر مانال اعجابه منها تلك القطع الوصفية ولذلك أنشأ على مثالها قطعا في وصف الماء والبرغوث والثعلب والحلوى ، كما أن رسالته المسماة " بالتوابع والزوابع " مستوحاة في جوها العام من المقامة الابليسية لبديع الزمان ، وسنعرض لهذا الموضوع فيما بعد ان شاء الله - .

جاء في وصفه للماء قوله "٢" : " انظره ياسيدى كأنه عصير صباح أو ذوب قمر لياح ، ينصب من انائه ، انصباب الكوكب من سمائه ، والعين حانوته ، والفم عفريته كأنه خيط من غزل قلق أو مخصر يضرب به من ورق يرفع عنك فترى ويصدع به قلبك فتحيا . "

وهو بهذا يحاكي بديع الزمان عندما وصف الماء بالمقامة المضيرية بقوله "٣" : " أزرق كعين السنور ، صاف كقضيب البلور ، انتخب من الفرات ، واستعمل بعد البيات ، فجاء كلسان الشمعة في صفاء الدمعة . "

---

١) سنورد له ترجمة كاملة عند الكلام عن مقامته .
٢) الذخيرة ، ق ١ ج ١ ، ص ٢٧٦ .
٣) شرح مقامات الهمذاني ، ص ١٢٤

كما أن ابن شهيد متأثر جدا في رسالة الحلواء بالمقامة المضيرية للهمذاني وهي في الواقع شديدة الشبه بالمقامة لأن فيها بطلا تدور حوله احداث القصة وهو ذلك الفقيه الذى خرج في رحلة بمصاحبة ابن شهيد ولمة من الاتراب والأصحاب "١" ((فقيه ذو لقم ... وغريم بطن .... رأى الحلوى فاستخفه الشره ، واضطرب به الوله ، فدار في ثيابه ، وأسال من لعابه ... الخ)) .

ولعل هدف ابن شهيد من هذه الرسالة أو المقامة كان اظهار براعته اللغوية في الوصف فنجده يقف عند كل صنف من أصناف الحلوى ويورد لها اوصافا دقيقة على لسان ذلك الشيخ النّهم "٢" (ونظر الى الفالوذج فقال بأبي هذا اللمّص ، انظروه كأنه الفص مجاجة الزنابير أجريت على شوابير وخالطها لباب الحبة فجاءت أعذب من ريق الأحبة ، ورأى الخبيص فقال : بأبي هذا الغالي الرخيص هذا جليد سماء الرحمة ، تمخضت به فأبرزت منه زبدة النعمة ، يجرح باللحظ ويذوب من اللفظ ... ولمح القبيطاء فصاح بأبي نقرة الفضة البيضاء ، لا ترد عن الفضة أبنار طبخت أم بنور ؟ ورأى الزلابية فقال : ويل لامها الزانية أبأحشائي نسجت ،أم من صفاق قلبي ألفت ؟ فاني أجد مكانها من نفسي مكينا وحبل هواها على كبدى متينا ... الخ) .

وهكذا يستمر الشيخ الفقيه متنقلا بين أطباق الحلوى واصفا لها كيف عجنت وطبخت بنفس ثائرة هزتها شهوة الطعام الى أن نال بغيته منها بأرطال ابتاعها له الغلام بأمر أبي حفص بن شهيد وبهذا تختتم الرسالة .

ولا يخفى أثر البديع ومقامته المضيرية في هذه الرسالة فالغرض واحد وهو اظهار براعة الوصف فنجد الاسكندرى بطل مقامات الهمذاني

---

١) الذخيرة ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٢٧٠ - ٢٧١ . ت عباس
٢) نفس المصدر والصفحة .

يدعى لتناول الطعام عند أحد تجار بغداد فجعل التاجر طول الطريق يصف زوجته وحذقها في صنعتها وتأنقها في طبخها حتى وصلا الى الدار فيأخذ صاحبها - التاجر - يصفها متقصيا دقائقها بادئا في الباب وحلقته "١" ((... انظر الى حذق النجار في صنعة هذا الباب ... هو ساج من قطعة واحدة لا مأروض ولا عفن اذا حرك أن ، واذا نقر طن ... وهذه الحلقة تراها اشتريتها في سوق "٢" الطرائف من عمران الطرائفي بثلاثة دنانير معزية ... فيها ستة أرطال ، وهي تدور بلولب في الباب بالله دوّرها ثم أنقرها وأبصرها))

ثم ينتقل ليصف الدهليز بقوة الأساس ومتانة الحيطان ويطيل في شرح كيف تم له شراء هذه الدار باستدراج صاحبها والاحتيال عليه ، ثم يأمر الغلام بالطست والماء ليوهم أن الطعام قد قرب ولكنه يشرع في وصف الغلام ثم بالطست ثم بالماء فالخوان فالكنيف لا يترك صغيرة ولا كبيرة الا وقف عندها ووصفها بأطناب وتفصيل حتى ضجر ضيفه ولاذ بالفرار .

كما نجد الكاتبين يتخذان نفس الأسلوب الفكاهي في وصف حال الأشخاص الذين تدور حولهم الأحداث فالفقيه عند ابن شهيد شديد الشره لم يستطع مفارقة الحلوى أضف الى ذلك ان اختياره للفقيه بالذات ليمثل هذه الصورة كان له تأثيره الكبير في اضفاء جو السخرية والفكاهة لان المفروض أن يكون الفقيه على عكس ذلك يتحلى بالزهد والورع ، وربما كان لابن شهيد أهداف أخرى قصد اليها من خلال اظهاره للفقيه بهذه الصورة المشينة ، كما أن الهديع رسم لصاحبه

---

١) شرح المقامات ، محيى الدين عبد الحميد ، ص ١٢٨ .

٢) سوق الطرائف : سوق كانت ببغداد تباع فيها النفائس .
انظر : شرح المقامات : ٢٨ . المقامة لشوقي ضيف ، ص ٣٥
معزيّة : كاملة ، وبذلك اشتهرت دنانير المعز لدين الله الفاطمي صاحب مصر ، اذ كانت أثقل من غيرها في الوزن .

صورة الثرثار أو المهزار الذى يطلق لسانه في كل أمر يخطر له . كل ذلك بأسلوب بديع وروح فكاهية تجعل السامعين يتلقونها بالقبول والاستحسان .

ونجد أيضا في عصر ملوك الطوائف مقامة طويلة للكاتب أبي محمد ابن مالك القرطبي الذى كان يعيش في كنف ابن صمادح أمير المريه ، وبني هود أصحاب سرقسطه "١" وقد ساق لنا منها ابن بسام في ذخيرته بعض الفصول ، كما ذكر بأنه صاحبها خاطب بها ابن صمادح المذكور "٢" وسنقف عندها في فصل قادم ان شاء الله .

ثم بدأت تظهر مقامات الحريرى في الشرق ، وكان ذلك في أوائل عهد المرابطين بالاندلس حوالي سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة وتبعا لسنة الهجرة الادبية بين الشرق والغرب انتشرت مقامات الحريرى بالاندلس انتشارا عظيما ، وذاعت شهرتها ، ومما يدلل على عناية أدباء الاندلس وعلمائها بهذه المقامات حرصهم الشديد على سماعها وحفظها وروايتها عن مؤلفها ببغداد ثم عودتهم الى بلادهم بهذا الذخر العظيم ، ومن هؤلاء : الحسن بن علي بن الحسن الانصارى البطليوسي الذى " رحل الى المشرق فأدى الفريضة وتجول هنالك .. وله رواية عن زاهر بن طاهر الشماحي وعبد المنعم بن عبد الكريم القشيرى وابي محمد الحريرى سمع منه مقاماته الخمسين ببستانه ببغداد ... " "٣" وكان ذلك في سنة خمس وخمسمائة على مايذكر الشريشي "٤" ومنهم أيضا أحمد بن محمد بن خلف بن محرز بن محمد الانصارى ، من أهل شاطبة يكنى أبي العباس رحل الى الشرق وأقرأ القرآن بدمشق

---

١) العماد الأصفهاني : خريدة القصر ، القسم الرابع ، ج ١ ، ص ٤٤٧ / حاشية المحققين ، تحقيق : عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم ، ط مصر سنة ١٩٦٤م

٢) انظر القسم الاول ج ٢ ، ص ٧٤١ ، ت عباس .

٣) ابن الآبار ، التكملة ، ج ١ ، ص ٢٦٠ ، نشر عزت العطار ، القاهرة ١٩٥٦م .

٤) شرح مقامات الحريرى ، ١/ ٣ ، ط القاهرة ، تحقيق ابو الفضل ابراهيم

بعدة روايات . . . وأنه سمع مقامات الحريري منه مع أبي القاسم بن جهور في جمادى الاولى سنة خمس وخمسمائة "١" .

وكذلك منهم عيسى بن ابراهيم بن عبد ربه بن جهور القيسي من أهل طلبيره ، سكن شريش يكنى أبا القاسم ، رحل الى المشرق بعد الخمسمائة ولقي جماعة من العلماء ، ودخل بغداد وناظر هنالك الفقهاء ، وأخذ عن أبي بكر أحمد بن علي بن بدراق الحلواني ، وأبي بكر بن طرخان وأبي القاسم بن علي الحريري صاحب المقامات فأخذها عنه وجماعة غيرهم . "٢"

وبعد موت الحريري كان لمقاماته شأن عظيم على يد تلاميذه الذين أجازهم في حياته بالرواية عنه فجلس هؤلاء العلماء وتحلقهم الطلاب يدرسون ويشرحون ، ويعلقون على المقامات الحريرية ومن هؤلاء بالمشرق ابنه أبي محمد الحريري والأديب ابو الطاهر الخشوعي بدمشق ، وقد قرأ على الخشوعي هذا كثير من العلماء منهم مثلا : أحمد بن محمد بن أحمد بن عياش الكنان من أهل مرسيه ، رحل الى الشرق سنة تسع وسبعين وخمسمائة فحج سنة ثمانين بعدها وأقام بالحجاز والشام مدة ، ولقي أبا الطاهر الخشوعي بدمشق فسمع منه مقامات الحريري ، وأخذها الناس عنه ، وتوفى سنة ثمان وعشرين وستمائة على اثر كف بصره . "٣"

وعبد الله بن محمد بن طاهر بن مالك الأزدي : من أهل وادي آشي يكنى ابا محمد له رحلة الى المشرق أدى الفريضة فيها ،وسمع بدمشق من أبي الطاهر الخشوعي مقامات الحريري "٤" .

---

١) التكملة : ٢٧/١ .
٢) ابن بشكوال ،الصلة : ٤٤٠/٢ ، ط القاهرة .
٣) التكملة : ١١٨/١
٤) المصدر نفسه ٢٧٤/٢ .

كما كان يوجد تلاميذ للحريري بالاندلس ، أمثال ابي القاسم عيسى بن جهور بقرطبه ، وقد قرأ عليه المقامات كثير من الأدباء والعلماء أمثال أبي بكر بن مالك الفهري المتوفى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة "١" ومحمد بن خليد بن محمد التميمي من أهل المريه ، يكنى ابا عبد الله ، لقي ابا القاسم عيسى بن جهور بقرطبه فسمع منه مقامات الحريري ، وسمعها معه أبي الحجاج القضاعي بالمريه وفي حانوته بباب الزياتين منها وحدث بها عنهما وأقرأ الأدب "٢" ، هذا عدا عما ذكره ابن خير في الفهرسة ، والمقرى في نفح الطيب "٣" من الاعداد الكبيرة من العلماء والادباء الذين اهتموا بدراسة وسماع المقامات الحريرية . فعلى يد هؤلاء وتلاميذهم عرف الاندلسيون المقامات المشرقية ودرسوها في أيام الطوائف والمرابطين والموحدين .

والذى يهمنا في هذا المقام ان معرفة الاندلسيين لمقامات الحريري لم تقف عند حد المعرفة والحفظ والرواية ، بل تعدتها الى مرحلة الشروح ، ولعل من أهم شراحها : أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشي المتوفي سنة تسع عشرة وستمائة يقول "٤" : " كان اول من أخذت عنه روايتها وتلقيت منه درايتها ببلدى الشيخ الفقيه المقرى أبو بكر ابن أزهر الحجرى ، حدثني بها عن صهره الفقيه المحدث الراوية أبي القاسم عيسى بن عبد ربه المعروف بابن جهور عن منشئها الحريرى ، وحدثني بها أيضا ببلدى الشيخ الفقيه الراوية ابو بكر بن مالك الفهرى عن ابن جهور المذكور ، وعن الشيخ الفقيه أبي الحجاج الأندى ، كلاهما عن ابي محمد الحريرى ... وحدثني بها أيضا الكاتب الزاهد أبو الحسن ابن جبير عن الشيخ بركات بن ابراهيم بن طاهر المعروف بالخشوعي

---

١) نفس المصدر السابق : ٢/٥٥١
٢) المصدر نفسه : ٢/٤٩٥
٣) انظر فهرسة ابن خير : ص ٣٨٧ ، ص ٤٥١ ، ط القاهرة ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣م ، والنفح تقدم ذكره .
٤) شرح الشريشي للمقامات : ص ٥

عن الحريرى ... الخ " . ويحدثنا الشريشي عن اطلاعه على جميع شروح المقامات من قبله حتى عثر على شرح المسعودى "١" فأعاد النظر في كل ماكان صنعه من قبل ، ومن هذا كله صنع شرحه المذكور الذى يقع في ثلاث نسخ كبراها الأدبية ووسطاها اللغوية وصغراها المختصرة .

كما نجد شرحا لأحمد بن داود بن يوسف الجذامي ، من أهل باغه يكنى أبا جعفر وكان كاتبا أديبا نحويا ، لغويا مشاركا في علم الطب وله شرح آداب الكتاب لابن قتيبة تأليف مفيد ، وأخذ في شرح المقامات للحريرى ، وقد أخذ عنه وتوفي سنة ثمان وتسعين وخمسمائة أو نحوها "٢" .

ومرحلة الشروح هذه قادت بالضرورة الى المحاكاة والتمثيل والتقليد لهذا الجنس الادبي المسمى بالمقامة . فنجد كتاب الخمسين مقامة اللزومية التي تسمى بالمقامات السرقسطية نسبة الى موءلفها "٣" الذى التزم جانب الحريرى تماما في الموضوع والشكل والعدد .

---

١) هو أبو سعيد أو ابو عبد الله ، محمد بن أبي السعادات بن مسعود المسعودى الخراساني المروزى الهندهي الفقيه الشافعي الصوفي ، شرح المقامات وأطال في شرحها واستوعب فيه مالم يستوعبه غيره ، وهو في خمسة مجلدات كبار لم يبلغ أحد من شراح هذا الكتاب الى هذا القدر ولا الى نصفه ، توفي سنة ٥٨٤ هـ . انظر : وفيات الاعيان : ٤/٣٩٠ ، الوافي بالوفيات : ٣/٢٣٣ ، شذرات الذهب : ٤/٢٨٠ .

٢) التكملة : ١/٩٢

٣) محمد بن يوسف التميمي المازني من أهل سرقسطه ت ٥٣٨ هـ . وستأتي ترجمته بالتفصيل فيما بعد .

الفصـــل الثانـــي

المقامات الاندلسية التقليدية :

وقد اطلقت عليها هذا الاسم لانها تسير على نهج مقامات الشـرق التي تعتبرها نموذجا للفن المقامي الأصيل الذى يحتوى على خصائص ومزايا ثابتة هي قوام هذا اللون في الادب العربي ، وأريد هنا أن أفصل القول في هذه المقامات عن طريق دراسة الاغراض التي تناولتهـــا واشتملت عليها وهي كما يأتي :

الأغراض السياسية :

لعل خير مايمثل لنا الوضع السياسي في عصر الطوائف والمرابطين من المقامات التي نحن بصددها المقامات اللزومية للسرقسطي "١" ، ولحسن الحظ وصلتنا هذه المقامات كاملة ، بل هي النص المقامي الاندلسي الوحيد الذى وصلنا تاما ، لذلك سوف نعول عليها كثيرا في دراستنا .

قدمنا في التمهيد أن الفترة التي نتناولها (الطوائف والمرابطين) فترة اضطراب سياسي عنيف وحروب داخلية دافعها المطامع الدنيوية ، تمزق في العقائد والقيم حتى يصل الامر الى الاستعانة بالمشركين النصارى على المسلمين ودفع الجزية لهم من أقوات الشعب المستضعف ، وكـــان حال الحاكمين : " ذهابا في الكبر وتهاونا بالأمر ، وقعودا عـــن النصر ، واستظهارا بأحزاب الكفر . . . " "٢" حتى بلغ الهوان بالحكام

---

١) السرقسطي : محمد بن يوسف بن عبد الله التميمي المازني ، من أهـل سرقسطة ، يعرف بابن الاشتركوني . ويكنى أبا الطاهر ، سكـــن قرطبه ، سمع من أبي علي الصدفي كثيرا وابي حمد بن السيد وابـــن مضاء وغيرهم كثير ، وكان مقدما في اللغة والعربية شاعرا محسنا ، وله مقامات من تأليفه أخذت عنه واستحسنت ومن آثاره أيضا كتـــاب المسلسل في غريب اللغة ، وقد كان رحالة في طلب العلم ، وتوفـــي رحمه الله في جمادى الأولى سنة ٥٣٨ هـ . انظر ترجمته في : الصلة : ٥٨٨/٢ وذكر أن وفاته كانت سنة ٦٣٨ هـ وهو خطأ ، ابن الابار ، معجم أصحاب الصدفي ص ١٤٠ - ١٤١ ، السيوطي ، بغية الوعاة : ٢٧٩/١ ، لسان الدين ابن الخطيب ، الاحاطة : ٥٢١/٢ ، بروكلمان ، تاريخ الادب العربي : ٣٥٤/٥ .

٢) الذخيرة : ق ٢ ، ص ١١٢ . ت عباس .

أن يدخل رسل ابن عباد على الأذفونش ليسلموه الجزية ، فاذا بـه " يصفق بيديه ويتهافت برجلية ويقول : أين رسل ابن عباد ؟ فجيء بهم يرفلون في ثياب الخناعه وينبسون بألسنة السمع والطاعة ، فقال لهم : مذ كم تحومون عليّ ، وترومون الوصول اليّ ؟ ومتى عهدكم بفلان ؟ واين ماجئتم به لا كنتم ولا كان ، فجاءوا بجملة ميره ، واحضروا بين يديه كل ذخيرة وخطيرة ، ثم مازال على أن ركل كل ذلك برجليه وأمر بانتهابه كله ، ولم يبق ملك من ملوك الطوائف الا أحضر يومئذ رسله " "١"

ثم يأتي المرابطون بعد الطوائف فيشلون عروش المشركين النصارى ثم يكون أمرهم الى التحلل والتفكك وسيطرة النساء واهمال أمر الرعية ثم الضعف والزوال .

هذا العصف السياسي ترك في نفوس الناس جرحا عميقا ، وقد كانت المقامات احدى المنافذ التي تطلعنا على ذلك فنسمع البطل المقامي يقول في حشد من الناس "٢" : ((ان تروني وقد نفذ زادى وصفر مزادى وطفيء شهابي ، وأخلق اهابي ، وخشن أديمي ، ونفر عني صاحبي ونديمي ، فلقد فتنت الكواعب وذللت المصاعب وأرضيت الآمال ، وتسوغت الأمال ، وبذلت الخطير ووصلت الشطير ، وأكرمت النزيل ، ووهبت الجزيل ، وسحبت فضل الذيل ... " هذه الحالة الماضية التي يعبر عنها بطل المقامة هي تصوير لما كان من أمر في عهود الاطمئنان والدعة والاستقرار ، ثم تتبدل هذه الحالة فتنقلب حال البطل شقاء وجحيما فيقول في ألم وحسرة : " ثم لم يكن الا أن تغلبت أحوال وتعاقبت سنون وأهوال ذهبت بالحديث القديم ، وأثرت في الصميم والأديم ، فبدلت من النعيم البوس ومن البشر القطوب والعبوس ، وعوضت عن العذب المجاج بالملح الأجاج ، ومن الاعزاز بالاذلال ومن الاكثار بالاقلال " "٣"

---

١) المصدر السابق : ص ١٦٦ .
٢) مقامات السرقسطي : (مخطوط بمعهد المخطوطات) رقم (٧٩٤) أدب ص ٢
٣) نفس المصدر والورقة .

هذه المقابلة بين الحالين المتضادين تظهر حدة المفارقة المراد تصويرها ، كما تبين أثر التقلب السياسي الذى جعل سراة الناس عالات يتكففون الناس لكثرة ضرائب الحكام التي تدفع جزية للكفارة ورواتب لمرتزقة الجند لحماية النظام القائم على غير أصل وأساس وربما تدفع لكثير من الفقهاء لاكساب النظام الصبغة الشرعية ، أما بقية الناس فتمضي مشردة هائمة في طلب العيش والأمان ويصور البطل هذه الحال بقوله : " لقد جاكم أخو ضرار، وتاداكم ذو جد وغرار ، فل الزمان من غروبه وقضى بطلوعه وغروبه ، فتمزق أديمه ، وضاع حديثه وقديمه ، وتكدرت مشاربه ، وتعذرت مساربه "[١]
ونشعر بحدة المفارقة التي ترسمها المقامة عند عرض حال الأمن والاستقرار في حال الخوف والقلق والتشرد عندما يبكي بطل المقامة وطنه الذى أجلته عنه الفتن والكوارث ودفعته بعيدا باحثا عن الأمان : "[٢]"

هيهات منك ديار حلت بها الأعداء
وما لمثلي دار ولا عليك عداء

ومن هنا - ونتيجة للقهر السياسي - ظهرت ظاهرة في تاريخ الأدب الاندلسي يمكن أن نسميها الجلاء القسرى أو الاجبارى ، وعن هذا يعبر البطل بقوله "[٣]" : " وهجرت دارى وجعلت الغربة مدارى ، وصرت أطوف في البلدان وأجرى بكل ميدان " .

وحتى يقيم التأثير الدرامي المطلوب ، ويحدث أثره في نفوس السامعين يمهد لتطوفه هذا بخلفية تاريخية حين يقول : " كنت أبهنا لبعض الأقيال ، وأسحب فضل الأذيال ، وأهيم بذات الخال . . . " ثم يتبدل حاله ليس للؤم فيه أو خسة بل هي صروف الدهر التي ترفع

---

١) المصدر السابق : ورقة (١٣)
٢) نفس المصدر : ورقة " ٤٣ "
٣) المصدر السابق : ورقة " ٨ "

فقد" قام بالأمر قائم على حين نام مني نائم ، أخل بالعهود والذمم ، وغار من ذوى الرتب والهمم ، فأصارني طريدا ، وغادرني شريدا ، أعتام الكرام ، وأتسوغ الخلال والحرام " "١" . وهو في هجرته يبحث عن ملتجأ مخلص يهدهد آلامه ويسكن أشجانه يقول "٢" : " وما أطوف الآفاق ، وأسواق الانفاق ، وأتجشم التكاليف ، واقتحم المتالف ، واتجرع العلاقم ، وأتدرع الأراقم ، الا رجاء أن تعلق يدى بخل صاف مصاف وآخى حنان وانصاف " . هذه الوقفة النفسية ذات دلالة عظيمة على البوءس والشقاء والجدب الروحي السائدبين الناس في ظل تلك الأوضاع السياسية ثم تقف المقامات مرات ومرات مفصلة لاسباب الضيق المادى النازل بالناس فيأتي على لسان البطل : "... ولكن تعاقبت ايام وعقب ، وتناوبت أعوام وحقب ، وسعمعت للفتن نارا ، ورفعت للمحن منارا ، وأهبت سموم النوايب ، وأشبت عقيم العجايب ، وأدرت أخلاق المحن ، وأطرت اسياف الاحن ، فما آبقت من تالد ولا طريف " "٣" لهذا كله يطالعنا في المقامات هجاء سياسي صريح ينعي فيه البطل المقامي ضيعة العرب بين أصناف العجم سواء عنده كفار النصارى أو المجوس أو البربر المسلمين فيكون مندهشا - مخاطبا العرب - : "... تعاطلوا الكفار وتملكوهم الرقاب ، وتخلعوا دونهم النقاب فيجروا عليها الاحكام ويغنموا العياب والاحكام ، ثم تعاينوا عبادة النيران ، ومراقبة القران والتقرب بالابدان والتزلف بالمدان ، من أمة تستترعنكم بالرطانة ، وتدعي دونكم في اللبانة والفطانة ويزدرونكم ازدراء الفال ، ويسمونكم سمة الاغفال والاهمال .

ياما أذل العرب بين العجم
وقد رموهم بالاذى والرجم " "٤"

---

١) مقامات السرقسطي : ورقة ٨٠ .
٢) المصدر نفسه ورقة ٤٢ .
٣) المصدر السابق : ٤٦ .
٤) المصدر السابق : ورقة ١٥ .

ونجد للسرقسطي مقامة بأكملها تقوم على الهجاء المقذع للبربر ، وهو يقصد بالطبع حكام المرابطين ، ومنها يقول "١" : " ... حتى قذفتني الايام الى بلاط طنجه ، وأشرفت منها على ابواب فرنجة ، فأقمت بين أقوام كالانعام أو النعام ، واناس كالسباع ، أو الضباع ، لا أفقه مقولهم ، ولا يوافق معقولي معقولهم ، قد فارقت القوم زيا ولفظا ، ولم أعدم منهم طردا ولا لفظا ... كأني أصاحب البهائم ، أو أسيم التوابيم ، غير انها لا تنقاد ولا تسالم ، ولا تعاقل ولا تحالم .. "

وقد نستغرب جراءة السرقسطي هذه في هجاء القوم مع أنه يعيش في عصرهم وتحت حكمهم ، ولكن هذا الاستغراب يزول عندما نرى ابن ابي الخصال يكتب خطابا رسميا على لسان أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين الى الجند المرابطين الذي انهزم أمام النصارى في احدى الوقائع عند مدينة بلنسيه فيفحش فيها أشد الافحاش ، ويغلظ لهم القول أكثر مما يجب ، وكأنه بذلك يعبر عما في نفسه من الحقد الدفين والكراهية الشديدة لهم ، وكانت هذه الرسالة سببا في حنق أمير المسلمين عليه وعزله عن الكتابة ، وقد قال في رسالته تلك : " يافرقة خبثت سرايرها ، وانتكثت مرايرها ، وطايفه انتفخ سحرها ، وغاص على حين غرة بحرها ، فقد آن للنعم أن تفارقكم ، وللاقدام أن تطأ مفارقكم ، حين ركبتموها جلواء عارية ، وأصبحتم في ادراع عارها امثالا سواسية ... وحاربوكم عاما على اثر عام حتى الزموكم ، وتركوكم أسلح من حبارى ، وأشرد من نعام ... يابغايا بني الأصفر وسجايا ذوات الدل والخفر اكرهتم زحافهم ، وكنتم - علم الله - أضعافهم ؟ ، لا بالحنيفية تحرزتم ولا الى الحفيظة والانابة تحيزتم ... أي بني اللئيمة وأعياء الهزيمة الام يزّيفكم الناقد ، ويردكم الفارس الواحد ؟ فليت لكم بارتباط الخيول ضأنا لها حالب قاعد ، لقد آن نوسعكم عقابا ، وألا تلوثوا على وجه نقابا ، وان نعيدكم الى صحرائكم ، ونطهر الجزيرة من رحضائكم ... " "٢" . وهذه الرسالة تكشف لنا عن مشاعرهؤلاء

---

١) المقامة السادسة والاربعون : ورقة ١٠٨ .

٢) حسين مؤنس ، نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية في مدريد ج ٣ ، ص ١١٦ - ١١٧ ، سنة ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م .

الحانقين من الاندلسيين بصورة لا تحتاج الى بيان ، وتبين لنا كذلك الحجج التي كانوا يتذرعون بها في الحملة على المرابطين ، وقد كان السرقسطي من جملة هؤلاء ، حيث نجده يرى فيهم " سفاك الدماء وهتاك الذماء " "١" .

وبجانب النقد السياسي الصريح نجد نقدا آخرا ساخرا يغلفه الرمز ، فأحدى المقامات يشبه المؤلف بها الحاكم بالاسد في القسوة والبطش والقهر فيروى لنا قصة لقائه مع أسد قطع الطريق على الناس ، فيخاطبه البطل المقامي راجيا أن يفسح الطريق للعابرين : " يا أبا الحرث يا أسامه ، لك الحسن والوسامة ، لك الامارة أو الرياسة ، فأين منك الاناه والسياسة ، و رفقا على عبيدك ، وصولا على قفرك وبيدك ، قد روعت القلوب ، وطردت القلوب ، وطردت الجدود والحلوب ، نحن من جنابك في حرم ومن سطوك في برم ، مثلك يملك فلا يهلك ، ويقدر فلا يغدر ، نحن قوم ضعاف أكلتنا السهوب والشعاف ، وأبقت منا كل معي طليح ، ومشفق من المنية مليح حتى اذا أنسنا بالنعم ، وسمعنا أصوات النعم ، قطعت بيننا وبينها السبيل .. اذهب بفريستك الى عريستك ، وانهض بنبالك الى عيالك . خل المال لملاكه ، وتنح عن الطريق لسلاكه " . "٢"

وهنا ماكان من الأسد الى ان زوى وجهه وطوى كشره ونجهه وولى والخجل يرف على أعطافه .. هذا ماكان من أمر الحيوان الاعجمي ، حالة تسلطه وقهره ، أما حكام الاندلس : فان تدبرهم أقل من تدبر الحيوان الضارى ، لا عقل ولا عاطفة ، همهم شهواتهم وجوارحهم ، لذلك يتعجب منهم البطل المقامي ساخرا " ... اليس من الغريب والعجب المريب أن ينثني الغضنفر الهصور ، وينقاد الالف المنصور ، وانتم في صورة الانسان ومابكم فضل ولا احسان " . والرمز هنا واضح لا يحتاج الى تعليق .

---

١) المقامات اللزومية : ١١٠ .
٢) المصدر نفسه : المقامة الخامسة والاربعون : ورقة ١٠٦ ، ١٠٧ .

وهكذا نرى أن المقامة الاندلسية التقليدية تعني في اغراضيها السياسية باستعراض أحوال البلاد السياسية المتقلبة وماتنج عن ذلك من آثار ومآسي ذاقها الناس فأوجدت عندهم حب النزوح ، والهجرة طلبا للأمن ، والمقامة أخيرا ترمي الى هجاء واقع الحكام هجاء صريحا تارة وضمنيا في اطار من الرمز .

الأغراض الاجتماعية والخلقية للمقامة الاندلسية التقليدية :

لما كانت الحالة السياسية - دائما - هي التي تسيطر على النواحي الاجتماعية والاقتصادية في البلاد ، كان من الطبيعي أن تتناولها المقامات بحكم كونها تناولت الحالة السياسية من قبل . ليتنقل البطل المقامي ماشاء له أن يتنقل في ربوع العالم الاسلامي شرقا ومغربا ليحل في الجزيرة العربية وبمناطقها المتعددة كاليمن وعدن وعسفان والبصرين وغيرها وفي العراق مارا بمدينة السلام وسنجار وحران وأصبهان والرى . . ثم في الاسكندرية ودمياط وحلب وفلسطين وفي المغرب القيروان وطنجه أو ليصل الى أبعد من ذلك الى السند والهند والصين ليطوف في كل هذه البلاد ويعمل ماشاء من المغامرات والحوادث ولكن المجتمع الذى يتحدث عنه دوما هو مجتمع قرطبة والزهراء وأضرابهما من المدن الاندلسية فان حبه لبلاده لا يكاد يختفي ، فهي دائما موضع فخره وتعظيمه يضفي عليها من القدسية الدينية والعظمة الأدبية الشيء الكثير ، فنسمع صوته يقول : " . . . وكنت أسمع بارض الاندلس ، وحضارتها واحتفالها ونضارتها ، فأتمناها تمني المشتاق وأفديها بالكرائم العتاق " "١" . ولما آل المجتمع الاندلسي الى ما آل اليه بسبب أوضاعه السياسية - على ماتقدم - أمكن لنا أن نفهم ونبرر رنة الحزن والألم التي يبذل البطل المقامي جهد العاجز في اخفائها ، حتى ان البطل المقامي عندما يقف ليعظ الناس فانه في حقيقة الأمر يعبر عن مجتمع قرطبه الذى اتجه

---

١) المقامات اللزومية : ورقة (١٠٨) .

الى الزهد واعتكف على العلوم الدينية حين فسدت أخلاق الناس وتبذلوا واستهانوا بأمر الدين وحدوده .

فالسرقسطي في كل مقاماته - تقريبا - يتخذ من بطله ستارا لاغراضه المختلفة ، فنحس بالعاطفة العميقة كلما ذكر بلده وحن الى موطنه ، عاطفة صادقة ،ووجدان عميق ،فالبطل حين يبكي بلده يبكي السرقسطي وطنه الكبير الاندلس ويلقي عليه نظرة شاملة ليصور ماوصل اليه من السوء المفاسد ، ساخرا حينا وآسيا أحيانا فيعرض علينا ضروبا مختلفة من الناس ، تعبر عن واقع اجتماعي آل اليه المجتمع الاندلسي وهو ظهور الفروق الطبقية الواسعة التي دفعت المترفين الى الفساد والطغيان والمعدمين الى التحلل الخلقي والسرقة والاحتيال .

ولقد كان من ابرز الاغراض الاجتماعية للمقامات العناية برسم صورة ساخرة للفقهاء المتسلطين وهم يلبسون قناع الصلاح والتقوى ، ويلتحفون برداء التنسك والزهد ،لتحقيق مآرب شخصية . يقول السرقسطي في وصف أحدهم وما يتبعه من الطرق الملتوية على لسان البطل : (" انه صلى معنا العشاء وأتى من حسن القول ما شاء ، فعطف منامعاطف وجوانب ، وأسال منا متالع ومذانب ، وزعم أنه في غد راحل ، وان سوف تطويه المراحل . وسأل المبيت في أحد المساجد فلما أصبحنا لصلاة الصبح عثرنا من أمره على قبح ، ووجدنا من كان معه قد سلبه ريشة وثلل عريشه ، واوقع بينهم الظنون وألبس عليهم أمرهم وأبهم ،وقد انسرب في بعض الحانات وأودعهم تلك الخيانات . . وبقينا نتقلب في حبائل اشراكه الى أن قام في هذه الجماعة فتلثم وتلفح ، وتوسل بالكتاب وتشفع وأخذ في وعظ وحديث " "١" فلعل صاحب هذا الفعل أحد اولئك الفقهاء الذين زينوا الباطل للحكام وألبسوه ثوب الشرع ، وهم في حقيقتهم منافقون يتزّيون بسمت الزهاد والوعاظ ويقولون مالا يفعلون ، فآثروا على حساب الناس في ظل ذلك الوضع السائد ، ووجدوا الفرصة سانحة

---

١) المقامات اللزومية : ٣٢ - ٣٣ .

لمد النفوذ والأطماع . فينعى عليهم البطل المقامي ذلك الخسران ساخرا " تلبسون الثياب ، وتشدون العياب ، وتدخرون فضول الأقوات ، وتتمتعون بنغم اللحون والأصوات ، ولا تدرون بغريب يقاسي نغمة القرقس والذباب . . " ثم يعود فيستغفر الله لهم عن كل ما ارتكبوه في حق الاسلام والمسلمين ويدعو لهم بالصلاح والاستقامة : " اللهم اسلبهم ثوب الرياء وألبسهم ثوب الحيوة والحياء ، وألن قلوبهم القاسية ، واعطف نفوسهم العاسية " [١] ونجد أبلغ نقد لطبقة الفقهاء في المقامة السابعة والعشرين ، حيث نرى شيخا يتسنم ذرى الزهد والورع ، والناس من حوله في المسجد وهو يعظ الجمع ويذكرهم حتى اذا أنقض القوم من حوله نجده ينفرد لمحاسبة كاتبا كان معه على خراج يومه وما جمعه غشا وخداعا باسم الوعظ والارشاد والافتاء .

ويثور الشيخ متهما كاتبه " بالتلاعب والتزوير " قائلا : " الى كم الاعتداء والافتراء ، تواطأتم عليّ في التدليس ومن لي بهامان وابليس ، أعليّ يقتات وبمالي يفتات . . . " ثم يتدخل الراوي ليكشف لنا أي نوع من الوعاظ والزهاد شيخنا هذا فيقول : " لا يكفيه قليل ولا كثير ، ولا يسلم من ظلمه خسيس ولا أثير " بل انه قد " تساهم في التراث وتزاحم في الاحتداث . . . يلمح الدرهم فيركب الابهم ، ويرى الدينار فيقتحم النار لا يبالي النار ولا يرد العار . . . " [٢] ورغم هذا التدليس فان هذا الشيخ يزعم العلم ويدعيه وهو لا يفهمه ولا يعيه في الحقيقة ، ولكن البطل لا يلومه في ذلك بل يرثى لحاله لان الوضع السياسي القائم وما صاحبه من ردود فعل نفسيه ، أحدث انقلابا في القيم يعبر عنه ذلك الشيخ - مبررا به أفعاله - فهو قد نزل ((هذا القطر غريبا ، فما دعوني لبيبا ، ولا أديبا حتى لذت بالدعاوى دعوى مني بالباطل عاوى . . . ولما رأيت الأمر كذلك تحليت في هذه الخطة الذميمة . . فلو أني وصلت

---

١) نفس المصدر : ٧٥ .
٢) المقامات : ورقة ٦٧

عراها وأجريت الامور مجراها ، وتعففت وتورعت وتسربلت بالقناعة وتدرعت لصنت ضياعي ولم انتجع ضياعي ، وعدت الى هزالي ولم يفد اعتزالي .. وقد يما تحريت فتمريت ، وتورعت فتجرعت ، وانزويت فانطويت ، وانقبضت فانتقضت وللأمور ظاهر وباطن .. " "١" .

فهذه الوقفة المقارنة بين حالين هي المحتوى السياسي مفرغا في اطار التحول الاجتماعي النازل بالمجتمع لمسببات اقتصادية ، لذلك لم يكن بدعا أن يرينا الفقيه توزيع عمله على ايام الاسبوع يقول : (... ويوم الاربعاء فقد أخلصته للدعاء ، وربما ختمت آخره بالسماع والمباشرة والجماع ، وحننت الى اليم والزير ، وتقت الى حلم وزير أصغي الى خرير الماء ، وأرفع طرفا الى السماء ، أستغفر الله عما أبحت من الفروج والدماء ..) "٢" وعلى هذا فلايستبد بنا العجب والاندهاش أن رأينا فقهاء ووعاظا وشيوخا يسلكون مسالك اللصوص وقطاع الطرق ، يحتالون باسم الدين والصلاح للسلب والنهب وتصور لنا المقامات اماما في أحد مساجد الأندلس قد " أخذ في ابتهال وانتحاب واعتراف واصحاب ، ثم عطف على صلاته وجهر بأم الكتاب ، وأتى بما شاء من خشوع واستعتاب ، فكل مال بصفوه اليه وانجذب ، واستحلى تلاوته واستعذب ، فما زال كذلك يطيل السجود والاكباب ويشغل الخواطر والالباب الى أن انفصل من سجوده وهرب ، وسرق " ما علقته يده وغرب " "٣"

والمقامات تستعين بالوازع الديني عند الناس في زجر المجتمع عن غيه وتحاول ان تنحو نحوا اصلاحيا فنرى البطل وقد لبس رداءا اسلاميا يعينه على التعرض لفساد الحكام والولاة والفقهاء ، وهذا النموذج ضرورة - ليمثل روح العصر - اذ بدا الوعاظ يطمحون الى أعلى مراتب

---

١) المصدر نفسه : ورقة " ٦٤ " .
٢) نفس المصدر والورقة .
٣) المصدر السابق : ورقة " ٣ " .

الدولة ، وبخاصة ان دولة الادباء قد أفل نجمها ، ولم تعد بلاطات الاندلس تعج بهم بالشكل الذى كان أيام الطوائف .

وبجانب طبقة هؤلاء المتكسبين باسم الدين نجد أن هناك طبقة أخرى من الفقهاء الصالحين الذين أخلصوا نياتهم لله ودعوا الى الاسلام بصدق ، وقد حفلت المقامات باظهارهم أيضا لكي يتم التعارض والمفارقة بين الصالح والطالح ، فهؤلاء حملوا مشاعل الهداية والصلاح ومضوا يتلمسون طريقهم وسط ذلك الظلام الضارب بجرانه على قلوب الناس ، ويمثلهم البطل بقوله : " أيها الناس أضرب لكم الامثال ولا أخاطب منكم الغثاء ولا الحثال ، الحكمة للمؤمن ضالة ، والموعظة على الهدى داله ، الموت لابد نازل ، والاجل مقارب ومنازل ... " "١" هذا الوعظ الصادق كان دائما يضرب على وتر الاضطراب السياسي وتشتت الأهواء وماحل بالناس من فرق وانقسام ففسدت الضمائر ، وعميت القلوب : " واعلموا ان تشتب الاهواء يرفع عنكم بركة الانواء ، وفيم التدابر والبغضاء ، وهلا الصفح والاغضاء تأمموا الأمم السوالف ، وتوقعوا المهالك والمتالف ، واذا استولى الشقاق والخلف فسيان الواحد والآلف ، وقديما ظهرت الاخلاف على مساويها ، ومهرت الالاف عزة مناويها ، فصلوا أسبابكم وعظموا أربابكم ...) "٢" . هذه المواعظ كانت ترمي الى شد أزر الناس وتقوية عزائمهم المزعزعة واتخذت لذلك سبيل الرجوع الى الماضي بكل مافيه من جلالة وعظمة ، والمستقبل بكل مبشراته وآماله ومابينهما شدة تزول باذن الله اذا تم الاتحاد والقوة والتآلف على الصبر ((أيها الناس انما هو ريث ، ومهل ، وعلّ ، ونهل ... الا ان بعد الشدة رخاء وعقب العاصف رجاء ، وعند الشدائد يمن الرب بالعوائد فاستشعروا الفرح واياكم واليأس والقنوط ، وفضل الله بعباده منطوط ، وان السعة لتداول الضيق وتعاقبه ...)) "٣" ومقامات السرقسطي تعني بالوعظ

---

١) المقامات : " ٧ "
٢) المصدر السابق : ورقة " ٩ "
٣) نفس المصدر : " ١١ "

سواء الصادق أو غير الصادق عناية شديدة بحيث لا تكاد تخلو منه مقامه وهذا ولا شك أتباع لسنن المقامات الشرقية وخاصة مقامات الحريرى التي نسج على منوالها السرقسطي واحتذاها في كل شيء ، بالاضافة الى سيادة علوم الشريعة وانتشار الفقه والوعظ والارشاد في عهد الدولة المرابطية والتي ألف السرقسطي مقاماته في فترتها ، كما ان انتشار الفساد جعل التذكير بالجنة والنار هو سبيل الوعاظ كقول بطل المقامة : " الى كم يسوقك الامل والرجاء ، ولا يشوقك المهل والارجاء ، والعمر قد انصلت انصلات السابق والشباب قد انفلت انفلات الآبق . . . في كل يوم من أهلك حبيب تودعه ، وقريب من الله في اللحد تودعه ، تهيل عليه التراب وتحثيه ، وتطيل الانتحاب وترثيه ، ثم تقبل على نعيمك ودنياك . . لا تفكر فيمن توسد التراب والصفيح ، تمهد اليباب والفيح . . . " "١"

ونلاحظ أن اسلوب الوعظ في المقامات سلس عذب ، يتجنب حوشى الكلام الذى يلائم الحالة التي عليها الناس ويكثر فيه من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ويفتتح دائما ب " يا أيها الناس " على طريقة القرآن الكريم في الخطاب كما ان يجعل المقتبس من القرآن الكريم في موضعه بحيث تحس بأنه جزء من حديث المقامة كما يلتزم السجع الكامسهل بالاضافة الى التزامه مالا يلزم اتباعا لطريقة ابي العلاء المعرى في لزوماته وتبين لنا المقامات أيضا حالة المجتمع الاقتصادية ، فهو قد انقسم الى طبقتين : طبقة ذوى السلطان واشياعهم الذين أرهقوا العامة بالجبايات والضرائب وطبقة العامة التي ساء حالها من فعل هؤلاء فتفشى بينها السرق والنهب والكدية ، مع عدم القدرة على رفع الشكاوى لأن القاضي والحاكم هو الخصم كالذى لا يجد حرجا في المجاهرة بالمعاصي من شرب وطرب ، ولذلك فهو يوزع أموال الدولة التي تجبى من كد الناس وعرقهم على النحو الآتي : " فأما بسملة الخراج فللشمع والسراج ، وأما ثمرة الجنان فلثمرة الدنان ، وأما أتاوة الخصوم والاعوان ، فلاخصاب المجلس والخوان ،

---

١) المقامات : ورقة "٤٥" .

وماكان من نشوة فلراحة ونشوة ، وأما اللهو والمجون فحد يثهما شجون ، وأما مثل الأحباس ،. واما فدية الحدود فميراث الابناء عن الجدود . ، " ١ "
ورغم هذا النظام الغارق في الظلم والجهالة ، قد يرتفع صوت واحد يدعو الى الحق ، ونجد هنا أو هناك صاحب خير وفضيلة يسعى لصالح الدولة وخير الناس ، فتقف عنده المقامة ، وتظهر لنا من خلال التعارض المصوّر أن الله تعالى ارجأ العذاب عن هذه الأمة لوجود هذا الولي صالح فيها ، " ٢ "

ثم نرى في مقامات السرقسطي تصويرا لأولئك الذين تشردوا من المجتمع الذى نزعت منه الرحمة وفقد فيه العدل واضطروا الى الكدية فنرى البطل يستكدى ويدعو .غيره الى سلوك سبيله للحصول على العيش فيقول :

فاحتل لعيشك واجهد   فما لعيش ثمن
فالعاجز النكس يوما   بكل ذل قمن " ٣ "

كما أن المقامات تجد لهم العذر في اكذائهم وحيلهم لأنهم ضحايا واقع سيء مسف لا سبيل الى مجافاته " وانها للغربة والنوى ، وان الارتياد والانتجاع ليثير الألام والاوجاع " .

وهم بالتالي لم يفعلوا هذا للوم فيهم أو خسة طباع وانما هو البؤس المصيرى الذى يفرض ذلك والا فحالهم كما يشير بطل المقامة :

عندى الوفاء وعندى البر واللطف
لو أن أبناء هذا الدهر قد عطفوا

---

١) المصدر السابق : ورقة " ٦٤ " .
٢) نفس المصدر : المقامة رقم " ١٣ " ورقة " ٣٤ " ومابعدها .
٣) نفس المصدر : ورقة " ١٧ "

وماجبلت على غدر ولا ملل
فحسبنا خلس في الدهر تختطف
عندى لشكر الايادى روضة أنف
يجني الثناء بها غضا ويقتطف "١"

ولعل ذم البطل المقامي للدنيا ، وهو أكثر مايكون تعلقا بشهواتها يدل على ماتعانيه نفسه الآسية من صراع نفسي عميق ، ولكي يبرر هذا التناقض في نفسه يعزوه لظلم الدهر وتغير الأيام ، ولذلك هو لا يأمن صروف الدهر بل هو ناقم عليه لشعوره بأنه قد خص دون الانام جميعا بعداء الأيام وظلمها له فيقول : "٢"

لا يخدعنك الزمان الخادع
فانه الشاحب والصادح
يارب سامي العز عالي الذرى
قد جدع الأنف له جادع

نبذلك يتخذ موضوع الزمان في المقامات بعدا فلسفيا اجتماعيا ، فتقلب الزمان هذا هو الذى أدى الى التقلب السياسي ففسدت الأهواء وضاعت القيم وعمت الحسرة في النفوس . هذا الزمان دائما " كاشر الناب ، زمر الذناب مقلص الظلال ، مذمم الخلال ، خدوع الاقبال .. لا يرق منه جنان ولا يرجى له حنان ... " "٣" فمفهوم الزمان في المقامة قسوة لا ترحم ينسحق تحت كلكله الناس ويصطلون حمما باضطرابات سياسية وحكام ظلمه وقضاة مرتشين .. فالبطل يقول عن خبرة :

أنا العليم بدهرى مغامر وخراب
وخلسة واغتيال وطعنة وضراب

---

١) المقامات اللزومية : " ٣٨ " .
٢) المصدر السابق : ورقة " ٧ "
٣) المقامات : ورقة " ٣٨ " .

فالبطل يشعر أنه مظلوم مستلب الشخصية ، لذلك نجده يتشفى بالآخرين بغير رحمة ، فيجري حيله وشروره حتى على أخلص خلصائه ومنهم راويته المسمى بالسائب بن تمام حيث يلتقي البطل أبو حبيب براويته هذا ويطلب منه أن يظهر لوثة من الجنون ، ثم يكسوه خلق الثياب ويأخذه الى حلقة القوم ويشرح لهم حاله وانه جن من جراء حبه الشديد لابنة عمه ، فيستدر عطف القوم عليه فيمطروه بالمال فيأخذه ويترك العاشق هذا في حالة اغماء عند القوم ويمضي الى البيت بسنجار ليجمع ما فيه من متاع ويهرب وقد جازت حيلته على القوم وعلى صاحبه المجنون السائب نفسه . "١"

داخل هذا الاطار حفلت المقامات بتصوير نفسيات الناس واخلاقهم تحت وقع التغير الاجتماعي النازل بهم والذى بدل أمنهم خوفا ، واستقرارهم ريبا وأمانهم تشككا .

ومن الأغراض الاجتماعية التي أبرزتها المقامات الأندلسية أيضا الفساد والتحلل الخلقي من دعارة وافراط في الشهوات على اختلافها وابرز مثال على ذلك مقامة لابن شرف القيرواني "٢" يحدثنا فيها عن

---

١) نفس المصدر : المقامة الحادية عشرة .

٢) ابن شرف : هو ابو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن شرف الجذامي القيرواني ، كاتب مترسل وشاعر رفيق ، وناقد بارع ولد بالقيروان ونبغ فيها نحو سنة ٣٩٠ عندما كانت زاهرة بالعلوم فروع المعقول والمنقول وأخذ عن مشايخها كأبي الحسن القابس ، وابي اسحاق الحصرى القيرواني ، ألحقه المعز بن باديس الصنهاجي أمير افريقية بديوانه وخاصته ثم رحل الى صقلية ومنها الى الاندلس ، وكان بينه وبين أبي علي الحسن بن رشيق (صاحب العمدة) مهاجاة ومنقضات بسبب المنافسة في خدمة ابن باديس ، وتوفي ابن شرف سنة (٤٦١ هـ) باشبيلية ، وله من الآثار كتاب أبكار الافكار وله مقامات نثرية نشرت باسم أعلام الكلام ، وسيأتي الحديث عنها . ويذكر الدكتور الطاهر احمد مكي في كتابه دراسات اندلسية ص ٢٤٨ أن ابن شرف كتب عشرين مقامة يعارض بها الحريري ولم يبلغنا منها غير ثلاث ، اثنتين في النقد الأدبي والثالثة في الهزل والمجون . ==

شيخ ضرير " وافر السبال ،قد عمه البياض بالكمال ، مطموس العينين ، مسترخي الحاجبين ، قد صلعت هامته وركعت قامته ، وقصرت مسافة خطاه ، وثقل جسمه على عصاه ... " ورغم هذا كله فان نفس هذا الشيخ النمرود يه تدعوه لعمل الفاحشة فيذهب يراود الفتي الذى استضافه واشفق عليه ويشرح له حاله وان عذره في ذلك أنه رجل " صرورة ،وشمّ ضرورة ، وقد طالت الغربة واضطرتني العزبة .... " "١"

ويكفي وجود مثل هذه المقامة في الادب الاندلسي تدليلا على ماوصلت اليه الحال من انهيار المثل والقيم الاخلاقية فلقد كان الغزل بالمذكر غرضا شعريا هاما وقد صورت المقامات السرقسطية أيضا هذه الظاهرة الغريبة والدخيلة على الخلق الاسلامي والعربي الاصيل ،كقول البطل : "٢" (" قذفتني الغربة الى بعض بلاد خراسان ،فتعلقت بها فتى من بني ساسان ،فما زال الدهر يصرم مني حبله ، ويصرف عني باله ، ويزدرى بهواى ويولع بسواى .. " كما تصور الدعارة والبيوت السرية " ... اذا انا بسرب من نساء يتمايلين بين مرط وكساء .. يكشفن عن الحسن المصون ... واذا باحداهن حسبتها قيمة عليهن قد اغدقت قناعا وأبدت امتناعا .. وأنا أتبع الأثر ، وتلك تتابع الالتفات وتشير اليّ أن قد فات مافات .. فسرت وراءها .. فقالت رب مرام عسير ، ومطلق في ثياب أسير ،قد أطلقته من اساره وعاينت من عسره بيساره فقرب مرام وسكن غرام .. واذا كنت أنا الرسول ، ضمنت لك السول واذا بذلت المصون ملكت الحصون واذا رشوت الحجّاب ، خرقت الحجاب .. " "٣" .

== أنظر : الخريدة : ق ٤ ج ٢ ، ص ١١٠ - ١١١ ، كرعلي ، رسائل البلغاء ص ٣٠٢ ، ابن دحيه ، المطرب : ٦٦ ، عبد الرحمن الانصارى : معالم الايمان في معرفة أهل القيروان : ٣٩/٣ ، تحقيق : حمد الاحمدى أبو النور ، محمد ماضور ، ط القاهرة ١٩٧٢م ، فوات الوفيات : ٢٠٤/٢

١) الذخيرة ق ٤ ،ج ١ ص ٢١٢ ..

٢) المقامات اللزومية : ورقة ٢٦ - ٢٧ ،

٣) نفس المصدر : ورقة "٢٢" .

ومن الاحوال الاجتماعية التي تصورها المقامات منتقدة ساخرة ، مانجده في المقامة الثانية عشرة حين يبتدع البطل حيلة جديدة يبتز فيها أموال الناس وذلك عندما يعرض ابنته للبيع على أنها جارية فاذا بيعت وقبض الثمن لم يسمح أمين البلد باخراجها لانها حرة لا يجرى البيع عليها . "١"

ولعل في هذا مايعكس مايرويه المؤرخون عن ضيق العيش وشظفه في تلك الآونة حتى حلت بالناس " سنة الجوع الأكبر " كما تبين المقامات ضروبا من الخداع والاتهامات الكاذبة التي تلفق للابرياء للنيل منهم مما يدل على فساد الثقة بين الناس وأصبحت المكاسب المادية هي الهم الوحيد المراد تحقيقه بأى طريقة كانت . "٢"

ويمكن القول أن مقامة الدب "٣" عند السرقسطي تعتبر من أوقع المقامات نقدا وهجاء لذلك المجتمع حيث تظهر لنا نوعين من الحياة متناقضين : حياة القصور والترف والجوارى ، وحياة البائسين الذين يكسبون قوت يومهم بالاحتيال والمكر . وفيها نرى الشيخ ابا حبيب بطل المقامة الذى هو من صنف البائسين يرقص دبا وسط جمع غفير من الناس ليكسب قوته من عطاياهم له جزاء مهارته .

ثم نراه في المقامة التاسعة والأربعين وقد أصبح عرافا وكاهنا وطبيبا لكل الادواء فهو يداوى فتى كان معه يظهر المرض وهو مائل الى شقه والزبد في فمه سائل ، فيرقيه بالتعاويذ ويخاطب مابه من جن قائلا : "٤"

" يامارد سهمك صارد ، يامريد ماذا تريد ، ما أطفاك ما أعضاك ، ما أبعدك عن الخير وأقصاك ، اخرج ياواغل ، فانك شاغل ، ابعد ياخاتل فانك قاتل . . " . ثم يعلن بعد ذلك عن صنعته هذه ومهارته

---

١) المقامات : ورقة " ١٢ "
٢) انظر المقامة " ١٤ " ورقة " ٣٤ " والمقامة " ٣٦ " ورقة " ٨٨ " .
٣) انظر ورقة " ٩٣ " .
٤) ورقة " ١١٦ " .

فيها بين الملأ قائلا : " أيها الناس عندى في هذا الشأن سراير ، وخبايا من الحكمة وضراير ، اين من لحقته آفة ؟ اين من برحت به علاقة أو شأفة ؟ أين من خامرته الاشواق والوساوس ؟ ولعبت به الاجراس والوساوس ؟ أين من سحره ساحر ، أو دمره دامر ؟ أين من لقفته عين أو رهقه دين ؟ عليّ الضمان ، وانا الزعيم ، وله النعيم . "

ثم تصور لنا المقامات طبقات من الطغام والاوباش الذين قهرتهم الظروف الاجتماعية والجأتهم الى نوع من الصعلكة والتشرد فظلوا يلازمون الحانات لا يفيقون من السكر ، وهذه الفئة هي رهط بطلنا المقامي ونصرائه لانه يشاركهم في وقوع الحيف والجور عليهم لذلك فهو يتخذ منهم حماة له في حيله ومكره ، فعندما طلبه أناس في احدى حيله وجده " في بعض الحانات يرقص حمارا وينفخ مزمارا وحوله من الناس أوباش وأوشاب " ، وقد أصابهم من قوسه بنبال ونشاب ، وقد استهواهم أمره واستفزهم زمره ، فمن مصفق مازج أو مصفق هازج ... " ولما حاول الناس النيل منه : " أشار الى اولئك الخساس ، قال هاكم يابني الاعساس فدفعونا عن حريمهم دفعا ، وأوسعونا لكزا وصفعا " "١" .

هذا الواقع المرير لا تزخرفه المقامات ولا توشيه بالفاظ وأسجاع مجردة ، وانما تصفع به المجتمع بكل قسوته ومرارته وحدته ، ولسان حال البطل يقول : " صرت لا أبصر وجها الا عابسا ولا أهصر غضا الا يابسا ولا أرى في الناس الا ذئبا خاتلا أو قرنا قاتلا ، يكلح ويكاشر ، ولا يؤامن ولا يعاشر .. " "٢" حتى دفع هذا الوضع الناس الى الاعتزال والوحدة فيعبر البطل عن ذلك بقوله : " حتى صار الليل آنس لي من النهار ، والخيرى أنفح من البهار ، محبة في الانفراد وطلبا للوحشة والشراد " "٣"

---

١) المقامات : ورقة "٤٧" .
٢) ورقة "٥٤" من نفس المصدر .
٣) المصدر السابق : ورقة "٢٥" .

بل هو يفضل "حياة الصحراء" مع الوحوش على الحياة مع هؤلاء الناس ، ويصبح " لا يأنس الا بعواء السرحان ونداء الشجان ، وتجاوب الأصداء ، وتناوب البيداء حتى كلفت بالسباع وألفت كرم ذلك الطباع " ، وما ذلك الا لانه وجد في حياة الصحراء تراحما ومودة أكثر مما وجد في مجتمعه الذى يعيش فيه ، فتلك الحيوانات " أقل اعتداء ، وأذل اعداء ، وألطف نكرا وأخف مكرا ، وأسلم لماما وأكرم ذماما . . . لا أضمروا حقدا ولا أظهروا نقلا . . . " "١"

ويستوقفنا أيضا في موضوعات المقامات ، داخل اطارها الاجتماعي والخلقي والفكرى هذه الدعوة للمساواة بين الناس ونبذ تلك التفرقة العنصرية والطبقية القائمة على الحسب والنسب والمكانة الاجتماعية .
فالبطل المقامي يدعو ويبشر بمستقبل خال من هذه المرتكزات الضيقة ، بل انه ينعي على العرب هذه العنجهية الجوفاء " ونحن معشر العرب نميز النبع من الغرب ، ونفاخر بالاحساب والأنساب ، همم أبيه وجاهلية غبيه ، لم يرد بها الاسلام والايمان ، ولا محتها الأيام والأزمان ،وكلنا الى عرق الثرى واشج وعلى متاع الحياة ناشج . . " "٢"

كما نلاحظ في المقامات أيضا ، النزعة الدينية القوية الكامنة في النفوس ، والتي لم تجد متنفسا لها في هذا الجو المضطرب الخانق الا بالتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وارسال القصائد والرسائل لقبره الشريف ، وأضحى هذا غرضا أدبيا هاما في تلك الفترة ، ولعل هذا العمل لا يخلو من مدلول سياسي هام في الالتجاء والاحتماء بآل البيت من نير الظلم والاضطهاد من قبل ولاة البربر .

وعندما يحل البطل بمصر الفاطمية نجده يمدح أهلها بنفحة شيعية وذلك بأنه من كرم الله عليهم ونعمه أن سعدوا " بها كرامة علوية وخلافة علوية ، آثركم بها ذو الجلال فحظيتم بالاجلال . . . " "٣" .

---

١) ورقة " ٤٢ "
٢) المصدر السابق : ورقة " ٣٢ "
٣) انظر المقامة عشرين : ورقة " ٥٠ " .

وعند ما يقف بين يدى الحاكم الفاطمي يستثر ذلك الموقف كوامن شجنه ودفين محبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وآل بيته فيقول :

يامن له المنزل العلي ومن أبوه الرضا علي
حسب الذى فاز أن تراه وهو لتلك العلي ولي
أنت لهذا الانام غيث وسميه دام والولي
وأنتم للهدى قوام وأنتم للورى حلي
اذا جلت هاشم علاها فما تميم وما بلي
عندى لآل الرسول حب كل شج دونه خلي

وهنا نرى الوالي وقد " راحت به أريحية هاشمية وهزته هزة فاطمية ... "١" .

ولا يخفى مافي هذه الاشارة من هجاء سياسي سافر ، فالبطل هنا يبرز وجها آخر للساسة في عصرة ، فأكثر المقامات التي تدور أحداثها داخل المدن الاندلسية تعرّض بالحكام ، وتسمهم بالظلم والجور والطغيان والفساد ، وكأنه يوحي مجال حكام البربر ويعتبرهم مغتصبين لبلاده ، لذلك عند ما يشير في هذه المقامة الى حاكم عربي يصفه بالكرم والطرب للشعر والمعرفة بالادب وكأنه يعرض رمزا بحكام بلاده الذين لاعلم لهم بذلك . "٢"

---

١) نفس المقامة ورقة " ٥ا " .
٢) انظر رسالة الشقندى في تفضيل الاندلس في النفح ٤ / ١٨٠ ، حيث يذكر أن يوسف بن تاشفين فهم من مدح الشعراء له " أنهم يريدون الخبز " .

الأغراض الأدبية للمقامات التقليدية :

لو لم يكن الغرض الأدبي هو الأصل في وضع المقامات فانه دون شك من أهم أغراضها . فالحياة العلمية أو الثقافية في عصرى الطوائف والمرابطين كانت منقسمة - على وجه التقريب - الى قسمين متباينين : قسم اهتم بعلوم العربية بفروعها من نحو ولغة وأدب وما اليه من الدراسات الاسلامية كالفقه والتفسير ونحوه ، والقسم الآخر اشتغل بعلوم الفلسفة والمنطق والفلك والرياضيات والطب وغيره ، وهناك من حاول الجمع ولكن على نطاق ضيق فظلا متميزين بارزين . "١"

واذا نظرنا الى السرقسطي كأشهر كاتب مقامي في هذا العصر نجده من علماء الدراسات الاسلامية العربية ، الخالصة ولم يعرف عنه الاشتغال بالفلسفة والمنطق أو الفلك وأشباه ذلك ، وتقول ترجمته في أول مخطوط مقاماته انه " ... كان لغويا أديبا شاعرا كاتبا معتمدا في الأداب فردا متقدما في ذلك في وقته " "٢" فهو في مقاماته يصدر عن معرفة عميقة بهذه العلوم مجتمعة ، وهناك عامل آخر على جانب من الأهمية نأخذه في الاعتبار ونحن نقف على الاغراض الأدبية في المقامة الاندلسية وهو أن أهم كتابها السرقسطي قد أنشأ مقاماته في الأصل محاكاة للحريرى فانه " عند وقوفه على ما أنشأه الرئيس أبو محمد الحريرى بالبصرة ، أتعب فيها خاطره ، وأسهر ناظره ، ولزم في نثرها مالا يلزم فجاءت على غاية من الجودة " "٣"

ومقامات الحريرى كانت دائرة معارف صغيرة في النحو واللغة والتاريخ وغيرها لكثرة مافيها من ذلك ، وهي قد جمعت من اللغة والامثال والاحاجي الشيء الكثير .. "٤" بل ان الحريرى في مقدمته

---

١) نحيل في هذا المجال الى كتب التراجم الاندلسية كالجذوة ، وفهرسة ابن خير وأزهار الرياض والقلائد . خشية الاطالة والانصراف عن صلب الرسالة .

٢) أنظر الورقة الأولى من مخطوط مامقاماته .

٣) كشف الظنون : ١٨٧٥/٢ .

٤) الزيات ، تاريخ الأدب العربي : ٢٦٠ ، ط بيروت .

ينص بأنه قد ضمن مقاماته كل تلك العلوم ، فالحريرى قد قصد - بوعي - أن تكون مقاماته ، منبرا للتعليم ، ومرآة تعكس للمجتمع مواطن الفساد فيه ، ليتجنبها ، وعلى هذا المجرى سلكت المقامة الاندلسية على يد السرقسطي ، وأهم الاغراض الادبية هي : النقد الادبي ، ونجد في هذه الفترة ثلاث مقامات تعالج هذا الموضوع وكتابها هم ابن شرف القيرواني ، وعبد الرحمن بن فتوح ، والسرقسطي ، مقامة ابن شرف : تحدث فيها عن عدد كبير من الشعراء ،بعبارات موجزة قصيرة ،لم تزد في بعض الشعراء عن بضع كلمات ، وهي ذات شقين كبيرين : الأول تحدث فيه البطل المقامي في المجلس عن الشعراء أنفسهم ، والثاني يتتبع ويحصي فيه سقطات الشعراء وعيوب اشعارهم .

وقد بنيت المقامة على ترتيب زمني حيث بدأت بشعراء العصر الجاهلي المشهورين مثل "١" " الضليل والقتيل ، ولبيد ، وعبيد ، والنوابغ والعشي ، والاسود بن يعفر ومن سواه من العمي ...." . ثم طائفة من العصر الاسلامي " كالفرزدق وجرير ، وجميل وكثير ، وابن جندل وابن مقبل ، وجرول والاخطل ...." .

وهكذا يستمر حتى الطبقة المتأخرة في الزمان المتقدمة في الاحسان كأبي فراس بن حمدان ، والمتنبي بن عبدان ، كما أن الجديد في مقامة ابن شرف انها تذكر شعراء مغاربة وتجعلهم اندادا لفحول المشرق " كابن عبد ربه القرطبي ، وابن هاني الاندلسي ، وعلي بن العباس الاياوى التونسي ، والقسطلي " "٢"

وقد كانت أحكامه على الشعراء في هذا المجلس الأول لم تتعدى تلك الكلمات الجوامع التي تصف الشاعر بالحلاوة والجزالة أو الرقة

---

١) هذا المجلس الأول من مقامة أعلام الكلام لابن شرف في الذخيرة ق ٤ ،ج ١ ، ص ١٩٧ - ٢١٢ . ت عباس .

٢) نفس المصدر : ص ١٩٨ .

والفلظة وما الى ذلك ،فيقول مثلا عن امرئ القيس واصفا اياه بالابتكار في الاستعارات والاشارات والضليل موءسس الأساس ،وبنيانه عليه الناس . كانوا يقولون : " أسيلة الخد " حتى قال : " اسيلة مجرى الدمع " وكانوا يقولون : تامة القامة ، وطويلة القامة وجيداء ، وتامة العنق " حتى قال " بعيدة مهوى القرط " وكانوا يقولون في الفرس السابق " يلحق الغزال والظليم وشبهه ، حتى قال " قيد الأوابد " ولم يكن قبله من فطن لهذه الاشارات والاستعارات غيره فامتثلوه بعده .. " .

ويقول عن عنتره العبسي : " مجيد في أشعاره ،ولا كمعلقته ، فقد انفرد بها انفراد سهيل ، وغبرّ في وجوه الخيل ، وجمع فيها بين الحلاوة والجزالة ، ورقة الغزل وغلظة البسالة ، وأطال واستطال ، وأمن السآمة والكلال " ، وهكذا يمضى حتى يصل الى أبي نواس فيقف عنده وقفة تختص بشيء من التفرد فقد رأى فيه انحرافا عن الشعر الرصين طلبا للسهولة والرقة في الغزل والمجون التي تلائم عوام الناس فيقول : " وأما أبو نواس ، فأول الناس في خرم القياس ، وذلك أنه ترك السيرة الأولى ، و نكب عن الطريقة المثلى ، وجعل الجد هزلا ، والصعب سهلا ... وصادف الافهام قد نكلت ، وأسباب العربية قد تخلخلت وانحلت ، والفصاحات الصحيحة قد سئمت وملت ، فمال الناس الى ماعرفوه ، وعلقت نفوسهم بما ألفوه فتهادوا شعره ، وأغلوا سعره ، وشغفوا بأسخفه ، وكلفوا بأضعفه ، وكان ساعده أقوى ، وسزاجه أضوى ، لكنه عرض الأنفق ، وأهدى الأوفق ، وخالف فشهر وعرف ، وأغرب فذكر واستطرف . والعوام تختار هذه الاعلاق وأسواقهم أوسع الاسواق ، فشعر أبي نواس ، نافق عند هذه الأجناس ، كاسد عند أنقد الناس .. "[١] ولعله من الطريف أن نسمع قول

---

١) نفس المصدر : ص ١٠٥ .

أبي الريان بطل المقامة - بعد أن أورد علينا عددا كبيرا من الشعراء - معتذرا " هذا ماعندي في المتقدمين والمتأخرين ، على احتقار المعاصر واستصغار المجاور ، فحاش لله من الاتصاف ، بقلة الانصاف ، للبعيد والقريب ، والعدو والحبيب . "

أما المجلس الثاني : فهو الذي يعنينا من نقد ابن شرف وبه نفحات نقدية تبدو على قدر كبير من الاصالة والعمق وأعمال الفكر مع الخيال والتذوق الشاعري ، وقد حاول أن يضع للنقد الأدبي مقاييس نقدية حاسمة قدر المستطاع ، ومن أهم هذه المقاييس : التروي الشديد قبل اصدار الحكم النقدي يقول : "١" " أول ماعليه تعتمد ، واياه تعتقد أن لا تستعجل باستحسان ولا باستقباح ، ولا باستبراد ولا باستملاح حتى تنعم النظر وتستخدم الفكر ، واعلم أن العجلة في كل شيء موطيء زلوق ومركب زهوق " .

وابن شرف بهذا يحاول أن ينفي عن نقده صفة التأثر بما ينقده من الشعر فينساق مع العاطفة ، اذ يؤكد أهمية التقويم المقنن في النقد وذلك " ان من الشعر مايملأ لفظه المسامع ويرد على السامع منه قعاقع ، فلا يرعك شماخة مبناه ، وانظر الى مافي سكناه من معناه " فاذا كان للناقد هذا الحظ من البصر الثاقب أمكنه أن يميز جيد الشعر من غثه ببساطة " فاذا كان في البيت ساكن فتلك المحاسن ، وان كان خاليا فأعدوه جسما باليا وكذلك اذا سمعت ألفاظا مستعملة وكلمات مبتذلة ، فلا تعجل باستضعافها ، حتى ترى مافي أضعافها " هذه الدعوة للتريث والتأني قبل اصدار الاحكام تقع من ابن شرف موقعا خاصا ، وتحدث عنده معادلة بين اللفظ والمعنى هذه القضية المشهورة عند النقاد منذ القديم في المشرق ، وهو يحاول أن يدلي فيها برأيه

---

(١) انظر المجلس الثاني في رسائل البلغاء لمحمد كرد علي بعنوان: " رسائل الانتقاد " ص ٣٢٥ - ٣٤٣ .

فيجد بينهما نوعا من التماذج في بناء العمل الأدبي ولكنه لا يخفى مناصرته للمعنى حيث يقول : " فكم من معنى عجيب في لفظ غريب، والمعاني هي الأرواح ، والالفاظ هي الاشباح ، فان حسنا فذلك الحظ الممدوح ، وان قبح أحدهما فلا يكن الروح " "١"

ونلاحظ أيضا نظرة ابن شرف المحايدة الواعية الى العمل الادبي في جوهر ابداعه ، بعيدا عن اطار الزمان والمكان لذلك يوصي الناقد أن يتحفظ من شيئين : " أحدهما أن يحملك اجلال القديم المذكور على العجلة باستحسان ماتستمع له ، والثاني أن يحملك اصفارك المعاصر المشهود على التهاون بما أنشدت له فان ذلك جور في الاحكام ، وظلم من الحكام ، حتى تمحص قولهما ، فحينئذ تحكم لهما أو عليهما . . . " "٢" ولا ينكر ابن شرف صعوبة هذا التجرد والمحايدة لما للناس من ولع بالقديم بقوله : " وهذا باب في اغتلاقه استصعاب ، وفي صرف العامة وبعض الخاصة عنه أتعاب

وبعد هذه المقدمة التي يطرح ابن شرف من خلالها مذهبه النقدى يمضي حاملا مبضع النقد ليشرّح ماشاء من الشعراء مطبقا عليهم نظريته السابقة فيبدأ برأس الشعراء أمرىء القيس الذى اتسعت الأقوال في فضله اتساعا لم يفز غيره بمثله . . ولكن هيهات من البشر الكمال ، فهو يقول في معلقته المشهورة :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت لك الويلات انك مرجلي

ويأخذ ابن شرف هذا البيت ويجرى حوله نقاشا دقيقا في كل جزئياته داخل اطار من النظرة الاخلاقية "٣" فما كان اغناه عن

---

١) لعله في هذا يستوحي ما أورده العسكرى في الصناعتين عن العتابي حين قال : " الالفاظ أجساد ، والمعاني أرواح . . " ص ١٦٧ ، تحقيق أبو الفضل ابراهيم والبجاوى .

٢) نلاحظ هنا أنه ناقض كلامه السابق بالنسبة للمعاصرين " هذا ماعندى في المتقدمين والمتأخرين ، على احتقار المعاصر واستصغار المجاور " .

٣) رسائل البلغاء : ٣٢٧ .

عن الاقرار بهذا ، وما أشد غفلته عما أدركه من الوصمة به ، وذلك ان فيه أعدادا كثيرة النقص والبخس ، منها دخوله متطفلا على من كره دخوله عليه ، ومنها قول عنيزة له " لك الويلات " ، وهي قولة لا تقال الا لخسيس ، ولا يقابل بها رئيس ، فان احتج محتج بأنها كانت أرأس منه ، قيل له : لم يكن ذلك لان الرئيسة لا تركب بعيرا يدرج أو يموت اذا ازداد عليه ركوب راكب ، بل هو بعير فقير حقير ، فان احتج بأنه صبر على القول من أجل أنها معشوقته ، قيل له وكيف يكون عاشقا من يقول لها :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع

فألهيتها عن ذى تمائم محول

وانما المعروف للعاشق الانفراد بمعشوقته ، واطراح سواها كالقيسين في ليلى ولبنى ، وغيلان بمية ، وجميل بثينة ، وسواهم كثير ، فلم يكن لها عاشقا ، بل كان فاسقا ، ثم اهجن هجنه عليه ، وأسخن سخنه لعينيه ، اقراره باتيان الحبلى والمرضع ، فأما الحبلى فقد جبل الله النفوس على الزهد في اتيانها ، والاعراض عن شأنها منها ان الحبل علة وأشبه العلل بالاستسقاء ... ولا يميل الى هذا من له نفس سوقى ، دع نفس ملوكي ... ثم لم يكفه ، ان يذكر الحبلى حتى افتخر بالمرضع ، وفيها من التلوث بأوضار رضيعها ، ومن اهتزالها واشتغالها عن احكام اغتسالها ، وقد أخبر أن ذا التمائم المحول متعلق بها ... وأخبر أنها ظئر ولدها لا ظئر له ولا مرضع سواها ، فدل بذلك على أنها حقيرة وقيرة ، ومثل هذه لا يصبو اليها من له همه ، وهذه الصفات كلها تستقذرها نفس الصعلوك والمملوك "

ثم يمضي ثالبا امرأ القيس كل مكرمة وفضيلة ، مستدلا بقول أخرى من معشوقاته :

فقالت لحاك الله انك فاضحي

أ ت ترى السما روالناس أحوالي

" فأخبرها هنا أنه هيّن القدر عند النساء ، وعند نفسه برضاه قولها " لحاك الله " فحصل على " لحاك الله " من هذه و " لك الويلات " من تلك فشهد على نفسه أنه مكروه مطرود ، غير مرغوب في مواصلته ولا محروص على معاشرته ولا مرضي بمشاكلته " . "١"

والذى يبدو أن ابن شرف قد بني حكمه هذا على القصص والأخبار التي تروى عن امرىء القيس بأنه كان مفركا لدى النساء محروما منهن ، وقد نص على ذلك بقوله "٢" : " وانما سهل عليه كل هذا حرصه على ماكان ممنوعا منه وذلك انه كان مبغضا الى النساء جدا ، مفروكا ممن ملك عصبتها لاسباب كثيرة ذكرت وكل من حرص على نيل شيء فمنع منه فعلا ادعاه قولا .. " . وبذلك فقد وقف ابن شرف من امرىء القيس على بعد نفسي هام (هذا على فرض صحة الاخبار التي تروى عن قصوره الجنسي في تهالكه على الشهوات في شعره وذلك انه يحاول تعويض هذا الحرمان بانفعالات نفسية جادة لتظهره فحلا تهيم به النساء - كما أن هذا الكبت العاطفي يتحول عنده الى عمل أدبي تظهر فيه نفسيته .

وهذه النظرة النفسية في تفسير العمل الأدبي نجدها قد اتخذت شكلا علميا مقننا على يد المدرسة النفسية في الأدب في النقد الحديث، وقد كنا نعد ابن شرف في نقده منصفا ومحايدا لو ابرز في نقده القيمة الجمالية الكلية التي أحدثها الكبت النفسي عند الشاعر ، ولم يمض معتسفا للصور والأخيلة في اطار اخلاقي ضيق ، ومثال هذه النظرة يمكن أن نجدها عند الشاعر مجنون ليلى ،قيس بن الملوح من خلال شعره نجده " قد استعاض عن حرمانه من ليلى بوصف مجالات الطبيعة وبخاصة جمال الظباء ، كقوله ناقلا مجال الجمال الفني من الظبية الى ليلى :

---

١) رسائل البلغاء : ٢٨٠٪ .
٢) غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، ٤٠٤ ،ط القاهرة .

أيا شبه ليلى لا تراعي فانني
لك اليوم من وحشية لصديق
وياشبه ليلى لو تلبثت ساعة
لعل فؤادى من جواه يفيق
تفر وقد أطلقتها من عقالها
فانت لليلى لو كلمت طليق
فعيناك عيناها وجيدك جيدها
ولكن عظم الساق منك دقيق "١"

ثم يؤكد ابن شرف هذه النظرية عند ما يقف على الشاعر سحيم عبد بني الحسحاس "٢" وهو ((أسيود في شمله ، دنسة قمله ، لا يؤاكله الفرثان ، ولا يضاليه الصرد العريان ومع ذلك يقول :

وأقبلن من أقصى البيوت يعدنني
نواهد لا يعرفن خلقا سوائيا
يعدن مريضا هنّ هيّجن مابه
الا انما بعض العوائد داعيا
الى أن يقول : توسدني كفا وتحنو بمعصم
عليّ وترمي رجلها من ورائيا

---

١) غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، ٤٠٤ ، ط القاهرة .
٢) هو سحيم عبد بني الحسحاس بن هند ، شاعر مخضرم ، من ال الطبقة الاولى قتل نحو ٤٠ هـ ، كان عبدا نوبيا اعجمي الأصل اشتراه بنو الحسحاس (وهم بطن من أسد) ، كان رقيق الشعر فصيحه ، عاش الى أواخر خلافة عثمان ، وقتله مواليه وأحرقوه لتشبيبه بنسائهم . انظر اخبار في : سمط اللآلئ : ٢/٧٢١ ، طبقات ابن سلام : ١/١٥٢ ، أنساب العرب ، لابن حزم ص ١٩٤ ت هارون ١٩٦٢م .

وانطلاقا من نظرية ابن شرف " ان الممنوع من الشيء حريص عليه مدع فيه " "١" لم يكن مستغربا أن يعتبر قول سحيم أضغاث أحلام ، وكيف لا تكون كذلك " وتعلم أن الله لو أخلى الارض فلم يبق رجلا في الطول ولا في العرض ، لم يكن هذا الزنمة الزلمة عند ادراك السودان الا كبعرة بعير في قعر عير " ولكنه الحرمان والكبت النفسي والاحلام والتخيلات (وكل من حرص على نيل شيء فمنع منه فعلا ادعاه قولا " "٢" ثم يعرض علينا ابن شرف بعدا معارضا ومخالفا ومرتكزة نفسي أيضا فيقول : " والمصدّ بما يهواه ، كاتم له مستغن ببلوغ مناه" ويضرب مثالا لذلك بالشاعر المرقش الأكبر "٣" وقد " كان من أجمل الرجال ، وكانت للنساء فيه رغبة ، وشدة محبة ، وكان كثير الاجتماع بهن ، والوصول اليهن ، وله في ذلك أخبار مروية ، ولم يكن في اشعاره صفة شيء من ذلك فحسبك بذلك صحة على ماقلناه " والواقع ان هذه الوقفات النفسية هي أهم مافي مقامة ابن شرف من النقد ، وهي دون شك مقامة ذات قيمة أدبية كبيرة على الأقل تقدمها لزمانها ومجاوزتها النظرة السطحية الى العمق في التفكير والاستقصاء والتحليل ، ولكن يؤخذ عليها النظرة الضيقة المنحصرة في الجانب الأخلاقي ، في نقد الشعراء دون النظر الى الفروق الاجتماعية والفردية والبيئية ، كما لا يخفى علينا مسلك ابن شرف القائم على حب المخالفة لعن سبقه من النقاد ، وقد طبق هذا المسلك في نقده للشاعر زهير بن أبي سلمى- مع أنه يعده من فضلاء الشعراء الذين تعد سقطاتهم .. فيعيب عليه قوله :

---

١) رسائل البلغاء : ٣٢٩ .

٢) نفس المرجع : ٣٢٨ .

٣) المرقش الأكبر : هو عمرو بن سعد بن مالك ينتهي نسبه الى بكر ابن وائل ، شاعر جاهلي مشهور سمي بذلك لقوله :

الدار قفر والرسوم كما   رقش في ظهر الاديم قلم

انظر المفضليات : ٤٥٧ ، تحقيق يعقوب لايل ، بيروت ١٩٢٠ ، الاغاني ٦/١٢٠-١٢١ ط بيروت .

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب

تمته ومن تخطيء يعمر فيهرم

فيقول : " وقد غلط في وصفها بخبط العشواء . . . انما يصح قوله لو كان بعض الناس يموت وبعضهم ينجو وقد علم هو وعلم العالم ، حتى أن البهائم ، أن سهام المنايا لا تخطيء شيئا من الحيوان حتى يعمها رشقها ، فكيف يوصف بخبط العشواء رام لا يقصد غرضا من الحيوان الا أقصده حتى يستكمل رمياته . وانما أدخل الوهم على زهير موت قوم عبطه وموت قوم هرما ، وظنوا طول العمر انما سببه اخطاء المنيه ، وسبب قصره اصابتها وهيهات الصواب من ظنه الم يوءخر الهرم الا أنها قصدته فحين قصدته أصابته ، ولو أن الرماة تهتدى كاهتدائها لملأت أيديها بأقصى رجائها " "١" وفي تقديرى أن الذى دفع ابن شرف الى هذا الاستقصاء هو سعيه وراء المعنى الاولي المجرد دون النظر الى الجمال الفني في الصياغة الشعرية في مجال الحكم ، بالاضافة الى ان ابن شرف كان بذلك يتحدى جمهرة النقاد في عصره الذين يعدون هذا البيت وامثاله من محامد زهير . ويتابع ابن شرف نقده لأبيات زهير بنفس الطريقة فيقف عند قول زهير في معلقته :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه

يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

فيأخذ في تفنيد هذا القول ، واثبات بطلانه تفنيد عالم يريد أن يدفع حجة خصمه لا نقد أديب لشاعر فيقول : " وقد تجاوز هذا الحق الباطل ، وبني قولا ينقضه جريان العادة ، وشهادة المشاهدة ، وذلك ان الظلم وعرة مراكبه ، مذمومة عواقبه ، في جاهليته واسلامنا ، فحرض في شعره عليه ، وان كان انما أشار في شعره الى ان الظالم يرهب فلا يظلم ، فهذا قياس ينفسد ، وأصل ليس يطرد ، ولكن يرهبه من هو أضعف منه ، وربما انتقم منه بالحيلة والمكيدة ، وقد يظلم الظالم من

---

١) رسائل البلغاء : ٣٣٢ .

يغلبه فيكون ذلك سبب هلاكه مع قباحة السّمة بالظلم والمثل انما يضرب بما لا ينضرم ، وقد كانت له عمندوحة واتساع في أن يقول : " يهرم ومن لا يظلم الناس يظلم " فهذا أصح وأسلم من من لا يظلم ويظلم " "١" .

ثم يذكر أبياتا أخرى منها :

تراه اذا ماجئته متهللا

كأنك تعطيه الذى أنت سائله

فأنكر هذا المدح على زهير اذ كيف يقال لانسان عظيم القدر كثير الفخر بأنه يتهلل ويسر بمن يدفع شيئا من عرض الدنيا اليه فان هذا يعتبر من سقوط الهمة وصغر النفس ، والفضلاء يفخرون بضد هذا كقول بعضهم :

ولست بمفراح اذا الدهر سرني

ولا جزع من صرفه المتقلب

ثم يبين أن زهيرا ومن استحسن هذا البيت لم يكن استحسانهم الا نتيجة لما يكن في نفوسهم من الطمع وحب العطايا " وانما غرزهيرا وغر المستحسن بيته هذا ماجبلوا عليه من - حب العطاء ، وماجرت به عاداتهم من الرغبة في الهبات والاستجداء ، وليس كل الهمم تستحسن ذلك ولا كل الطباع تسلك هذه المسالك " "٢" ومنها قول زهير :

على مكثريهم حق من يعتريهم

وعند المقلين السماحة والبذل

ويعلق عليه تعليقا طويلا ويشير الى أن زهيرا هنا أراد أن يمدح فذم - مع العلم " أن اكثر الناس على استحسان ماقال ، بل أظن كلهم على ذلك " "٣" وهنا تظهر شخصية ابن شرف المشفوفة

---

١) رسائل البلغاء : ٣٣٣ .
٢) نفس المرجع والصفحة .
٣) نفس المرجع ٣٣٤ .

بالمخالفة والتفرد بالرأى فيقول : " فأول ماذمهم به اخباره أن فيهم مكثرين ومقلين ، فلو كان مكثروهم كرماء لبذلوا لمقليهم الأموال حتى يستووا في الحال ، ويشبهوا في الكرم والحال الذين قال فيهم حسان :

الملحقين فقيرهم بغنيهم والمشفقين على اليتيم المرمل "

كما يشير الى أن هؤلاء المكثرين قد ضيعوا القريب ورعوا حق ا الغريب ، وصلة الرحم أولى مابدئ به ومن مكارم العرب حميتها لذوى أنسابها ، وذبها عن أحسابها ، والأقرب فالأقرب ، ومافضل عن ذلك فللأبعد .

وقد اكتفى ابن شرف بهذين الشاعرين أمرئ القيس وزهير عن غيرهما ، يقول : " وفيما اطلعتك عليه من شعر هذين الفحلين ، والمتقدمين القديمين ، مايغني عن التفتيش على سقطات سواهما ، فقس على مالم تره بما ترى ، وأعلم أن كل الصيد في جوف الفرا . "

وتختتم مقامة ابن شرف حين يأخذ البطل أبو الريان عيوب الشعر، ولم يأت بجديد وانما كرر واعاد ماذكره كثير من النقاد قبله ، مثل اللحن الذى لا تسعه فسحة العربية ، وخشونة حروف الكلمة وتعقيد الكلام في الشعر ، وتقديم أخره على أوله ، وكسر الوزن ، ومجاورة الكلمة لما لا يناسبها ولا يقاربها ، ثم الافتتاحات المستثقلة والمتشائم بها ، وقلق القافية ، وجفاء النسيب ، والسرقة بكل أنواعها في الالفاظ والمعاني ، أما الأقواء والايطاء والسناد والاكفاء ، وصرف مالا يتصرف فتستعمل في الشعر الا أن السالم من جميع ذلك أجمل وأفضل ، ويورد مستدلا على كل ماذكر أمثلة مشهورة كثر ترداد ها في كتب الأدب من قبله .

مقامة عبد الرحمن بن فتوح "١" :

وهي مقامة قصيرة لا تتجاوز الصفحة أو الصفحتين ، ولعل صاحب الذخيرة قد بترها فجاءت على صورة لا تشفي غليلا ، ولكن الجديد فيها رغم ذلك اختصاصها بذكر شعراء الأندلس وحدهم كما أنها حوت تحديدا للزمان والمكان ، حيث يقول "٢" : " كنت ليلة في رمضان أطوف بالمسجد الجامع بالمرية سنة ثلاثين .. " أي ثلاثين وأربعمائة ثم يحدث التعارف بين ابن فتوح وبطل مقامته " ... واذا فتى حسن النظر ،فسلّم عليّ سلاما ارتاحت له نفسي ، وأنشرح له صدري ، فردت عليه رد من توسم منه سمة الفهم .. " .

والملاحظ على بطل هذه المقامة انه لا يحمل اسم شخصية خيالية بعينها كما هي العادة عند كتاب المقامات في تسمية أبطال مقاماتهم ولكنه فتى وارى الزناد أعجبه ترديد ابن فتوح لبعض الأبيات من الشعر فطلب اعادتها . فيعيدها له ثم تتوثق العلاقات بينهما ويخبره الكاتب بحاله ومابه من الوجد من جراء صد محبوبه عنه وهجره له ثم يترك البطل صاحبه بعد أن غرس في كبده ثمرة وده .

---

١) هو أبو المطرف عبد الرحمن بن فتوح كان يعرف بابن صاحب الاسفيريا ، من مشاهير الادباء ، وله شعر كثير الا أن احسانه نزر يسير ،وحدث عن نفسه انه صحب ابن برد الأصغر ، وجاذبه أذيال المذاكرة وراكضه افراس المحاضرة حتى وقفه ـ بزعمه ـ على البديع والبيان على حقيقتهما ، ومن تآليفه في الأدب " الاغراب في رقائق الآداب " ورفعه الى المأمون بن ذى النون و " الاشارة الى معرفة الرجال والعاره " وكتاب " بستان " الملوك " رفعه الى ابن جهور أيام امارته بقرطبة . وقال ابن بسام : وابن فتوح هذا كثير الاهتدام لا شعار سواه ، قبيح الاخذ في كل ما انتحاه وشعره كثير البرد وبينه وبين ابن برد من مسافة البعد مابين القطب الثابت والقصب النابت . الذخيرة : ق ٢ ،ج ١ ، ص ٢٧٣ .

٢) المقامة أو ماوصلنا منها في الذخيرة : ق ٢ ، ج ١ ص ٢٨٦ - ٢٨٨ .

ثم يلتقيان مرة أخرى في يوم " قد بكى ماء غيمه ، ونبض عرق برقه ، وخفق قلب رعده ، واغرورقت مقلة أفقه " وهنا تسفر المقامة عن هدفها عندما يسأل البطل صاحبه : " كيف ذكرك لرجال مصرك ووقوفك على شعراء عصرك قلت خير ذكر .. " فيمضيان بين سؤال وجواب ليذكرا لنا أربعة شعراء أندلسيين مع مراعاة تسليط الضوء على أشهر ماعند الشاعر من مقومات شعرية . " فقال : من أعذبهم لفظا وأرجحهم وزنا ؟ قلت : الرقيق حاشية الظرف الانيق ديباجة اللطف أبو حفص بن برد " هذا ماكان من أمر الالفاظ والاوزان ، ثم تدخل ميدانا آخر" فمن اقواهم استعارات وأصحهم تشبيهات ؟ قلت : البحر العجاج والسراج الوهاج ، أبو عامر بن شهيد " وهذا ماكان من أمر الأخيلة والصور ، وترينا أيضا بعدا ثالثا للمجال الشعرى في تلك الفترة ، " قال فمن أذكرهم للأشعار وأنظمهم للأخبار ؟ قلت : الحلو الظريف ، البارع اللطيف ، ابو الوليد بن زيدون " وهذا ماكان من أمر الثقافة العامة الواسعة للاديب أو الشاعر وتتمثل في حفظ القصص القديمة والقدرة على الاقتباس والتضمين وحل الشعر ومأثور القول ، أما الدعامة الرابعة لمملكة الشعر فيسأل عنها قائلا : " فمن أكلفهم بالبديع واشغفهم بالتقسيم والتتبيع ؟ قلت الراتع في روضة الحسب المستطيل بمرجة الأدب أبو بكر بن ابراهيم الطبني " وهذا هو اسلوب التصنيع والتأنق في الشعر .

والمقامة من الناحية النقدية تقل عن مقامة ابن شرف الآنفة الذكر في محتواها النقدى وتنبع أهميتها من اعطائها صورة لمقومات النقد الأدبي في تلك الحقبة ، واهتمامات عدد كبير من نقاد الشعر بالنقد الشكلي أو اللفظي القائم على وقع الألفاظ واستقامة الوزن وظرافة الاستعارة وغرابة التشبيه مع حصيلة من الاقتباس والتضمين داخل اطار من الزخرف البديعي كالجناس والمقابلة والتقسيم ومايجرى مجراه ، فهو نقد يعني بالصياغة دون اهتمام كبير بالمحتوى الفكرى أو النفسي أو العقلي ، ومن ثم نجده قد عصر الشعر في تفضيل قصائد منمقة مزركشة تلائم معايير النقاد آنذاك .

مقامات السرقسطي :

سارت مقامات السرقسطي النقدية على النهج الذى سلكه ابن شرف في نقده من ناحية الشكل . وقصرت دونها بعدم ذكر شعراء الاندلس ، كما أن السرقسطي لم يقف طويلا يتتبع ويحلل عيوب الشعر والشعراء كما فعل ابن شرف ، أما الاثر النفسي وصداه في الشعر ، فلم يعرف عنه شيئا ،وقد انحصر اغلب نقده في ابراز أشهر ماعرف به الشاعر ومن حيث الاسلوب وما قيل في شعره على ألسنة النقاد السابقين ، كل هذا بعبارات عامة لا تعطي احكاما دقيقة ، كقوله مثلا عن الفرزدق "١" " فالفرزدق ينحت من صخر وينطق عن فخر أما جرير فسابق درير ، أحزن صاحبه فأنهل ، وأعجل فأمهل . . . يغرف من بحر وينطق عن سحر ، ويبارى برقته النسيم ، ويبرز من قوله الرايق والوسيم " .

ومما يسترعي الانتباه في نقد السرقسطي اهتمامه بشعراء الغزل ، والعذريين منهم بوجه خاص فنجده يطيل وقفته عند جميل بثينة " جميل ماجميل ، زعيم أو حميل ، يخشن ويرق ، ويجل ويدق ، وجه من الاحسان وسيم ، وقول يجفو لرقته النسيم ،اذا هفا به الحب وجمح ، وطما له الشوق وطمح ، فهبة السيف الخشيب ، وسورة الراح المشيب، ودولة الشباب على المشيب ، دل العراق ، وظرف الحجاز ، وصبابة العشاق ، وجزالة الرجاز . " "٢"

ويصف كثير بقوله "٣" : " ذو الصبابة والدمعة ، والاشادة والسمعة ، حسبك من عارضة نسيب ، وركن مديح ، وصاحب معاريف من القول ومناديح ، تهفو به الجوانح والضلوع فينطق الوجد والولوع . . ملكت عزة زمامه ، وما حفظت ذمامه ، فرجا منها ظل غمامه ، وما اقتفى منها قطاة ولا حمامه ، كثير قلل ، وأبي ذلل ، وقديما صفر ،

---

١) مقامات السرقسطي : ورقة " ٧١ - ٧٢ " .
٢) نفس المصدر : ورقة " ٧٣ " .
٣) نفس المصدر : والورقة .

للتعظيم كبير ، واستجهل على العلم خبير ، ما أمتعه للأديب ، وأغناه عن كل خصيب أو جديب ".

وعن مجنون ليلى يقول "١" : " ذو الخيال والجنون ، والضروب والفنون ، جن به الحب والاحسان ، فعذب منه القلب واللسان خلعت عليه الصبابة أثوابها ، وفتحت الاصابة له أبوابها ، فهو المثل السائر في الصبابة والوجد ، والخيال السارى في التهايم والنجد ، ويلاه ويلاه اذا صرح عن ليلاه ، وكنى عنها بأم مالك ، وتهالك مع الهوالك ... ".

أما قيس بن ذريح صاحب لبنى فهو "٢" " الوجد الصريح ، والقلب الجريح ، والجفن القريح ، لفظ جزل ، وجد لا هزل وقت معانيه وألفاظه ، وتظاهر صونه للحب وحفاظه ، وبعده الحب تارة وأدناه ، شاهد قاطع ، ونير ساطع ، ضعيف تعرّم وعميد تبرم ، فارق الملا فندم ، لما عدم من هواه ماعدم ، وأدعى ان لدينه ودنياه بطون وأظهر ، ومن دون صبره أو سلوه عصور وأدهر ".

والملاحظ اننا نحس في وصفه للعذريين نوعا من المشاركة الوجدانية لهم بالتلطف بهم ووصف عواطفهم وحرمانهم ولعل هذا الاعجاب بهم هو الذى دفعه لادارة كثير من مقاماته على الحب العذرى العفيف وعقدته الحرمان .

ولعل هذا الاعجاب أيضا هو الذى دعاه الى الغض من شأن عمر بن أبي ربيعة زعيم الغزل الحسي حيث قال عنه : "٣" " عمر ماعمر حديث سمر ، ووصاف هجات وعمر ، تشاغل بسهيل وثرياه وربابه ، ورياه فقصر عن مدى الفحول ، ونام عن الاوتار والذحول ، فهو على حياله يعثر في اذياله ، ويتعلل بطيفه وخياله ، ويتمتع بطلحه وسياله ،

---

١) نفس المصدر : ورقة (٧٣ - ٧٤ ".
٢) المصدر السابق ونفس الورقة .
٣) مقامات السرقسطي : ورقة " ٧٢ " .

استبد به الغزل ، ولم يكون لقوله ريع ، ولا نزل سوى غمزة طرف وهزة ظرف ، واختلاس عيون ، واقتضاء ديون .. فالاحسان يأخذه ويدعه ، والهوى يجمح به تارة ويردعه " والواقع أن الناقد المحايد يعلم أن عمر لا يقل في شاعريته عن جميل وكثير والقيسين وغيرهم ان لم يفقهم ولكنها عين الرضا عن اولئك يصدر السرقسطي عن منظورها ولعل من الأمور النقدية الهامة في المقامة حملة الكاتب على الشعراء المحدثين ، بل واضرابه في البداية عن الحديث عنهم ، فيقول البطل أبو حبيب لمسائله السائب بن تمام عندما سأله عن بشار : " ... تخلط النبع بالغرب ، وتذكر العجم بالعرب ، دعني من المحول ولا تسألني الا عن الفحول " "١" ولعل السرقسطي في هذا كان يقلد قدماء النقاد الذين كانوا يتحرجون من رواية شعر المحدثين والمولدين ولو كان حسنا لعلة الحداثة فقط ، ولكن السرقسطي عاد وتسامح في ذكر المولدين فبدأهم ببشار الذى قال عنه "٢" " حرم فصاحة الأعراب ، ولم يفطر على الاعراب .. " وصريع الغواني " ذلك الفارس المعلم ، اول من حبّر ونمنم ، وعلا ذروة الابداع وتسنم ، خف الى الصبابة وأسرع حتى صرعه ماصرع .. " وهكذا يمضي معهم فيذكر أبا نواس ثم الطائيين حتى يصل الى مهيار الديلمي ولا يتجاوزه الى مابعده ليذكر أهل عصره، وكأنه لم ير فيهم من يستحق الذكر فقد طلب منه راويته السائب ان يذكر أهل العصر " فقلت لعلك ان توليني صبرا ، وتوسعني من أهل العصر خبرا وخيرا ، فقال لي : ياسائب خذ العفو ولا تكدر الصفو " "٣"

والملاحظ على نقد السرقسطي أنه لا يأتي بمفاهيم جديدة أو احكاما نقدية مبتكرة أو عميقة فهو قد اتكأ على سابقيه من النقاد فجاء بتلك العبارات المشهورة التي قالوها في حق الشعراء وزخرفها داخل اطار من السجع الملتزم .

---

١) نفس المصدر : ورقة " ٤ " .
٢) نفس المصدر السابق والورقة .
٣) المصدر السابق : ورقة " ٧٦ " .

وفي المقامة الاخيرة نجد السرقسطي يعقد مقارنة بين النظم والنثر فلا يأتي بجديد أيضا وانما يصف كلا من النوعين الأدبيين بأوصاف عامة لا تمس الجوهر كقوله عن الشعر : " فالشعر أصعب مرتقى ، وأعذب منتقى ، وأبدع لفظا ، وأسرع حفظا ، وأوسع مجازا وأنصع انجازا ، أقصر معاني ،وأنجد مباني ، وأورى زندا ، وأزكى رندا ، وأجرى على اللسان ،وأحرى بالاحسان ، وأبعث للطرب ، وأذهب للكرب.. وحسبك انه في العرب والعجم موجود ، وان كانت العرب قد استحقته بكرم ألفاظها وقيامها عليه وحفظها ، وقد حكم الاكابر والاعاظم أنه ماعجز عن النثر ناظم ، وكم عجز عن النظم ناثر " "١"

" أما النثر فعنان يرسل وبيان ينسل ، وطريق يسلك وزمام يملك ، وحوض مورود ، وثوب مهرود ، وحمى مستباح ، واعتناق واصطباح ، تلاحق فيه البطيء والسابق .. " .

ثم يحاول أن يجد نوعا من المعادلة والمصالحة بين الشعر والنثر ، " فالشعر فحل عقيم ، وسفر مقيم ومبغض مردود ، ومعذر مجدود ، وعلقته النفوس علاقة ، وجعلته لآمالها سببا وعلاقة ، وان شابوه كذبا ومينا ، فقد أغضوا عليه عينا ، وانما حمده أوفر من ذمه ، وشهده الذ من سمه ، فمصرفه في الرذائل مرذول ، وثانيه عن القصد ملوم معذول أما النثر فانثى ولود وزند لا كاب ولا صلود ، عين شره وأم بره ، له موضع ومكانه ، وعزة واستكانة ،يحلو لي ويمر ، يلج في كل ناد ، ويقدح بكل زناد ، باد حاضر ، وذابل ناضر ، هاجر واصل ، وناب فاصل " "٢"

ولا نخرج بطائل من هذا البهرج اللفظي غير اننا يمكن أن نلحظ من طرف خفي تفضيل السرقسطي للنثر على الشعر من

---

١) المقامات اللزومية : ورقة " ١٢٠ " .
٢) نفس المصدر والورقة .

قوله "١" : " ... والدر منظوما أو منثورا ، والحكم متروكا أو مأثورا ، وما يضر الدر ان لم تنظمه النواظم ، وقد فضله الاكابر والاعاظم ، فلا تفضل قائلا على قائل الا بفضل فاضل وطول طايل "..

وبعد هذا العرض يمكن أن نقول أن الشكل المقامي قد لا يكون مادة أدبية مناسبة للنقد الأدبي وذلك يرجع الى طبيعة المقامة كجنس أدبي ، فهي مقيدة باطار الصنعة اللفظية والاسلوب المسجوع كما انها تتميز بالايجاز والتركيز بالاضافة الى المحافظة على العنصر الروائي المشوق .

اسلوب السرقسطي في مقاماته :

لقد سلك السرقسطي اسلوبا أظهر فيه مقدرته على الافتنان في الصياغة والبلاغة ، واستعمال أنواع البديع كالجناس والطباق ثم استعمال الحوار القصير ، وهو في كل هذا يقلد الحريرى الذى كان بدوره يقلد بديع الزمان الهمذاني ، وأود هنا أن أقف عند جزئيات الاسلوب بايجاز .

فمن حيث اللفظ :

السرقسطي أديب شاعر وناثر ، أتته اللغة طبعا وسليقه ، لذلك تسنى له أن يأتي بالمعنى البليغ في صورة رائعة ، وقد ساعده احساسه الشعرى على تمييز الالفاظ الرنانة ذات الايقاع الموسيقي ثم هو نحوى ولغوى خبير بأسرار اللغة وعبقريتها ، فينتقي الالفاظ المناسبة للوضع المناسب ، فعندما يقف البطل يحكي طرقا من مأساته - مثلا - وكيف " سلب وطنه وابتز عطفه " نحسن بالتأثير القوى في

---

(١) المصدر نفسه : ورقة "١٢١" .

استعمال لفظي سلب ، وابتز لما فيها من معنى القهر والتسلط ، وهنا تسمو العبارة لتحدث الايقاع النفسي عند السامع ، وكل مقاماته تقريبا نجد فيها هذا الاحساس بفعالية اللغة من خلال الالفاظ . كما اعتمد في اسلوبه المقامي على السجع الملتزم لزوم مالا يلزم (اى التزام حر في روىّ أو أكثر) فيورد سجعه فقرا فقرا لها جرس وايقاع خاص وهي أميل الى القصر منها الى الطول ، وهو في هذا الاسلوب يحتذى اساليب المقامة الشرقية ، وخاصة عند الحريرى والذى يدين للمعرى بالشيء الكثير ، وقد ألزم نفسه شططا في تسع مقامات هي : الثانية والثلاثون والتي لزم في سجعها الهمزة ، والثالثة والثلاثون ولزم فيها الباء ، وفي الرابعة والثلاثين التزم الجيم ، وفي الخامسة والثلاثين التزم الدال ، وفي السادسة والثلاثين التزم النون ، ثم بنى المقامتين السابعة والثلاثين والثامنة والثلاثين على نسق الف باء ، والتاسعة والثلاثين والاربعين على نسق أبجد . "١" ، وهناك مقامات بني السجع فيها على نسق خاص كالمثلثة وهي السادسة عشرة ، فقد بناها على ثلاث سجعات ، والسابعة عشرة وسماها المرصعة لتقابل عباراتها والثامنة عشرة المدبجة لتقابل كل عبارتين منها في ثلاث سجعات ، وهذه المقامات هي أشد مقاماته تصنعا وتكلفا وفي ماعداها من المقامات فان السجع سهل ليس فيه تكلف وتعسف يحس به القارى ، وقد خلت مقامات السرقسطي من كثير من الاستعراض اللغوى والالغاز والاحاجي ... التي كانت عند الحريرى في مقاماته ورسائله .

الوصف في المقامات :

وهو من الفنون المقصودة في المقامات ويتراوح الاسلوب فيه حسب الحال من موضع الى موضع ، والسرقسطي يفتن في اسلوبه الوصفي كثيرا ، ويعني به عناية خاصة ، ولا تخلو مقامة له من وصف قل أو كثر ، فقد وصف الرجال النساء والخمر والطبيعة والاماكن ومجالس

---

(١) المقامات اللزومية : ورقة " ٧٩ - ٩٣ "

الأدب والسمر والغناء ، وأندية اللهو والمجون والحانات ، والفرس والدينار ، بل وعواطف الناس ، من حب وكره وحقد وغيرها أما الدهر والدنيا فقد استحوذا على جل وصفه .

ومن خلال الوصف يظهر الكاتب تلك المقامي براعته الانشائية واسلوبه الأدبي ، فمثلا يصف الطبيعة عندما يسأل عن موضع ما وكيف تركه فيخبر بأنه تركه " والكلأ جميم ، والنبت عميم ، من ارض صفت منها المشارع ، وضفت الاباطح والاجارع ، فتضاحكت الأزهار والانوار ، وتغايرت الانجاد والاغوار ، وتصاحب الانس والنوار ، وتآلف الغزر والصّوار ، ياله من مرتع خصيب ، وحظ لرايده نصيب .. "¹" ،

ونراه يصف الفرس بجميع حالاتها فتارة نرى الخيول " ترتع هناك وتسرح ، وتلعب وتمرح ، وتتمرغ في تلك الرمال ، ويتساقط ماعليها من شغط ودمال .. وتسموا بأيديها سبحا وتعدوا نحيما وضبحا ، والماء ينساب منها على الاكفال والمتون " وفي منظر آخر نجدها تستعيد مرحا وتستوفي فرحا ، تتلاعب تلاعب الغزلان ، وتتذائب تذائب الذوبان والورلان ، والنسيم ينفض اعرافها ، ويقبض أطرافها .. تتطاول باجياد كسحوق الليان ، وعيون كسحر البيان ، تنظر من ألجمها وسروجها ... والخير على نواصيها يشف والنجح على صياصيها يترف ... "٢" .

وفي مقامة الحمامة وهي الثالثة والاربعون "٣" نجد الكاتب يأخذ في وصف حمامة رآها في أحد أسواق فلسطين فيقول : " فبينا أنا أدور في بعض الأسواق ، اذ ساورتني سورة الاشواق ، حين لمحت من بنات الاطواق ذات صوت شاج ، وقلب تواق ، قد ضم عليها القفص أغلاقه ، وألبسها الدهر أخلاقه " هذا من ناحية شكلها الخارجي وصوتها الشاجي ، ثم ينتقل ليصور لنا مايعتمل في نفس تلك الحمامة

---

١) المقامات اللزومية : الورقة " ٤ "
٢) المقامة الفرسية : ورقة " ٩٥ - ٩٦ " .
٣) المقامات اللزومية : ورقة " ٩٩ " .

السجينة من التشوف الى الحرية " ... وتخشى القصاص ، وترجو الخلاص من يد القناص ، ولات حين مناص ، ثم تعود الى اليأس ، وتأنس بالبوس أو الباس ، فتجرع من الذل أى كأس ، وغاسق الاشجان في صدرها أى ماس ، فتميل جيدا خاضعا ، وخدا واضعا وحتى اذا أسامها الضجر ، وجاذبها الحجر والمبصر لفت رأسها في جناح واف وعاذت بالقوادم والخوافي ... تردد عويلا ولا تقدر حويلا .. " . وبعد هذا يأتي الفرج فتنطلق الحمامة فيصفها وقد امتلأت فرحا وحبورا بقوله : " ... تملأت فرحا وزهوا ، واستقلت في الجو استقلالا ، وأظلت على الارض اضلالها ... تروم وتحلق وتمسك جناحا وتطلق .. تنثر في الهواء رجا فدرجا ، وتسلك في مصاعده ومراقيه مناهج وفرجا ، وكيف تسير وعر ، وتعطف تارة وتكر ، وكيف تخرق الجو والخرق ، وتباري السويح والريح والبرق ".

فالمقامات تظهر لنا الصورة المثالية للأدب الذى يعتد بها ذلك العصر ، وهي المبنية على الصنعة اللفظية كتعميم السجع وسيادته على اسلوب الاعمال الادبية وغير الادبية وغيره من محسنات اللفظ ، والمحسنات البديعية كالجناس والطباق وغيرها بالاضافة الى كثرة الاقتباس والتضمين من الآيات القرآنية والآثار النبوية والحكم والامثال والاعتماد على حل الشعر ونثره وما الى ذلك .

وقد تعني القامة ايضا بابراز ثقافة كاتبها ، ولعل أصدق مثال على ذلك المقامة النقدية ، حيث يدلل الكاتب على عظيم معرفته بالشعر والشعراء منذ الجاهلية الى قريب من عصره ، ويمضي معددا قصصا وأخبارا يستقصي فيها التاريخ الأدبي والسياسي للامم السابقة ، وهو يرمي بذلك الى اظهار المامه بمعارف يبهر بها سامعه لينال الاعجاب ومثال ذلك المقامة الثامنة والاربعون للسرقسطي وفيها نجد البطل يتصدر حلقة يحدث فيها عن " عمرو وحاتم ويقول : ذهب الاجواد وخرّ الاطواد ، ومضى اللباب وبقي الذباب ... أين زهير وهرم أتى عليهما من الدهر السيل العرم ... اين ارباب العواصم اين قيس بن

عاصم ، اين أولاد جفنة وملوك غسان ، اين ماديح زياد وحسان ، اين ملوك كندة وهمذان ويمضي على هذا النحو ذاكرا طائفة من الأولين وسيرهم وأحوالهم . "(١)"

وكثيرا مايحرص الكاتب المقامي على اظهار براعته في الشعر مثلما أظهرها في النثر ، وقل أن تجد كاتبا مقاميا لا ينظم الشعر ، لذلك تحفل المقامات بايجاد قدر عال من شعر كاتبها مضمنا والقامة السادسة والعشرون مثلا تتضمن شعرا أكثر من النثر ، هذا ولا تكاد توجد مقامة تخلو من شعر قلّ ذلك أو كثر .

---

(١) المقامات اللزومية : ورقة " ١١٣ " .

الفصـــل الثالـــث

الموضوعات المقامية بين الشرق والمقامـــة الأندلسية

الموضوعات المشتركة :

أولا : المحافظة على البطل والراوي والعقدة : حيث نجد دائما أحداث المقامة تدور حول رجلين هما البطل وروايته . وهما في الغالب شخصيتان خياليتان يخترعهما الكاتب ويطلـــق عليهما أسماء ، ربما تكون لهما دلالة معينة يقصدها .

فهما عند الهمذاني : عيسى بن هشام يروي عن أبي الفتـح الاسكندري ، وعند الحريري الحارث بن همام يروي عن أبـــي زيد السروجي ، وعند السر قسطي السائب بن تمام يروي عـــن الشيخ أبي حبيب كما يظهر معهما شخص آخر في بعض المقامات يدعى المنذر بن حمام وهو شخصية سلبية لا دور له في أحداث المقامة وانما يتلقى الرواية عن السائب بن تمام ، فيقتصر علـــى القول في أول المقامة " حدث المنذر بن حمام قال : حدثنا السايب بن تمام قال . . . " "١" . والملاحظ أن الراوي الأندلسي وبطله لا يتجاوزان حدود الزمان ، بينما نجد راوي المقامة الشرقية يحل في عصور بعيدة من عصره فنجد الاسكندري مثلا يحدثنا في مجلس لذى الرمة والفرزدق "٢" ، كما نجده أيضا في مجلس سيف الدولة بن حمدان "٣" ، ونجد السروجي

---

١) انظر المقامات رقم : ١ ، ٢٤ ، ٣٦ ، ٩ ، ... من المقامـــات اللزومية .

٢) المقامة الغيلانية من مقامات البديع الهمذاني ص ٤٧ .

٣) المصدر السابق ، المقامة الحمدانية : ص ٢٠٤ .

أيضا في حضرة مالك بن طوق "١" ، ولعل هذا التجاوز يحدث شرخا في انسجام الأثر الفني ، ويؤثر في وحدة المقامات الكلية ، ويجعلها وحدات منفصلة . والبطلان يلتقيان بعدم التقيد بالبعد المكاني في مغامراتهما ، فيطوفان البلاد من أقصاها الى أقصاها ، وقد يتجاوز بطل الأندلس حدود العالم الاسلامي الى الصين والسند والهند "٢" ، والبطل المشرقي دائم الفخر ببلده خاصة ويضفي على فخره مسحة دينية قوية "٣" ، ولعله عندما يتحدث عن البصرة مثلا نحس وكأنه يستفيد مجد المربد ، وماكان لهذا الميدان من صولات أدبية منذ الجاهلية وحتى القرن الثالث الهجري تقريبا ، أما الأندلسي فعاطفته عائمة غير محدودة تتسع رقعتها لتشمل كل جزيرة الاندلس ، أما الوعظ والاتجاه الى الزهد عند كلا البطلين ، فربما كان رد فعل نفسي لما أصاب مجتمعي البصرة وقرطبة من أحداث جسام .

والعقدة لا تخرج في مضمونها عن الحيلة والكدية بمختلف الأشكال والاساليب كالعطاء تطوعا أو نهبا عدا المقامات الاخبارية عند الهمذاني - والوعظ دوما هو سلاح البطل البتار في اطار

---

١) أنظر مقامات الحريري (المقامة السرجيبية) ص ٨٦ ، ومالك هذا ممدوح أبي تمام الذى قال فيه :

يامال قد علمت ربيعة أنه ... ماكان مثلك في الأراقم أرقم

طالبت يدى لما رأيتك سالما ... وأنتيخ عن خدىّ ذاك المظالم

وشممت ترب الرحبة العبق الثرى ... وشفى صداى البحر منها الخضرم

انظر شرح مقامات الحريرى ، للشريشي : ١/٣٧٥ ، وبين الممدوح والحريرى بون شاسع في الزمن .

٢) انظر المقامات رقم ٤٧ ، ٤٤ ، ١٠٠ ، ١١٠ من المقامات اللزومية .

٣) مقامات الحريرى (المقامة البصرية) ص ٤٤٢ .

من المواهب الأخرى من علم وبلاغة وتأدب وسرعة بديهة وخاطر على نحو يدهش السامعين ويبهرهم . فالحدث المقامي يبدأ بعرض سريع موجز يقدمه الراوي ، مهيئا جمهرة المستمعين لما سيحدث ، ثم تصل ذروة العقدة عندما يبدأ البطل في التكدي والمسألة ، ليسدل الستار بالتالي بعد حدوث الافادة وذلك بذهاب البطل جذلان ملان .

ثانيا : السخرية : وهي اما هادفة الى غرض سياسي أو اجتماعي أو سخرية مطلقة بغرض التفكه والاضحاك ، وخفة الروح ، وأكثر أنواع السخرية شيوعا في المقامات هي التي تكون في ثياب المكدين يستوى في ذلك المقامات المشرقية والأندلسية ، فالبطل دائما يسخر بالناس وبالمجتمع من خلال حيل المكدين وأساليبهم وهي في معظم مواقفها تهدف الى الكشف عن الفساد والخلل السياسي والاجتماعي والخلقي ، بل قد تأتي أحيانا سافرة لتعرى كثيرا من القضا والفقهاء المتلحفين بثياب الزهد والصلاح نفاقا وزيفا من أجل أغراض دنيوية . "١" ولعل المقامات المشرقية امتازت بالتصوير الكاريكاتورى للشخصيات كالمقامة البغدادية للهمذاني والتي رسم فيها شخصية السوادى الذى يسوق حماره بخطوط ضاحكة فكهه ، والنيسابورية لقاضي البلد ، والحريرى في الرحبية امام والي البلد ، أما مقامات الاندلس فقد اقتصرت على المباشرة ففقدت شيئا من خفة الروح .

ثالثا : الوصف : وصفت المقامات كل مايقع تحت دائرة المشاهدة تقريبا فوصفت الرجال والنساء وأندية العلم والأدب ومجالس السمر والخمر وأنواع الأطعمة ... ووصفت النواحي المعنوية عند

---

(١) انظر المقامة الأصفهانية : للهمذاني : والصنعانية للحريرى ، والمقامة رقم ١٢ ورقة ٣٠ ، للسرقسطي .

الناس كالبخل والكرم والسماحة والشجاعة والجبن والصدق والزيف . كما أننا نجد مقامات بأكملها تعنى بالوصف عناية شديدة ، بل تتخذه غرضا لذاته . "١"

رابعا : البراعة اللغوية : حفلت المقامات كثيرا باظهار براعة كتابها اللغوية ، ومقدرتهم على تطويع اللغة من خلال معرفتهم بنحوها وصرفها وعروضها وبلاغتها ، ليس في مجال الاسلوب وزخرفه بل وفي معرفة قواعد الخطابة والشعر والنثر . وقد غالبت المقامات المشرقية في ذلك غلوا بعيدا ، فنجد فيهما مثلا مالا يستحيل بالانعكاس كالمقامة المغربية للحريري ، والاستفادة من الاعجام والاهمال في الأحرف العربية كالمراغية والسمرقندية والرقطاء للحريري ، والهمزية ورقة ٧٩ ، والبائية ورقة ٨٢ ، والجيمية ٨٤ للسرقسطي ، هذا التكلف والتلاعب في اظهار البراعة اللغوية كان اسلوب ذلك العصر فقد كانت البراعة اللغوية غرضا مقاميا يكتسب البطل عن طريقه سمات حاسمة تجعله متفوقا على منافسيه .

خامسا : الحيلة والكدية : يلتقي اسلوب البطل المشرقي والاندلسي في الكدية ، فكلاهما يتكدى الناس بأسلوب بليغ يظهر من خلاله أدبه وبلاغته كالمقامة الكوفية للهمذاني ، والمكية للحريري والمقامة ١٦ للسرقسطي ورقة ٣٩ ، ولعل أوضح ظاهرة في الكدية عند البطل المقامي اجتراؤه على سامعيه فهو مع شكواه من الزمن ورقة حاله لا يضعف ولا يهون ، بل يكون في

---

(١) أنظر المقامة المضيرية ، والخمرية ، والحمدانية للهمذاني ، والدينارية والبكرية للحريري ، ومقامات السرقسطي رقم ٤٣ ورقة ٩٨ ، ٤٢ ورقة ٩٥ .

وقد تجاوزت عن الاستشهاد للوصف في المقامات لكثرة مافيها منه والذي لايحتاج الى تدليل أو نص عليه .

حالة من القوة والشموخ ،بل قد يصل به الحال الى نوع من التعالي أحيانا كما في المقامة الجرجانية للهمذاني ، والكرجية للحريرى ،والمقامة ٣٤ ورقة ٨٤ للسرقسطي ، فالبطل المقامي من خلال تكديه ، على وعي تام بالناس وماجبلوا عليه من اخلاق وعواطف وغير ذلك فهو قد ابتلاهم وخبرهم واتخذ موقفه بعد ذلك منهم عن تجارب مريرة كثيرة ، لهذا لاعجب أن يقول الهمذاني في المقامة الاصفهانية : "١"

الناس حمر فجوّز وأبرز عليهم وبرز
حتى اذا نلت ماتشتهيه منهم ففروز

والحريرى في الصنعانية :"٢"

لبست الخميصة أبغي الخبيصة
وأنشبت شصي في كل شيصة
وصيّرت وعظي أحبولة
أريغ القنيص بها والقنيصة
وألجأني الدهر حتى ولجت
بلطف احتيالي على الليث عيصه
على أنني لم أهب صرفه
ولا نبضت لي منه فريصة
ولا شرعت بي على مورد
يدنس عرضي نفس حريصة
... أنصف الدهر في حكمه
لما ملك الحكم أهل النقيصة

---

(١) ... مقامات الهمذاني : ٦٤ .

(٢) ... الأدبية : ٣،

ويقول السرقسطي في المقامة الثامنة عشرة "١"

انما الدهر بديع كلــه فلتعارضه باحدث البدع
كلما أبدع دهرى عجبــا جئت بالاعجب أو بالابدع
من أتى الدهر بأنف شامخ سوف يلقاه بأنف أجـدع

والبطل المقامي يتكدى بالشعوذة تارة وبالاحتيال على الناس أخرى كما يظهر في المقامة العمانية للحريرى ، والمقامة ٤٩ للسرقسطـــي ورقــة ١١٦ ، أو باظهار مهارات مسفه كترقيص قرد أو دب كالقردية للهمذاني ، ٤١ للسرقسطي ، ورقة ٩٣ ، وثالثة باظهار مهــارات علمية وأدبية يفتقر اليها الناس ، والبطل المقامي يستجدى الحكـام والولاة وعامة الناس وسوادهم ، وفي هذا المجال لا فرق بين المشرقية والأندلسية .

سادسا : الشعر : كان الشعر موضوعا أساسيا لفن المقامة نجــده في كل مقامة ، حتى لو لم يكن المقام يقتضي قول الشعر ، يجيء به الكاتب كحكمة ختامية او ملخصا لمغزى يرمي اليه ، بل أن الشعر قد يتخلل المقامة ليؤدى دور الحادثة والحوار فيهـا ويتميز هذا النوع من الشعر بالخطابية الدرامية . كما في المقامـة الساسانية والبصرية للهمذاني ، والنصيبية والاسكندرية للحريـرى والمقامات ١٠ ، ١٩ للسرقسطي . "٢"

ولعل البطل المشرقي تعدى المعرفة بالشعر حفظا ورواية الـى معرفة أى بيت للعرب لا يمكن حله أو بيت سمج وضعه وحسن قطعه ، وأى بيت عروضه يحارب وضربه يقارب ، وأى بيت لا يعرف أهله ، وأى بيت هو أطول من مثله على نحو مانرى عند الهمذاني في المقامة الشعرية ولكن رغم ذلك تلتقي الشرقية بالاندلسية في معرفة البطل بالشعر ،

---

١) ورقة : ٤٤٠ .
٢) ورقة : ٢٥ ، ٤٧ .

انطلاقا من مفهوم " أن البليغ من لم يقصر نظمه عن نثره ، ولم يزر كلامه بشعره " [١]

سابعا : الأحكام النقدية : حفلت المقامات في المشرق والأندلس بابراز أحكام نقدية تحمل وجهة نظر مؤلفها ومذهبه الأدبي ، وهي في معظمها صدى لعقلية نقاد العصر - باستثناء مقامة ابن شرف القيرواني - التي حملت نظرات نقدية عميقة سابقة لما عليه النقاد آنذاك ، وسواء وقفنا عند مقامات النقد الأدبي في المشرق عند الهمذاني كالمقامة القريضية أو في الأندلس كالشعرية عند السرقسطي "٢" أو مقامة عبد الرحمن ابن فتوح "٣" فسنجد فيها نقدا لا يحمل سمات محددة لمذهب نقدي ولا يخرج عن الذاتية بعيدا عن الموضوعية والتقنين .

هذا بايجاز شديد ما اتفقت فيه المقامات التقليدية الأندلسية مع المقامات المشرقية من الموضوعات والأساليب ، وأما ما امتازت به مقامات المشرق فهو اشتمالها على موضوعات الفقه والعقائد والنحو والاملاء والاحاجي والالغاز ... والتي لم تتناولها مقامات الأندلس ، ولكن هناك موضوعات تناولتها المقامات الاندلسية التقليدية لم تعرفها مقامات الشرق وأهمها :

أولا : الحب العذري : كثير من مقامات الأندلس تدور عقدها حول الحب والعاطفة المشبوبة المحرومة ففي المقامة الثالثة للسرقسطي يدور الحديث حول فتى " أعطفت منه الصبابة لدنا ، و سحبت عليه ذيلا وردنا ... " هذا الفتى المحب المضنى قد أشرقه بكاء وأنين حتى بل محمله وردأه ... وهو يبدى في انشاده ويعيد ، والترب قد

---

١) المقامة الجاحظية ، للهمذاني ، شرح المقامات : ص ٨٧ .
٢) ورقة ٧٠
٣) الذخيرة : ق ١ ج ٢ ، ص ٢٨٦ - ٢٨٨ .

أثر في جنبه والصعيد :

حديث من بان يستعاد لو أن دهرا مضى يعاد
يا ربع قد كنت بي حفيا والبيض تحميك والصعاد
ودونك الحي من سليم اللمم السبط والجعاد
فأين سلمى وأين سعدى وما سليمى وما سعاد

وفي المقامة التاسعة للسرقسطي نجد الموضوع يدار حول وجد وهيام وحب ، فان غادة حسناء قد سلبت البطل لبه ، فبذل كل سبيل للوصول اليها ، وجرى بينهما في ذلك مكاتبات شعرية ظل البطل على أثرها يرد بما اليأس منها جمر الأسى "١" . وأما المقامة الحادية عشرة فموضوعها يدور حول ابن عم البطل الذى "كانت له ابنة عم يهواها وتهواه ، وربما غشي مثواها وغشيت مثواه " ثم يتدخل في الحدث ما نراه عادة في قصص الحب العذرى وما نسمعه عن اقطابه وهو انكشاف الأمر : " وأحس بذلك أهلها فتساوى بالقطيعة حزنها وسهلها " . وكانت النتيجة أن " خالطه مس وجنون ، وغالبه من الحب ضروب وفنون ، وبقي كما ترون يتيه في البلاد ، ويلهو عن الطريق والتلاد ... " وفي مثل هذه المقامات لا يخفى علينا تأثر المقامة الأندلسية بأخبار الشعراء العذريين أمثال القيسين وكثير وجميل ، ولعل هذه النزعة هي مرد تفضيل السرقسطي لهم على من سواهم كما أوضحنا سابقا ، ولعل هذا التأثر هو الذى جعل كثيرا من مقامات الأندلس تدور عقدتها حول الحرمان في الحب وشدة وقعه على النفس المرهفة الشاعرة لذلك نرى المحب في كثير من المقامات يفضي الى المس والجنون أو يهيم على وجهه وما الى ذلك. وفي المقامة الثالثة والعشرين يدور الحديث حول فتى علق بابنة عم له " كان الحسن قد كساها جلبابه ، ورفع لها العز قبابه ، وألقى

---

١) المقامات اللزومية ، ورقة ٢١ .

عليها الطرف برودة ، ورواها النعيم وتبروده ، فما زالت تمنعني منها الرسايل ، وتطمعني فيها الوسايل ، وتقربها الى الأماني ويحييني بها البرق اليماني ، وبحر الهوى يعب عبابه ، وتستحكم علقه وأسبابه . " ولكن هذا الأمر لم يدل طويلا على حالة فسرعان ماتغير عندما " فشا الحديث بها وظهر ، وغلب الأمر وبهر " " فغلظ الحجاب ، وارتفع الايجاب واذ كيت العيون ، ولويت الديون ، وتنبه الغيران .... " أما أس المحب وفجيعته فمرده الى ان هذه الفتاة " قد كان وعدني بها العم ، وساعدني فيها الأخص والأعم " ومما زاد الأمر سوءا - بعد أن جذت الحبال واثير بلبال ، واشتعلت نار ، ورقع للقطيعة منار - ان اباها "مال بها الى بعض القرباء ، وليت أنه من الغرباء ، فعند ذلك اشتد البرح ونكا القرح القرح ، وصرت هدف المستهام ، وغرضا للاوهام فخرجت على وجهي لا أدرى ما أصنع ، ولا أدفع عن نفسي ولا أمنع ،

ولا يخفى قتماثل هذا المقام وما نجده من اخبار مجنون ليلى وكيف هام بابنة العم ، ثم حرم من قربها ، لانه شبب بها نزولا على التقاليد العربية ، فهام على وجهه . ولعل موضوع الحب في المقامة الاندلسية يعود الى تلك الشخصية الاندلسية الرقيقة المكتسبة لرقتها من طبيعة جزيرة الاندلس الغناء ، كما ان الجزيرة عرفت عناصر غير مسلمة لا ترى حرجا في الاختلاط المحرم ، ولما كانت المقامات تنقد هذا الوضع رأت في ضروب الحب العفيف البعيد عن الدنس اوقع هجاء لما فيه المجتمع ، فتنسمت اخبار العذريين تنشرها وتلفت من خلالها المجتمع الاندلسي الى تلك العفة الطاهرة التي سببها الوازع الديني القويم .

ثانيا : رثاء المدن : ومن الموضوعات الاندلسية البحتة أيضا رثاء المدن ، والذى لم تعرفه المقامة الشرقية بهذا الوضوح عدا ما نجده للحريرى من صوت حزين باك كلما ذكر بلده سروج وقد حل بها الاعداء ، ولعل كثرة الحروب والفتن في الاندلس ومايخرب ويسقط من المدن من جراء ذلك كان هو السبب في

تناول المقامات لهذا الموضوع بتوسع ، فنقف مع السرقسطي على القيروان "(١)" وقد استولى عليها الخراب ، وذهبت بدولتها الأعراب ، فأغاضت حوضها ونميرها ، وزلزلت خورنقها وسديرها " وبينما البطل المقامي مسافر علاج على تلك الاطلال وقد شفته الذكرى ، فاذكر ان " كم ظعن بها ظاعن ، وطعن في لبتها من طاعن ، وكم كان بها من خود شموع ، وشهم دموع ، وروض مهضوب ، وبنان مخضوب ، وجناب وحرم وفضل وكرم ، وسرح ونعم ، وعوارف ونعم ... "(٢)"

وبعد هذه الوقفة النفسية الآسية ، ماكان منه الا أن قرأها " عبرة بعد عبرة " وتأملها عبرة اثر عبرة مستوحشا لما " انتيل فيها من مصون ، وغولب عليها من حصون ، وابيح من ممنوع ، وفسخ من مصنوع وحط من رفيع ، ورد من شنيع ... " بعد كل ذلك لم يسع البطل الا أن يطلق وجده من اساره في الكون الكبير ، صارخا في بكاء ذاتي عميق يوحي باللوعة والمرارة والحزن وصدق الانفعال : " يا طلول أين الحلول ، ويا ربوع ، كم ذا الربوع ، ويا ديار هل فيكن ديار ، ويا وكن أين السكن .. آه من رجالك ، آه من فسيح مجالك ، آه من مصابك ، آه من ملاعبك ... لقد لعبت بك الرياح النكب ، وعفا رسومك الجود والسكب ، لقد سحب عليك ذيوله ، وأجرى بواديك سيوله ، وخيم بساحتك وأناخ ، واستوطأ المبرك والمناخ .. "(٣)"

---

١) دمرت القيروان سنة ٤٤٩ هـ على يد عرب الصعيد من هلاليين ورياح وغيرهم ، وقد عنيت هذه المدينة برثاء خاص في الأدب الاندلسي يقفنا عليه ابن بسام في الجزء الرابع من الذخيرة ، المجلد الاول : ص ٢٢٧ - ٥٣٨ .

٢) المقامات اللزومية : ورقة ٥٢ - ٥٣ .

٣) المقامات اللزومية : ٥٣ - ٥٤ .

ولعل صوت السرقسطي هنا يذكرنا بصوت البحترى في وقفته على ايوان كسرى حين أصابه البلى وذلك من حيث التصوير وحدة الانفعال والارتباط النفسي العميق بالحدث ، ويمكننا القول هنا أن المقامة في هذا الحال تؤدى غرضا شعريا صرفا الا انها لم تتوسع فيه توسع الشعر ولم تقتصد لذاته كما يفعل الشعراء .

ثالثا : الرحلة البحرية : موضوعات هذه الرحلة مما اختصت به المقامة الاندلسية ، ولم تعرفها المقامة المشرقية عدا ما نجده للحريرى في مقامته "العمانية" حين ركب بطله البحر ، وللهمذاني في مقامته "الخلفية" حين سافر بطله على مركب ، وفي كلا المقامتين لم يدر الحدث على البحر وما فيه بل هو ذكر عارض للبصر لم يؤثر في عقده المقامه ، ولا يتخذ من البحر مسرحا لاحداثها .

اما البطل الاندلسي فجوّاب بحار يقص اعاجيبها ، وهنا تظهر تلك الشخصية الاندلسية التي عرفت البحر والسفن بحكم موضع الجزيرة الجغرافي ، فلا غرو أن حدثنا البطل عن " تلك البحور الزاخرة ، والسفن الماخرة ، والبحر العجاج ، والماء الثجاج ، والاعراف الجون ، والغمران المظلمة ... " "١"

ومقامة السرقسطي البحرية يقفنا فيها على علمه بالبحر وما فيه حيث يقول " وان به لايات وعبرا ، الى مرافق ومنافع ، ومتالع من الرزق ومدافع ، فمن لؤلؤ ومرجان ، وقاطف من ثمره وجان .... قد من الله به علي عباده حين سخره ، وقدم ذكره وأخره ، وجعله مظنة لابتغاء خيره ومكانا ، وصيّر ماءه الطهور وميتته الحلال ، ودفع عن راكبه العي والكلال ، فالمرء فيه أبدا معتبر ، وعلى لأوايه مصطبر ... " "٢"

---

١) نفس المصدر : ورقة ١٢ - ١٣ .
٢) المصدر السابق ورقة ١٦ .

ولعل عنصر الرحلة البحرية كان عاملا هاما لما نجده في المقامة الاندلسية ، من مخاطر عجيبة أو وقائع غيبية او حوادث غير مألوفة في قصة المقامة ، بل تقد تنحو نحوا بعيدا عن الواقع جانحة الى الخيال ، وتصير أقرب للقصص الخيالي منها للواقعي ، ومقامة السرقسطي "العنقاوية" مصداقا لقولنا بما فيها من حوادث خارقة للعادة تذكرنا بمغامرات السندباد البحرى .

هذه المقامة تدور احداثها بارض الصين ، وهنا لا يخفى علينا ما أراده الكاتب من الايحاء بجو من الاساطير والاعاجيب لم يعرفه أهل زمانه ، ومن ثم اختار مسرحه بمكان قضي لم تألفه الناس كثيرا ، ويجلس البطل قاصا على جمهوره طرفا مما لقاه في رحلته تلك "... فبينما نحن كذلك اذا انسابت بنا تلك الارض ، واستدار بنا الطول والعرض ، فطوينا المراحل ورأينا الصحارى تمشي بنا والسواحل ، الى أن رأينا البحر يسير الينا وتسير اليه ، ويعلو علينا تارة ونعلوا عليه ، تلعب بنا أمواجه ، وتبعد عنا أحناؤه وأضواجه الى أن ساخت في البحر سوخا وبقينا في الماء بوخا ، فسبحنا سبحا طويلا ، واستنفدنا جلدا وحويلا الى ان خرجنا الى جزيرة عريضة ، ذات مرابع خصيبة ، وأرض أريقة فأقمنا هناك رزايا طلايح ، وبقايا طوايح ، لا ألباب ، ولا أفكار ، ولا عرفان ، ولا انكار ، لا ندرى ما الامر ، وما هذا العجب الامر الى أن تراجعت الينا ألبابنا ، وتواصلت بعد التصرم اسبابنا ، واستيقظنا من تلك الغمرات ، وصحونا من تلك السكرات ، فعلمنا انه حيوان بحرى أصحر ثم أبحر .. " وبينما القوم يلتمسون أسباب النجاة هبط فوقهم شيء كأنه " السحابة الظليلة ، لها زجل وحفيف ، وخرق وزفيف ... "
وبعد ذلك يمر بهم شيخ عابد فيتوجس منهم اذ انه لم يشاهد أحدا مثلهم في هذه الجزيرة ، ولكنهم يتمسكون به ويخبروه خبرهم ، فحمد الله على نجاتهم حيث أن الذى حملهم في تلك اللجة لم يكن سوى " سلحفاة هذا اليم الزاخر ، وآفة الفلك المواخر ، كم هلك بها من هالك ، وسلك على ظهرها من سالك ... " ثم أخبرهم أن تلك السحابة التي حطت

فوقهم ماهي الا فرخ العنقاء وبدأ يحدثهم عن علاقته بهذا الطائر قائلا : " الفيته في هذه الجزيرة قد تملكه سغبة ، وتناهى لغبه ، وكانت له أم تقوم عليه ، وتجلب الرزق اليه ، الى أن غالتها الغوايل .... فزققته بيدي زقا ، ورقيته فترقى ، وهو يزورني في كل شهر ، ويمتعني من محاسنه في أي روض وأي زهر ، فكم جلب الي من ماء النيل ، وخصني من ماء دجلة والفرات بكل عذب فرات .. "

وبعد ذلك بشر الشيخ القوم بالنجاة بعد أن أوصاهم سبلها على ظهر فرخ العنقاء ، " ... فاذا سكن وجثم ووكن ، فتدرجوا على ذناباه اذا أسلبه ، واياكم واياه ان أسماه أو أقلقه ، ثم اصعدوا على زمكاه الى فقاره ، وتحفظوا من عطفة منقاره ، وسورة وقاره ، ثم اعلقوا بأطراف ذلك الريش ، وكونوا من كتده على عريش حتى تنفذوا كالسهم الريش " . وهكذا طار بهم فرخ العنقاء يطوى بطاحا وسهوبا ، ويعبر جبالا وبحارا وصحارى مارا على غابات وانهار .. وقضى لهم بالنجاة " .

الفصل الرابع

المقامات الأندلسية غير التقليدية

هذا النوع من المقامات أشبه مايكون برسالة تقدم لأمر مابين يدى شخص ذى نفوذ وسلطان على أمل نواله أو تحقيقه ، فنجدها تعالج موضوع المدح أو تصف الرحلة والتنقل داخل بلاد الأندلس ، وفي هذا الاطار تختص بموضوع المشاهدات في أحوال الناس وحياتهم ، أو هي رسائل تتحدث عن المفاخرات ، والمناظرات بين مدن الأندلس ، أو هي عدة موضوعات ضمن الرسالة الواحدة فتتناول الرحلة والمدح والوصف وما الى ذلك ، وهي بعد تتناول موضوعات شعرية بحتة مثل الغزل والمدح والهجاء ، وعلى هذا فقد فقدت هذه المقامات الشخصيتين الرئيسيتين بها وهما الراوي والبطل الواسع الحيل الذرب اللسان ، صاحب المقدرة العلمية والأدبية الشاعر الخطيب الواعظ ... التقي والماجن ، الهزل الجاد ، البائس التعس المكدى ، الساخر من مجتمعه في مرارة تشف عن خلل سياسي واجتماعي وخلقي . كما تفقد غالبا المجلس الذى تدور فيه احداث المقامة ، أى أنها تفتقد وحدة المكان ، وبسبب ذلك لا نجد في هذه المقامات مانسميه بالعقدة ، او الحدث الدرامي ، لان الموضوع أصبح يروى على لسان الكاتب نفسه ، وربما توجد فيها بعض العناصر الدرامية ولكن على قلة شديدة .

ومن هنا يمكننا القول ان هذه المقامات - بطبيعة موضوعها - بعدت عن الأغراض السياسية والاجتماعية ، ولذلك لا نعدها ذات كبير وزن نقدى أو اصلاحي مثل التقليدية . كما ان طبيعة موضوعاتها أيضا بعدت بها عن عنصر السخرية الذى كان عماد المقامة التقليدية ، ولعل اهم شيء يخرج به الدارس لهذه المقامات ، هو الصورة الجيدة التي تعطيها للمدن الأندلسية كما تفيد بعض الصور في الحياة الأندلسية

في مختلف وجوهها .

ويمكن دراسة موضوعات هذه المقامات على النحو التالي :

أولا : المدح :

وهي تؤدى في هذا المقام غرضا كان من قبل وقفا على الشعر ويختفي منها الراوى والبطل ليظل صوت الكاتب هو صوتهما معا ، ونقف هنا عند مقامة أبي عامر بن أرقم "١" في الأمير تميم بن يوسف بن "٢" تاشفين الحاكم المرابطي !

وتبدأ المقامة بقوله : " قال فلان بن فلان " وهذا الاستهلال كأنه احتفاظ بشخصية الراوى في شكلها التقليدى ، وكما كانت قصائد المدح تصور الرحلة الى الممدوح وماعاناه الشاعر من تعب ورهق ، فان هذه المقامة تسلك الى الممدوح نفس السبيل ، فنجد صاحبها يصف مالقيه من المشاق ، والمصاعب في رحلته الى أرض الممدوح حيث يقول "٣" : " ... فعجت الرواحل ، لأطوى المراحل ، آمل كعبة الآمال ، وقبلة الآمال ، فبينا أنا أسير ، وقد لظى الهجير ، ولا قعيد ولا ناطح ، الا الآكام و الأباطح ، ولا سانح ولا بارح الا الآل والبارح .. " ثم يحاول الكاتب أن يستعيض عن

---

١) هو ابن عبد العزيز بن أرقم وزير المعتصم بن صمادح صاحب المرية ، برع في صناعتي النظم والنثر ، وصفه صاحب الخريدة بالاستواء على سريرة الملك في البراعة ، والاستيلاء على ابداع الضائع بسر الصناعة / الخريدة : ٢/٣٩٨ .
وقال ابن بسام : ناظم ناثر ، بوادى آشي من عمل المريه ، لم يقع لي من شعره ما أجعله سببا لذكره/ الذخيرة : ٣/١/٤١٣ ، النفح : ٣/٤٩٩ .

٢) هو ابو الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين : جاز الى الاندلس في حياة والده يوسف سنة ٤٨٩ ، ثم كان واليا عليها في خلافة أخيه علي بن يوسف وكان له جهاد عظيم ضد النصارى ايام قائدهم ابن ارذمير وخاصة في سنة ٥١٩ هـ . انظر الحلل الموشيه : ص ٧٧ ، ٩٣

٣) المقامة كاملة في القلائد : ص ١٥٣ - ١٥٤ .

الراوي بشخص آخر يتدخل في مجرى الحديث قاصا شيئا منه ، فبينما الكاتب يسير على تلك الحال ، اذ عنّ له شخص " يقربه ذميل ونص ، واذا فتى عليه بزه ، تشهد له بالعزة ، يركب وجناء كأنها سبيكة لجين ، قد أخلصتها يد القين ، ويجنب وهما تسبح سبحا ، وكأنها ليل يباري صبحا " ، ثم يوجد الكاتب حوارا بين شخصيات المقامة في محاولة لايجاد نوع من الحركة الحيوية تكسب أحداث المقامة زيادة في التأثير ، لذلك لما ان دنا ذلك الغريب من صاحبنا حتى " وقف فطرف ، ووضع من لثامه ، وأوجز في سلامه " وهنا يغتنم الكاتب هذه الفرصة ويرد عليه بسرعة ، وقد توقع فوته من الرجل ؟ فقال :

أني امرىء لا يعترى خلقي ... دنس يفنده ولا أفن
من منقر في بيت مكرمة ... والفرع ينبت حوله الغصن
فصحاء حين يقول قائلهم ... بيض الوجوه مصاقع لسن
لا يفطنون لعيب جارهم ... وهم لحفظ جواره فطن

وبعد أن يتم التعارف بين الاثنين تصل المقامة الى ذروتها وتسفر عن غرضها الأساسي ، عندما يسأل الشاب كاتبنا عن وجهته فيخبره بأنها غرناطه ، وبذلك يكون التخلص من الرحلة للمدح على نهج القصائد حيث يكيل الشاب المدح لغرناطه متحدثا عما بها من نعيم ورخاء واستقرار ، وكيف لاتكون كذلك ، وقد أقام بها الأمير تميم بن تاشفين فأضحت بجوده محط " السدى والندى والأمجاد والأنجاد والاصراح والانجاد والغور والنجاد ..... " ثم يختم ابن أرقم مقامته القصيرة بأبيات من الشعر ليعادل بها ما مدحه به من النثر فيقول :

فتى الخيل يقتادها ذبلا ... خفافا تبارى القنا الذابلا
ترى كل أجرد سامي السليل ... تحسبه غصنا مائلا
وجرداء ان أوجست صارخا ... تذكرك الضبية الخاذلا
اذا شنهن بأرض العدى ... يصير عاليها سافلا
ولم أدر بدر تمام سواء ... يسمونه الأسد الباسلا
أقام العجاج سماء عليه ... وأقسم أن لا يرى وافلا
ولم تصرف الهول هماته ... ومن يصرف القدر النازلا

ومن مقامات المدح أيضا مقامة الأديب ابن المعلم "١" التي قالها في مدح المعتضد بن عباد ملك اشبيلية وهي تسير على نهج المقامة المتقدمة ، ولكن هذه اكثر التزاما باسلوب قصائد المدح من سابقتها ، اذ تبدأ أولا بشيء من الوقوف على الأطلال ، وبكاء لحظات السعادة الماضية في حنين مشوب ببرقة ولوعة ، يقول : " سقي عهدك أيتها الدمنه الزهراء في كل عهد ، وجاد قطرك أيتها الروضة الغناء كل قطر ، وسال عليك من أدمعي كل ملث هطال ، وتناوحت عليك من أضلعي كل جنوب وشمال ، منتشرة أنوارك ، لا معفية آثارك ، ومهدية أرجك ونسيمك لا مغيرة أطلالك ورسومك ... " ؛ ثم يحاول أن يجد له عقدة يدير حولها أحداث مقامته فيتعرض حاله في اطارين :

الأول : حال سعادته واستقراره في خفض العيش .

والثاني : حاله الراهنة عند تبدل الأيام .

ولعلنا نحس هنا صوت بطل المقامات التقليدية عندما يذكر تقلب الأيام التي قلبت حاله تعساوبوءسا ، يقول ابن المعلم :

---

(١) ابن المعلم : هو محمد بن عبد العزيز بن أحمد الخشني ، من أهل قرطبه ، سكن اشبيلية ، يكنى أبا الوليد ، كان اماما في فنون الآداب وصياغة الشعر وفك المعمى ، مقدما في الشعراء المطبوعين ، شديد التأثر بالاسلوب العربي القديم ، وله تواليف في الأدب حسان ، وهو أوحد وزراء المعتضد بن عباد ، وأدرك المعتمد وتوفي سنة ٤٣٠ هـ ، واخباره قليلة في كتب التراجم ، فلا نكاد نعثر على شيء من اخبار أسرته ونشأته ، الا انه كان بارعا في التنظيم والنثر بحيث استطاع أن يثبت أقدامه في بلاط المعتضد الباذخ والحافل بالشعراء والكتاب . / أنظر ترجمته في : الصلة : ٥٢١/٢ ، جذوة المقتبس : ٧٠ ، بغية الملتمس : ٥٢٤ ، ترجمة رقم ١٥٧٢ ، الذخيرة : ١١٢/١/٢ ، الوافي بالوفيات : ٢٦٢/٣ ، صلاح خالص ،اشبيليه في القرن الخامس الهجرى : ١٢٠ .

" فكم لنا في واديك من بلهنية زمان آنيف وفي مغانيك من رفاهية عيش رقيق ، نعل بكأسي عتاب وأعتاب ، ونرتع في جنتي صبا وتصاب ، غدونا من عشيق الى صديق ، ورواحنا من صبوح الى غبوق .. ورقيبنا أعمى وزماننا أعشى ، حتى اذا استيقظ الدهر من هجعته ، وهب من غطيط رقدته وسكرته ، ضرب فوقنا بجرانه ، وصرف الينا لهزم سنانه ، ولبس لنا جلدة النمر ، وقلب لنا ظهر المجن ، وألقى علينا بعاعه ، وطمس دوننا شعاعه ، مستردا ماوهب وأعطى ، ومكدرا مامنح وأصفى ... فما لبث أن صدع مروتنا ، وفصم عروتنا ، وحل عقدنا ، ونثر عقدنا . "

وبعد هذه الحالة لابد من الهجرة للبحث عن العيش الكريم ، فيستشير أحد أصفيائه في ذلك فينكر عليه ذلك ويثنيه عن عزمه ناصحا له بقوله : " أرى أن لا تريم ببيضتك وأرومتك وأن توطن أرضك ولا تفارق عشيرتك ، وأربأ بكك عن فضلات المنى ، وأعيذك من تبرهات لعلّ وعسى ، فتحسب كل بيضاء شحمة ، وتظهر كل سوداء تمره " ولكن اذا كانت الرحلة ضرورة وقدر لابد من نفاذه ، فعليه " من الرؤساء بأحلم الحلماء ، ومن القرباء بأشرف الشرفاء ، ولا تغرنك المناصب ، دون المناسب ، ولا المقول دون المعقول ، ولا الدراهم دون المكارم " وهكذا يمضي في دروب الحياة فيخيب مسعاه وتصدمه الأيام حين وجد الناس وأخبر ثقلة من أمير لا أسميه ووزيرا أقحمت الواو فيه ، وكاتب أمي ، وقاضي جبلي وآمة مبوره في قرية مصورة " .

وبعد أن عرض الكاتب بين يدى مولاه حاله ومالاقاه من عنت ورهق ، يتخلص من هذه المقدمات الى الغرض الهام وهو المدح ، فما يكاد رسول مولاه يقدم عليه حتى يخف اليه : " أتساقط من الجذل وأعثر في دعاثر العجل مقبلا فاه ، وصائحا زاه " ثم يمضي يمدح سيده نثرا لا شعرا ، مسبغا عليه هالات من المحامد والمفاخر ، تارة يحل فيها أبيات شعر مشهورة ، وأخرى يسرد الأمثال ، مما جعل سيده يمتلئ زهوا ، ويستطير فرحا ، ويقوم اليه ويدنيه منه ويقبل عينيه

وكأنه نشر من قبر أو صحا من سكر " وما قال فيه :

" هو الامام الطاهر ، والكوكب الزاهر ،والاسد الخادر ، والبحر الزاخر ، أوهب الملوك للذخائر ، وأعفاهم عن الجرائر ، وأرفعهم قدرا ، وأوسعهم صدرا ، وأطيبهم ذكرا ، أعطر من العنبر ، في كل منبر ، وأفوح من المسك الذكي في كل ندى ، الحليم فيما يغضب ، والجواد وما يرغب ، والشجاع وما يرهب ، والقوى وما يعتف ، واللين وما يضعف ، والرفيق اذا ساس والمصيب اذا قاس ... أكلم من سحبان ، وآخذ عن لقمان .. بحر علم ، وطود حلم ، وعالم في عالم ، الأصمعي عنه ناقل ، والجاحظ عنه ناقل ،اذا ركب ضاق عنه الأفق ، واذا تبدى وسع الدهر ندى ،وان نطق بيّن وصدق ، وان كتب أبدع وأعرب .. "

واسلوب الكاتب مسجوع مزخرف - تمشيا مع ميزات العصر - الا أن امتلاكه لناحية اللغة جعله يعبر عما يريد بتراكيب متينة سهلة ، كما ان كونه شاعرا أيضا جعل سجعه ذا رنين شعري .

وهناك أيضا من مقامات المدح مقامة الأديب لأبي محمد بن مالك القرطبي "١" خاطب بها المعتصم بن صمادح أمير المرية . وقد ساق

---

(١) هو ابو محمد عبد الرحمن بن مالك : قال فيه ابن بسام : " كان فردا من أفراد الشعراء والكتاب ، وبحرا من بحور المعارف والآداب شق كمام الكلام عن أفانين النور والزهر ،ورفل من النثر والنظم بين الآصال والبكر . / الذخيرة : ٢/١/٧٣٩ وكان من الأدباء المتجولين المادحين . وكان كثير الشكوى من الفقر . حتى أعياه ذلك ، فجعل يتحدث عن الغنى واليسار ، وقد عاش في كنف ابن صمادح بالمرية وبني هود أصحاب سرقسطة ، ولم تتحسن أحواله ،الابعد أن أصبح عاملا لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين وابنه علي . يقول فيه ابن خاقان : ولم يزل بما اعتقل من الاصالة والنهي ،ينقل من سماك الى سهى حتى أقطعه أمير المسلمين ماله بالاندلس من حصه ، وأقعده على تلك المنصة وبوأه المراتب واللائقة به المختصة . القلائد : ١٩٤ ، وتوفي ابن مالك سنة ٥١٨ هـ . أنظر : المغرب : ٢/١١٧ . الخريدة : ق ٤ ، ج ٢ ص ٤٤٧ ، النفح : ٢/١٥٥ .

ابن بسام بعض فصولها في الذخيرة وقال "١" : " اقتضبتها لطولها ، وأشار الى أنها "تعرب عن حفظه كثير عند الكاتب" وأريد هنا أن أقف عند تحليل هذه الفصول على فرض ان ابن بسام أوردها حسب الترتيب في المقاطع . فمن نظرة شاملة للمقامة لا نجد فيها ما نجده في المقامات التقليدية من بطل وراو وعقده ، وحيلة وكديه وسخرية وما الى ذلك . بل انها تسلك مسلك قصائد المدح ، فتبدأ باستهلاك شعرى معروف في القصائد حين يستميح الكاتب الممدوح عذرا في مخاطبته ، شفيعه في ذلك ان الممدوح " ان تطلع - لا زال طالعا نجم سعوده - الى نبأ من أنبائه عبيدة فاني انبئه ، ولا أنبيء الا حقا ، وأخبره ولا أخبره الا صدقا ، أما الأفئدة من بعده فمفؤوده ، وأما الأكباد لبعده فمكبوده ، والدهر من بعده ليلة ليلاء . . والناس جبلّة دهماء " . ثم تعرب المقامة عن فرح الكاتب وسعادة الدولة بفتح الامير ابن صمادح لها " بشرى لنا ولدولته الغراء ، وهنيئا لنا ولحضرته الزهراء ، فتح تفتحت له أزاهير النجاح ، وبشر تباشرت به تباشير الفلاح . . . " ونلاحظ ترادف الصور وتكثيفها وحشدها مع التتابع والتفريع والاستقصاء والبهرج والزخرف في الاستعارات والأوصاف . وهذه الظاهرة جعلت مقامات المدح تختص بصفاء الاسلوب وعذوبته ، صفاء وعذوبة شعرية ، بل وجعلتها تستعمل قاموس الشعر في الألفاظ والصور والاخيلة والتراكيب ، حتى تبدو المقامة كأنها قصيدة منثورة ، كما يقول ابن مالك في ذكر انتصار أميرة ابن صمادح : " يوم هزله الزمان ثنى عطفه ، وشمخ عزة بأنفه ، فالآن حين انصدع جون الهزيع ، من جون الصديع ، فوجه الزمان ضحيان مشرق ، وعود الدهر فينان مورق ، والعيش غضة مكاسرة ، عذبة موارده ومصادره ، طاب كما لذت لشاربها الشمول ، وتضوع كما خطرت على الروض القبول .

ومقامة ابن مالك هذه تشبه الى حد كبير قصائد المدح عند المتنبي وأبي تمام ، فانها تظهر - كما كان الشاعران يفعلان - عظمة الممدوح من

---

(١) انظر القسم الثاني : ج ١ ص ٧٣٦ - ٧٥٢ .

خلال مواقف في الحياة تختبر فيها النفس البشرية كالمعارك مثلا ، فنجد ابن مالك يقف من ممدوحه على يوم صعب من أيام الحروب التي خاضها ، فيصف أولا المعركة وشدتها وصلابتها وصفا عاما حتى نستشف من قوة وقعها قوة كل شخص يشترك فيها ، ولا سيما اذا كان ربط الجأش ، ثابت الجنان غير عابئ بأهوالها ونوازلها مثل ممدوحه فيقول : ".. لا تسمع الا همهمة وصهيلا ، وقعقعة وصليلا ، فخلت الأرض تميل ميلا والجبال تكون كثيبا مهيلا ، لا تعلم لأصوات تلك الغماغم ، وضوضاة تلك الهماهم ، من وهواه صهيل ودرداب طبول ، أزئير ليون بآجام ، أم قعقعة رعد في ازدحام غمام ؟ فتزاحم في الأفق التهميم والهديد ، وتلاطم في الجو الند التئيم والوئيد ، فكادت الدنيا بنا تميد ، لا تبصر غير ململة جأواء ، وقوارة شهباء ، قد ضعضعت التلال ، ودكدكت القلال ... " .

وفي مثل هذا اليوم الملتهب بلظى الحرب ، والذى تطير فيه الأنفس شعاعا من الهول والخوف نرى الممدوح في رباطة جأش وقوة يهزأ بكل ذلك ، وهنا يكمن المدح الحقيقي في اطار من سحر أغوار النفس الانسانية ، فان الممدوح لما سفر وظهر لم يدر الناس وهم في ذهول يومهم ذاك " أبدر الليل أم شمس النهار " بل ان غرة وجهه قد " جلت غيابة ذلك القسطل " ، وهنا يبدو الممدوح في وسط كل ذلك في صورة اسطورية رائعة لبطل ملحمي ، ثم نرى ابن مالك يسلك مسلك المتنبي وابي تمام - وبخاصة عندما كان المتنبي يرافق سيف الدولة في ميدان القتال - في وصف عدد الحرب وعتادها ، فيصف لنا هيئة المحاربين واستعدادهم لذلك الموقف" لكل قد أخذ عتاد اليوم للبأس الشديد ، يظاهر بالحديد على الحديد ، تلبب بالسابرية وتدرع وتعصب بالصقال وتقنع حتى البلاميق والدروع سواء ، وحتى المقلة النجلاء والحلقة الحوصاء من كل مسرود الدخارص ، متألق دلامص ، كأنما جللته بحبكتها السحاب ، أو خلع برده عليه الحباب ، أو غمس في ماء فجمد عليه الحباب " .

هؤلاء الفرسان بأيديهم الصوارم المرهفة التي تلمع كبوارق الجو

" لكنها ماهزت فبوارق ، واذا صبت فصواعق ، من كل ذى شطب ... اذا أصاب فكل شيء مقتل ، واذا حز فكل عضو مفصل ، أمضى في الأشياح من الأجل المتاح ، عضب الحد صقيل ، يكاد اذا انتضى يسيل ، ويكاد مبصره يغني عن الورد اذا اخترط من الغمد ، مالم يخله ريعان سراب في صحصحان يباب ، لاشتباه فرنده بحباب في شراب ... " .

وهكذا يمضي في وصف السيف ، ومنه ينتقل الى وصف الخيل بقوله : " فرأيت مقربات خيل يتخايلين تخايل العذارى الزور ، ويتهادين تهادى المهارى القود ، فكأنها يتوجسن عن أطراف أقلام ويتشاوسن عن مقل آرام . فمن مبيض شطر كابيضاض المهرق ، ومسود شطر كاسوداء الموهق ، كأنما اختلس نصفه من الفلق ، واحتبس بنصفه الغسق مقابل الخلق بين الشمس والقمر ، ومقسم السربال بين الجنح والضجر . "

وقد أطال ابن مالك في الوصف باسلوب مسجوع محلّى بالزخارف اللفظية والمحسنات البديعية بحيث استطاع أن يرسم صورة مثيرة للموقعة فجعل القارىء ينظر الى ذلك الغبار المدلهم ، تلمع من خلاله بوارق السيوف بأيدى فرسان على ظهور جياد شديدة الحركة . ولكن هذا التتبع الدقيق والتفريع للجزئيات كالوان الخيول وحركاتها ودقات قلوبها وما الى ذلك جعل هذه الأوصاف تبدو أغراضا منفصلة عن المقامة .

ثم يقف الكاتب المقامي على فاصلة استراحة خلال هذه الحرب وليخاطب الممدوح مباشرة ، فهو قد خاض هذه الحرب لعلمه : " ان الداء يبرأ اذا حسم ، والخطب يستشرى كلّما قدم ، وأنهم ان تركوه في اليوم كراعا صاروا في الغد ذراعا ... " من أجل ذلك ولما يتمتع به الممدوح من رأى ثاقب يزن الامور في صحة وسلامة تدبير ، كان لابد له من القتال ، فرمى الاعداء " ببديهات عزم كالنجوم العواتم وماضيات رأى كالسيوف الصوارم ، وآراء تصدع صفاء الجلمود ، وعزمات تنقب في الصخرة الصيخود ... " .

والملاحظ ان هذه المقامات تحرص على تنوع الايقاع في العرض حتى يحيط الكاتب بأكبر قدر من جوانب شخصية الممدوح ، فاننا نرى الى الآن رأيناه في حالة حرب وقهر ، ثم حالة تفكير واتزان ورجاحة عقل وهنا نراه في حالة عفو وتسامح " عفو كظل المزنة الممدود ، وكرم كشط اللجـة المورود " . ولولا هذا العفو عند المقدرة لباد الأعداء " كمـا بادت جديس في وباره ولنفلت تلك المنازل نفل الجلد ، ومحت كما محت وشائع من برد ... "

ومن هنا يتوجه الكاتب الى الناس محذرا اياهم من الاغترار ، " بخلقه الفضفاض ، وكرمه الفياض ... فالبحر قد تروى غواربه وليس بظام ، والعارض قد تصيب صواعقه وليس بركام ، والنصل قد يبـرى وهو غير مؤلل ، وأين نار ليس لها شرار ، وأين خمر ليس لهـا خمار ... ؟ " .

ثم يصور ممدوحه بأنه يلبس لكل حالة لبوسها فهو " جدب وربيـع معرق ، ليل ونهار مشرق فيه الصاب والعسل ، وفيه السهل والجبل ، له خاطر على خواطر الحوادث مرسل ، وطرف بأطراف البلاد موكل .. " وبعد ذلك يسلك الكاتب مسلكا نفسيا في مخاطبة الممدوح - كثيرا مـا سلكه الشعراء في قصائدهم - فهو يبين ان بقاءه مع الممدوح ليـس للحاجة الماسة والعوز ، ولا رهبة وخوف بل هو تدبر ورجاحة عقـل فهو " ليس ممن سقط ، العشاء به على سرحان ولا كمن قال مرعي ولا كالسعدان .. " فملازمة الكاتب لأميره اذن يسكن " حيث مد المجـد رواقه ، بحيث يعتصر الندى من عوده ، ويرتشف صرف الجود مـن ناجوده ، فانتقيت الجار قبل المنزلة ، وبوأت رحلي في المحل المبقـل ورتعت في أثر الغمام المسبل " .

فالممدوح نسيج وحده ، ولا تجود الأيام بمثله ، ولولا ذلـك لكان للكاتب " في الارض العريضة مسارح وفي أبناء الكرام منادح ، غير أني عن أكثر المراتع عزوف ، ولأكثر المشارع عيوف ... " .

ثم نراه يمدح نفسه ويعظمها ليجسم من خلال تعظيمه لها عظمة الممدوح فيقول : " واني لكالسيف ، لا يحمد كل من حمله ، وكالرمح لا يسرّ بكل من اعتقله ، وما كل عجيب في عيني بعجيب ، ولا كل غريب في نفسي بغريب .. " ولكنه وجد طلبته عند ممدوحه ، وجد مكانه اللائق به ، فليس غريبا ان يدعو على نفسه بعد هذا كله ان ينسيه الله رشده " يوم أنساه ، وأبدلنيه يوم استبدل سواه ماوصل وماقطع ، ورفض واصطنع ، وماضرّ او نفع ولئن أعقب يوما من الدهر بحرمان - وحاشاه - فلقد سبق بمعروف ، وان سائني منه يوما فعله - وخلاه - فان اللواتي قد سررن ألوف . ولقد ألفي وده صدري خلاء من غيره فاستوطن وصادف قلبي فارغا فتمكن . " .

ثم يختم المقامة بمدح تقليدى على نهج الشعراء كالتغني بالسماحة والكرم والندى وحسن الخلق وغيرها فيقول : " مارأيت وجها أسمح ، ولا حلما أرجح ، ولا سجية أسجع ، ولا بشرا أبدى ولا كفا أندى ، ولا غرة أجمل ، ولا فضيلة أكمل ، ولا خلقا أصفى ، ولا وعدا أوفى ، ولا ثوبا أطهر ، ولا سمتا أوقر ، ولا أصلا أطيب ... مما خص الله به ثالث القمرين ، وسراج الخافقين وعماد الثقلين ، المعتصم بالله ذا الرياستين .. واني وان أطنبت فأطيبت ، وأسهبت فأعذبت ، لخجل أن يكون مثلي يثير غبارا على جبينه ، وينظم سوارا عن يمينه ... " وفي المقامة تلهف الكاتب على نفسه ان قعدت به عن المشاركة الفعلية بالسنان ، ومكتفيه باللسان ، ولكن هذا ليس لجبن فيه أو خور عزيمة ولكن بسبب " أفراخ كزغب القطا ، يدبون في نائلة عندى دبيب الكرى فيستشفون علالتي ويستنزفون بلالتي .. " ولو نال عطاء ليؤمن به حياة هؤلاء الصغار الضعاف " لامتطى من جداوة السابح اليعبوب ، وتقلد من نداه الصارم الرسوب ، واعتقل من عطائه الصعدة السمراء ، وأدرع من حبائه الفضفاضة الجدلاء ، فيبصر هناك مملوكه ابن مالك ، يلاعب الأسنة كعامرين مالك ، فينظر أحسن منظر ، ويبلو أفضل مخبر .. " .

ثم يأخذ الكاتب في مدح نفسه ليدفع قدرها حتى يرتفع قدر عطائه ، ولا غرو فهو : " رب القصائد والقنا المتقصد ، فطــورا طعنا بالمثل وضربا بالمنصل وطورا ارتجالا بالخطبة الفيصل كخطبــة قيس بن سنان ، في حمالة عبس وذبيان ، خطبة تباري الريح في هبوبها ، من لدن طلوع الشمس الى غروبها ، حضا على السلم والمحاجزة ، ونهيا عن الحرب والمناجزة ، فلو شهر هنالك لشهد أمرا معجبا ، وأبصر خطيبا مسهبا ، فيرى شقشقة وقرما وصعبا ، يجنحهم الى السلم لما لما وثبا وثبا " .

والجدير بالذكر ان مقامات المدح لا تختص بالحكام والقواد وحدهم ، بل تتسع قمتها لتشمل رجالات العلم والأدب والمعارف المختلفة وتمثل هذه النزعة مقامة أبي بكر يحيى بن محمد الأركشي "١" المسماة " قسطاس البيان في مراتب الأعيان " ونقف منها عند حديثه عن علي بن خلــف الأنصارى "٢" حيث يقول : " فقيه عارف ، وحامل أدوات معارف ، وما هو الا زبدة زمان تمخض العصر عنها ، وروضة علوم تضوع القطر منها ،

---

١) هو أبو زكريا يحيى بن محمد الأركشي : من حفاظ الأدب ، راوية أبي اسحاق بن خفاجة ، كان أديبا كاتبا شاعرا ، ولد سنة ٥٠٧ هـ وتوفي مقتولا بداره في قرطبه سنة ٥٨٦ هـ . ولا تكاد كتب التراجم تفصح عنه . انظر المغرب : ٣١٦/١ ، التكملة : ٧٢٥ ، النفح : ٤٦٣/٢ .

٢) هو علي بن خلف الانصارى يكنى بأبي الحسن ، فقيه حافظ محدث زاهد فاضل أديب ، كثير الرواية والتأليف ، ذائــع الشهرة توفي في حدود ٥٧٠ هـ . ومن مصنفاته : رى الظمآن في تفسير القرآن ، كتاب الاسعان في شرح مصنــف أبي عبد الرحمن وغيرها .

تلتمس أشتاتها من عنده وتقتبس ، ويفزع اليه كل ما اشكل منها والتبس . ذهب في اقتنائها أهدى مذهب وأمتطى الى حامليها صهوة الهجير الملهب ، حتى انتهجت له شعابها وانقادت الى فهمه صعابها ، ومازال متتبعا مساقط أثرها ،حتى روى من سلسبيلها وكوثرها ،فشيد ماعني به تشييدا ، وجوّده اتقانا وتقييدا ، فطالبوا العلم والأدب ينسلون اليه من كل حدب فيقتبسون عيونه من عنده ،ويقتدحون فيه واري زنده . . . "(١)

وواضح أن هذه المقامة لاتحمل من سمات المقامات غير اللغة المسجوعة والأسلوب المزخرف .

والواقع أن ليس هناك مايميز اسلوب مقامات المدح بسمات خاصة ، فأسلوبها أسلوب العصر الملتزم بالسجع كقول ابن أرقم فيما تقدم " لله أنت فما أصون جارك ، واكرم بجارك لم تدب الضراء ، ولم تمش الحمراء " بالاضافة الى مافيه من جناس وبأشكاله المختلفة وزخرف لفظي وصناعة مع عناية نسبية بالأمثال وحل الشعر وتضمين معاني الأدباء والشعراء السابقين كقول ابن مالك : " فاني وان كنت الأخير زمانه ، والسكيت أوانه . . اني آتي بما لم تستطعه الأوائل " فهو معنى بيت المعرى المشهور ، أو قوله" فلا غرو ان يفوق جميع الأنام . وهو من الأنام ، فان المسك بعض دم الغزال " مأخوذ من بيت المتنبي :

فان تفق الأنام وأنت منهم فان المسك بعض دم الغزال"(٢)

وقوله :

" كالغيث شؤبوبا بشؤبوب والرمح انبوبا على أنبوب "

نثر لقول البحترى .

---

١) الذيل والتكملة : ١/ ٢٣٠ .
٢) ديوان المتنبي : ٣/ ٢٠ . شرح الكعبرى . ط بيروت ١٣٩٧هـ ١٩٧٨م .

لا يحتفي خلق القضي ولا يرى متشبها في سؤدده بغريب
شرف تتابع كابرا عن كابـــر كالرمح أنبوبا على أنبـــوب "١"

وقوله : " فانتقيت الجار قبل المنزل ، وبوأت رحلي في المحـــل المبقل ، ورتعت في اثر الغمام المسبل " نثر لقول أبي تمام :

بوأت رحلـــي في المراد المبقـــل
فرتعت في أثر الغمام المسبـــل
من مبلغ أبناء يعرب كلهـــا
أني ابتنيت الجـــار قبل المنزل "٢"

وقد أكثر ابن مالك خاصة من كتاب مقامات المدح حل الأبيات الشعرية المشهورة مما جعل ابن بسام يعقب على مقاماته تلك بقوله "٣" " ومد ابن مالك في رسالته هذه أطناب الاطناب ، وشن الغارة فيهـــا على عدة شعراء وكتاب ، من جاهليين ومخضرمين ، ومحدثين ومعارضين ، ولو ذكرت من أين استلب واختطف جميع ماوصف ، وانصرف الى كـــل أحد كلامه ، نثره ونظامه ، لحصل هو ساكتا ، وبقي باهتا . "

ولا شك أن المدح المبالغ فيه قد قعد بالمقامة عما كانت تمتاز بـــه من طرافة الموضوعات المقامية التقليدية ، ولم يشفع لها محاولة كتابهـــا تصيد الحوار من خلال الشعر أو محاولة ايجاد شخص آخر يشـــارك في الحديث أو قاص يقوم بدور الراوي وما اليه ، ورغم ذلك ظـــل الأسلوب مجال تفوقها الوحيد فحافظت على فن التصنيع وتأنف اللفـــظ والاغراق في السجع والبديع كالجناس والطباق والاغراق في المقابلـــة والموازنة وسائر أوجه البلاغة .

---

١) ديوان البحتري : ٢٤٧/١ ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، ط القاهرة ١٩٧٢م .
٢) ديوان أبي تمام : ٤٩/٣ ، شرح التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزام ط القاهرة ١٩٧٠م .
٣) الذخيرة : ق ٢ ج ١ ص ٧٥٢ .

ثانيا : مقامات الهجاء :

اختصت المقامة غير التقليدية بالهجاء اختصاصها بالمدح ، هجاء يأتي على أشكال متعددة ، تارة يسخر ويتفكه ، وطورا يفحش ويقذع ... وهو في مضمونه لا يخرج عن رسالة سباب شخصي يروج الكاتب لانتشارها يصبها في قالب مقامي .

ولعل المقامة المسماة "بالقرطبية" والمنسوبة الى الفتح بن خاقان "١" في هجاء البطليوسي "٢" أشهر مقامة هجاء في الأدب

هو

١) هو أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي الاشبيلي ، أصله من صخرة الولد قريه على مقربة من قلعة يحصب من أعمال غرناطة ، اشتهر بابن خاقان لا تهامه بالخلوة ، وقيل انه لقب بذلك للزراية عليه والتنقص والا فهي تعني الملك بالتركية . كان بارعا في البيان والادب كأنما يغرف من بحر زاخر ، أو يقطف من زهر ناظر ، حسن صناعته وسعة براعة . قال فيه صاحب المطرب : كلامه في تواليفه كالسحر الحلال والماء الزلال ولكنه مخلوع العذار كثير الوقوع في الاعراض مما صده عن ان يكون علما من أعلام كتاب دولة المرابطين التي قامت على اساس الاسلام والجهاد وقد توفي ذبيحا ذبيحا في فندق بمراكش بعد أن خلي بأحد العبيد سنة ٥٢٨ ه أو ٥٢٩ ه ، وقيل أمر بقتله الأمير علي بن يوسف ، أخو الأمير ابراهيم ، المطرز باسمه كتاب القلائد ، ومن كتبه : مطمح الانفس ومسرح التأنس ، راية المحاسن وغاية المحاسن ، قلائد العقيان ، ترجمة ابن السيد البطليوسي وغير ذلك . انظر : ترجمته في : معجم الصرفي : ٣٠١ ، وفيات الأعيان : ٣/ ١٩٤ المغرب : ١/ ٢٥٩ - ٢٦٠ ، النفح : ٤/ ٢٠٧ ، وغيرها .

٢) هو أبو محمد عبد الله بن محمد السيد البطليوسي ، نزيل بلنسيه ، انتصب فيها للاقراء ، وكان عالما باللغات والآداب والعلوم القديمة ، له عدد من الكتب منها : شرح أدب الكاتب ، شرح الموطأ ، شرح سقط الزند وغير ذلك ، وكان مولده سنة ٤٤٠ ه وتوفي سنة ٥٢١ ه / انظر ترجمته : بغية الوعاة : ٢/ ٥٥ ، الديباج المذهب : ١/ ٤٤١ ، شذرات الذهب : ٤/ ٦٤ ، أزهار الرياض : ٣/ ١٠١ ، تاريخ الفكر الأندلسي : ٣٣٤ ، ترجمة حسين تونس .

الأندلسي ،اذ أثارت حولها جدلا وتبرأ منها كل من نسبت اليه من الكتاب ، وذلك لما فيها من الفحش والاقذاع ، وهي تسلك في بنائها شيئا من أسلوب المقامة التقليدية ، فنجد فيها بطلا ذا مواهب أدبية ، شغوفا بالأدب وأهله ، يرتحل طالبا لقاء الأدباء والعلماء ، واسم هذا البطل علي بن هشام ، حيث يشد رحله مهاجرا من أرض الشام قاصدا بلاد الأندلس ، ساعيا للتعرف على علمائها وأدبائها ،فنسمع صوته في أول المقامة يقول "١" : " قدمت الأندلس من أرض الشام أجوب البقاع وأقرأ الأصقاع ، وأصاحب أهل الأدب والسنن ، وأجانب أهل الأهواء والظنن حرصا على الثلاث التي تزين الغريب وتنفي التأنيب والتثريب ، وقدما كنت مايشوقني الأدباء وأقول هم في الأوطان غرباء ،فلي في البلاد من هواهم نصيب ، وكل غريب للغريب نسيب. "

ويمضي في رحلته حتى يحط رحله ببلنسيه (حيث يقيم البطليوسي) ويهتبل البطل الفرصة ليجرى قلمه في الوصف على سنن أبطال المقامات من قبله " وقبل ماوصفت لي بلنسيه ببهاء ووسام ، وقيل لي هي ثغر الجزيرة البسام ، فأنخت بها الجمل ، وقد دانت الشمس الحمل وصدع القمرى وهدل ، وقام وزن النهار وأعتدل ، فرأيت أرضا عليلة الأرواح ، ظليلة الأدواح ،صقيلة الجوانب مترعة المذانب ، تسلي عن أهل وأوطان ، وتجتذب القلوب باشطان .. " ولما استقر به المقام في هذه المدينة بدأ في مهمته التي رحل من أجلها يقول : " فسألت حينئذ عن حملة الأدب ونقلة كلام العرب " فدل على " الشيخ السرى أبي محمد البطليوسي ، علة العلل ، وشفاء الظمآن من الغلل ، مطاف الطلبه وامام الخالصة الحلبه ... " ومن ثم يتوجه بطلنا قاصدا حضرة الشيخ عله يجد بساحته ماينسيه عناء سفره ،ولكنه قبل أن يحل بربع الشيخ يلتقي في الطريق " بفتى له لألاء ورواء ، عمامته بين الرجال لواء ، فرعه أفرع ، وجيده

---

(١) المقامة توجد ضمن مخطوط الاسكوريال رقم ٥٣٨ ، مج ١ ، ورقة ٢٢ - ٢٥ .

أتلع ، وأنفه مطول ، وخلقه مجدول " ويساير هذا الفتى خدين له واضح بسام تقريك صفحته أقسام الكلام تعلق سر الحسن أسرته ، وتطلع بدر التم آزرته " ثم ينزل الفتيان بظل ظليل يتحدثان ، ويحس بطلنا بأنهما قد وقعا في نفسه موقعا حسنا ، وصادفا من قلبه هوى وقبولا ، ومن ثم يتوجه اليهما ، مشاركا في المجلس ، فيلبث جمعهم ذلك ساعة في مدارسه الأشعار وانشائها " حتى اذا درس الأصيل وحان من يومنا الرحيل سألتهما عن الشيخ الجليل " وهنا يتغير حدث المقامة اذ يبدأ غرضها الأصلي ، ويتخذ الكاتب من الشابين شخصيات مساعده ليكسب الحدث المقامي نوعا من التأثير من خلال ايقاع حركة الحوار المتبادل بين الأشخاص الثلاثة وهي - بلا شك - اداة أكثر تأثيرا في مجال التشويق والتركيز نجح الكاتب في استغلالها . وبسؤال البطل عن الشيخ ينبرى أحد الشابين ليصف الشيخ بكل سوء وقبح وفاحش الصفات وأقذ عها فيقول : " يأتي المناكر في كل ناد ، ويهيم بالعمة في كل واد ، لا يرجى له ارعواء ، ولا يأسو جرحه دواء ، تسود أعماله كلما اسود سباله ، ويشتد قرمه كلما زاد هرمه ، يروم الزاجر قمعه فتمتلك الشهوة ناظره وسمعه . . " ويمضي موردا ألوانا مختلفة من المثالب والمعايب في حق الشيخ فهو مدلس في عمله يتخذه أحبولة لأغراض خسيسة لم يردعه عن ذلك علم ولا دين ولا خلق فهو " قد جعل الدفاتر شركا وقال أنا البحر لا أعدم حركا ، راكبه راكب البحر المحيط ، وجايب صحراء الغبيط . . . " وحتى يعطي الكاتب المقامي قلمه انسراحا ليكيل سبابا جديدا للشيخ ينكر - ابتداء - قول هذا الفتى انكارا يستفز حمية الصدق فيه ، فيحاول أن يأتي ببينات أخرى تضفي على قوله صفة التصديق والقبول ، وهذا الأسلوب الذى اتبعه الكاتب له أثر نفسي هام استغله في اعطاء الهجاء بعدا أكثر تركيزا وحده ، ولما احس الفتى بان كبرياء صدقه قد جرح ، يستعين بصاحبه وخدينه ، ليقص على البطل (علي بن هشام) طرفا من مأساته مع الشيخ فيقول : " الشيخ علمني الكتابة وأمضغني الكبابه . . ثم أرواني بالضرب والضريب ورواني الشعر والغريب . . . " كل هذا حسن لاغبار عليه ، ولكن

الشيخ لضعف خلقه ورقة دينه كان يرجو من ذلك ثمنا آخر " قال لي قد بلغت أشدك فامحض لي حبك وودك ، وادركت استواك يألف على موافقتي هواك .. " ثم يراود الشيخ الفتي عن نفسه ... ويمضي الفتى قاصا وقائع متعددة يدلل بها على ضعف الشيخ الخلقي ومجونه وتهالكه على الملذات .... "(١)

وما أن يسمع بطلنا بفعلات الشيخ المنكرة ويدرك حقيقة خلقه وعلمه حتى يقول : " فلما ولج سمعي ما ولج ، وانبلج من أمر الشيخ ما انبلج بالغت في الطعن ، وأمعنت في السباب واللعن واستخرت الله في الظعن ويممت حضرة ابن معن "٢" ، ثم قلت " ان ارضا يعظم شيوخها وأدباؤها لجديرة أن لا يشرب ماؤها وأن لا يلمح أرضها وسماؤها ، ثم أنشدت بلنسيه وقد وليت وأقسمت أن لا أعاودها وآليت :

فما أضر بأهل العشق أنهم   هـووا وماعرفوا الدنيا ولا فطنوا

وبهذا تختتم هذه المقامة ، وهي ان لم تزل مجهولة الأب والنسب، الا أنها من أجود المقامات غير التقليدية اسلوبا وتشيع بالحركة والاثارة ، وان قعد بها الهجاء البذىء الفاحش عن سمو الأدب وجلاله .

ورغم أنها نسبت الى الفتح بن خاقان الا أن الشك في نسبتها اليه لا يزال قائما ، فلم يجزم أحد من الأدباء والنقاد قديما وحديثا بنسبتها اليه . خاصة ان الفتح قد ألف كتابا مستقلا عن السيد البطليوسي بالاضافة الى أن ترجمته للبطليوسي في كتابه قلائد العقيان "٣" لم

---

١) في المقامة أمثلة كثيرة تصلح للاستشهاد ولكنها تتضمن جملا وتعابيرا والفاظا تجرح الشعور لما فيها من الفحش والاقذاع انظر الورقة ٢٣ - ٢٤ من المخطوط السابق .

٢) ابن معن : هو ابو يحيى محمد بن معن بن صمادح التجيبي ، من ملوك الطوائف وكان صاحب المرية . أنظر أخباره في الذخيرة : ق ١ ج ٢ ص ٢٣٨ ، ط القاهرة .

٣) ص ٢٢١ .

تغمط الرجل حقه بل وصفه بالفقيه الاستاذ شيخ المعارف وإمامها ، كما أن المصادر التي اطلعت عليها لم تذكر أن خلافا نشب بين الرجليـــن من قبل أو من بعد .

وقد نسبت هذه المقامة أيضا الى ذى الوزارتين أبي عبد الله بــن أبي الخصال كاتب أمير المسلمين علي بن يوسف والذى استنكرها بدوره وتبرأ منها في رسالة بعث بها الى الحسن بن سراج "١" واستهلهـــا بقولـــه :

" ماكنت أشتم قوما بعد مدحهم ولا أكدر نعمى بعدما تجب "

ويعتقد ابن أبي الخصال أن حساده وأعداءه قد دسوا عليـــه هذه المقامة البذيئة فيقول : " واني لعي بالسلامة من كاشح يغرى بي ، ويد ترميني من حيث لا أدرى ، تمنحني الفصاحة ضراما ، ويمنعنيها بردا وسلاما ان مرّ به ذكرى غمز وغمض ، أو ادعي لي منها حـــظ نفس ونقص " ثم ينفي نسبة المقامة اليه بقوله : " ... ماهذه المقامة الا قيامه حشرت الكرام وحاشت وما استثنت ولا حاشت ، أصابت وآشوت ، وصابت وأخوت ، وعممت لتخص ، وناجت لتعلن وتقص ، والمناجي لبيب ، وقد يوءذى من المقة الحبيب ، اللهم طهرها من دنس الدعوة ، واجعلني فيها مستجاب الدعوة ، حتى ندعوها لأبيها ، ونتبع الأقسط عندك فيها " .

كما رد على هذه المقامة أيضا أديب آخر يسمى الوزير أبو جعفـــر ابن أحمد"١" ، وكتب رسالة تسمى : " الانتصار في الرد على صاحـــب

---

١) الحسن بن سراج : ستأتي ترجمته في الباب القادم ان شاء الله .
٢) ذكره صاحب القلائد بقوله : كاتب مجيد ، وفاضل مجيد ، انخفض عن الأرتفاع ، ونفض يده من الانتفاع ، فلم يلح في سماء ولم يرد مورد ماء وكانت له نفس علية تزهو بها الجوانـــح والضلوع .. ومازال يغص بالأيام وحالها حتى أضله الحمام . القلائد : ١٨٨ ، الخريدة : ٢/٤٤٢ .

المقامة القرطبية " واستهلها بقوله (١) " تبا لمن جعل رأس ماله الخسران ، وأنفس خلاله البهتان ، يقرف بالمحال ويقذف علية الرجال ، وينسب الى الجلة النقصان ، ويغضب في أهل الملة الرحمن ، ويرضى الشيطان ، فيقع في لحم أخيه سبعا ، ويرتع فيما يخربه ضبعا ، كلامه زور ونظامه فجور ، ونثاره كذب ، ومضماره لعب ، ان ذكر العلماء أفحش أو وصف الفقهاء أوحش ، أو جلى الأحبار ثلب ، أو تلى الأخبار قلب ، فالقضاء عنده خدم سدنه ، والولاة ظلمه خونه والسياسة حباله ، والرياسة أباله ، والخير ريا وسمعه والبر حيلة وخدعة ، له في كل مصر مقاله وعلى أهل كل عصر استطاله وفي كل قوم صيد وفي كل يوم نشيد ، قد طوق نفسه عارا وألحق بأهل الأدب شنارا ... " وهكذا تمضي الرسالة على هذا النحو ذامة كاتب المقامة وسلوكه الذى يخرج به عن نطاق الأدباء ، وهي في ذلك تسلك سبيل الوعظ والارشاد ، ناهية عن تتبع عيوب الناس ، داعية الى الخلق الاسلامي القويم ، اذ أن الأولى بالمرء " أن يتأمل حال نفسه قبل تأمل سواه ، وينظر في خاصة أمره قبل من سواه ، وأحرى أن يبدأ بتأديب اخلاقه ، ويأخذ في تهذيب أطرافه ، ولا يركب مثل هذه الشنعاء في أهل الزمان ، ويرغب عن هذه العوراء في الجماهير والأعيان ... " بل كان الأولى به أن " يصرف في نشر مفاخرهم لسانه ، ويصرف الى ذكر مآثرهم عنانه .. حتى يودع جيد الدهر من ذلك قلاده ، ويجعل فضايلهم شهاده ، اذ كانوا أيمة الاسلام المسموع منهم في الحلال والحرام ، والصنف المخصوص بالتقديم والتفضيل .. وعساه لو جارا بعضهم في ميدان ، أو باراه في محاورة أو بيان لجأ بكشيت الحلبة ، وا وبامتاخر المرتبة ، فأضحى لا يطاولهم فترا ولا باعا ولا يكايلهم مدا ، ولا صاعا ، فليستر هناته في هذه العورة ، وليقصر شباته عن هذه السوره ، وليكف من عزب لسانه وليكلف بالأمثل بمكانه فهو له أنفع ولقدره في الدارين أرفع .. "

---

١) الرسالة كاملة في مخطوط " رسائل أدبية " بدار الكتب المصرية : ص ٣١ - ٣٢ .

وهكذا تبقى هذه المقامة مجهولة المؤلف تكتنفها الشكوك والافتراضات ، ولكن الا يمكننا القول بأن الفتح بن خاقان هو الذي كتبها ونسبها الى الفقيه ابن أبي الخصال لغاية في نفسه أو للافساد مابين الرجلين العالمين وبخاصة ان ابن خاقان كان على شيء كبير من سوء الخلق وفساد الدين والضمير ، قال فيه الرشيد بن الزبير "١" . " كان يضع من نفسه بشدة تبذله وكثرة تنقله وغضبه من ذوى الرتب ، واساءة الأدب على الأدب وتحليه من الخلاعة بما تعزف عنه نفس كل ذى عقل رصين واسفافه من الدنايا الى مالا يرضاه أهل المروءة والدين " . وقال شيخه الصدفي في ترجمته له "٢" : " ولم يكن مرضيا وحذفه أولى من اثباته " كما يذكر المقرى ان القاضي عياض قد حد ابن خاقان في الخمر "٣" . فهذه الصفات التي تحلى بها الرجل تتفق مع ماجاء في المقامة من العبارات والجمل البذيئة المقذعة في الهجاء والفحش ، أضف الى ذلك ان ابن خاقان لم ينف نسبة هذه المقامة اليه ، حسب ماوصلنا من أخباره كما انه تحامل على ابن أبي الخصال في ترجمته له في القلائد حين قال عنه . "٤" : " ... وهو وان كان خامل المنشأ نازله ، لم ينزل المجد منازله ، ولا فرع للعلا هضابا ولا أرتشف للسناء رضابا فقد تميز بنفسه وتحيز من جنسه وظهر بذاته وفخر بأدواته ... " .

وقد أشار الى هذا ابن الخطيب في ترجمته لابن أبي الخصال بقوله : "٥" ... وعضه العقور أبو نصر في قلائده " وأشد من هذا مارمى به صاحب القلائد أمام علماء المسلمين في الاندلس المعروف بابن باجه أو بابن سينا المغرب حين تهاون بطلب الفتح

---

١) الخريدة : ق ٤ ، ج ٢ ص ٦١٠ .
٢) المعجم في أصحاب الصدفي : ٣٠١ ، ط : مدريد ١٨٥٨م
٣) نفح الطيب : ٢٠٧/٤ .
٤) انظر ص ١٩٣ .
٥) الاحاطة في اخبار غرناطة : ٢٥١/٢ .

شيئا من أدبه ليضمنه قلائده فقال فيه : " هو رمد جفن الدين ، وكمد نفوس المهتدين اشتهر سخفا وجنونا ، وهاجر مفروضا ومسنونا .... لا يأخذ في غير الأباطيل .. ناهيك عن رجل ماتطهر من جنابه ولا أظهر مخيلة انابه .. فكر في أجرام الأفلاك ، وحدود الأقاليم ورفض كتاب الله العلي العظيم ، ونبذه وراء ظهره ، ثاني عطفه ، وأراد أبطال مايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. " . ولم يسع ابن ماجه عندما بلغه هذا الا ان ينقذ اليه ماطلبه مشفوعا بالمال ، فاستصلحه بذلك ، فألف الفتح كتابه مطمح الأنفس وافتتحه بترجمة ابن باجه مسبغا عليه أثواب الحمد والثناء ، واصفا اياه بالبدر الساطع وبرهان علمه لكل حجة قاطع .

والعجيب أيضا في أمر هذه المقامة ان البطليوسي الموجهه اليه لم يرد عليها ، أو لم أجد ردا له فيما قرأت من رسائل ومقامات أندلسية ، ولعله رأى الترفع عنها ، وتجاهلها أبلغ رد عليها والذى يبدو ان البطليوسي - لسبب غاب عنا - قد اختص بقدر كبير من عداء معاصريه ، اذ نجد مقامه أخرى لمن يسمى بأبي الحسن المرسي "١" ، يهجو فيها البطليوسي ويذمه ، وقد اختار لها صاحبها عنوانا طريفا فأسماها " مقالة السوء الى أهلها أسرع من منحدر سائل "

---

١) أبو الحسن المرسي : الذى يبدو أنه شخصية غير معروفة ، فلم أهتد الى ترجمته فيما رجعت اليه من تراجم ووجدت في البغية من اسمه علي بن محمد بن دريسم أبو الحسن المرسي ، روى عن أبي عبد الله بن حميد وأبي القاسم بن حبيش ، وأقرأ القرآن والعربية ... مات ظنا ٦٢٣ هـ ، بينما توفي البطليوسي ٥٢١ هـ ، ولعل قول السيوطي ظنا تقرب الشقة بين الرجلين ، ان لم يكن غيره . أنظر بغية الوعاة : ١٨٨/٢ .

ويبدو من المقامة ان البطليوسي قد أقام زمنا بناحية المرسي هذا ورهطه ، ولما غادرهم بعد طول عشرة ومقام ، كتب اليهم كتابا يذم فيه محلة سكنهم ، وسوء معشرهم ، واجحاف ضيافتهم ، وتستهل المقامة بالحديث عن كتاب البطليوسي وما احتواه "١" وصل الينا أيها الشيخ البشرى كتابك المحبّر الموشى الذى أكمل نقائصك وعرض (.....) "٢" وعممت فيه وخصصت ... ورأيناك قد أودعته ذم نواحينا وأعملت فيه بتحقير بوادينا .. " ويستغرب المرسي من دوافع هذا التصرف ويتساءل في اندهاش " فأورينا زندك فرميتنا ، وجزيتنا جزاء سنمّار .. " ومن هنا يتحسر على الذى كان على الجحود ، وضيعه الولاء والوفاء ، وقد كان أولى بهذا الشيخ ان يثنيه عن فعلته شيبه أو يصده وقاره أو تحميه معرفته بالعلم أو طول تمرسه بالشرع والفقه ، " أما آن لمشيبك أن يرع ولقلبك أن يفزع الى التوبة وينزع ، ما اكفرك للعشير وما أشد فطام الكبير .. " ثم ينعي على الشيخ خسرانه اذ لم يفده كبر ميلاد ، ولا تقادم سن ولا وقار شيب ، ولا جدال علم ، ولا سماحة دين ولا معرفة حق " تا لله لو جنحت الى رشاد وبنيت اعتقادك على أسس وعماد لزجرك العمر ونهاك ، وأضاء لك الشيب طرق نهاك ، ولم تجعل سباب الناس ذريعة الى الاستخفاف بالشريعة ، لقد بان جور سبيلك ، ونهضت عروق تضليلك .. " .

وبعد هذا العرض لأصل المشكلة التي أوقعت سوء التفاهم بين الطرفين بتوجه المرسي بهجا شخصي للبطليوسي فيذكر طباعه وأخلاقه ويعرى زيفه فيقول هذا الشيخ " فاسق يستعير حلية مخبت وناف للنبوة في صورة مثبت ، باعتبارات الطه من ذوى الأهواء المضلة ، وحرس مقول الاسلام عن موضع الفصل والكلام ، ويا للأنوار تقتبس من ظلما وتلبس عن أمة لخناء ، ورياض ترتاد في عذره ، ودرر تطلب

---

١) المقامة موجودة بمخطوط الاسكوريال رقم ٤٨٨ ، مج ١ من ورقة ١١٦ - ١١٨ .

٢) بياض في المخطوط بمقدار كلمة ورقة ١١٦ .

في سباخ ديره " وليظهر للناس جور الشيخ وتنكره ، يقص علينا ظرفا من أيام البطليوسي بديارهم " ايام ترفل في الكساء ، وتقرأ سورة النساء ، وتزين بخوطة البانة الطيلسان ، وتخضب الكف بحناء الكأس .. فلم نسيت نزلها وقراها ، وضربت المثل بدناءة قراها هلا (خدت) "١" ذراها وسقيت بدمعك ثراها ورعيت عهود صباها واستشفيت بنسيم صباها " .

وما نكاد نمضي مع المقامة قدما حتى يتضح لنا سبب عداء المرسي والبطليوسي وذمة لديار الأول ، ذلك أن الشيخ لم يغادر المرسي باختياره ، وانما طرد من هناك لأمر كان منه " وهبك نفيت من أقطارها ، ومحيت من اسطارها ، وطردت عنها طرد الجرب، وجيء على قميصك بدم كذب . أما تشوفك تلك السرحات ، أما تعطفك تلك البكر والروحات ، ماحق الوفاء لتلك الأرجاء معارضة الذم والهجاء أعد نظرا في عطف ذلك الزمان ، فان حسن العهد من الايمان .." وتستمر المقامة على هذا النهج من التقريع والهجاء أعد نظرا في عطف ذلك الزمان ، فان حسن العهد من الايمان .. " وتستمر المقامة على هذا النهج من التقريع والهجاء للبطليوسي حتى نختتم بذلك .

والواقع أن هذه المقامة أضعف من المقامة الأولى في التيار الفني لاعتماد مؤلفها المرسي على صوته وحده ، وبذلك لم نجد بها أثرا للايقاع او الحوار والحركة ، فهي ثقيلة وقع عبء حركها على المؤلف وحده ، ولعل محمدتها الوحيدة سموها عن الهجاء الفاحش واستعمال الألفاظ البذيئة المبتذلة .

---

١) هكذا جاءت في المخطوط السابق : ورقة ١١٧ .

وهناك مقامة هجاء أخرى : مجهولة المؤلف ، وهي في ثلب من يسمى بابن الرياحي "١" ؛ ويبدو أن كاتبها من أهل العلم والفقه، وليس من أهل الأدب ، لان خطابه في المقامة موجه الى رجالات الشرع والفقه ، والذى يتضح من المقامة ان ابن الرياحي هذا قد شغل في وقت من الأوقات منصبا هاما بالدولة ، وقد تجبر وتسلط على رقاب الناس مستغلا منصبه الرسمي ،ثم دارت عليه الأيام وجارت ففقد المنصب والشهرة والحماية . . والمقامة في و محصولها استعداء من الكاتب ، لينزل أمير المسلمين أوقع العقاب بابن الرياحي ، وقد افتتحها بخطاب أولي الأمر " أطال الله بقاء الفقهاء الجلة والوزراء العلية (بماضرين) "٢" للأولياء منزهين عن سخافة الأغبياء والأوفياء . . . "

ثم يستنفر سماحتهم وحلمهم وسعة صدورهم على ابن الرياحي وأمثاله فيقول : " ولعمر الله ان حلم الفتي في غير موضعه جهل ، وان أجدر الناس بالذم من هو له أهل ، فالسفيه يهتضم الحلماء ، والجاهل ينافر الفقهاء ، والوضيع مغرى بانتقاص الأشراف . . . "

---

١) ابن الرياحي : لم أعثر على هذا الاسم فيما رجعت اليه من تراجم ، ولكن أغلب الظن أنها في عصر المرابطين فقد جاء في أحد فصولها " وسيعيد النظر في أمرة أمير المسلمين " ، والمرابطون هم أول من اتخذ هذا اللقب في الأندلس ، كما ندرك منها ان ابن الرياحي كان يقيم في بلنسيه لقول الكاتب فيها :

لقد هانت بلنسية الخزايا
هوان المسك من تحت السلاح
اذ الأوغاد تحكم في الرعايا
كفربان تحال على الجراح

المقامة في المخطوط رقم ٤٨٨ ، ج ١ ، ١١٤ - ١١٦ .

٢) هكذا بالمخطوط السابق ولعلها (ناصرين) .

وهكذا بعد أن جذب اليه الأسماع واستأثر بالأهتمام الكافي من أولئك النفر ، يبدأ في قذف ابن الرياحي حمما ، مبينا أي نوع من الرجال هذا " الوغد الدنيء ، والعي المجترى ، الجاهل المتغافل ، المبادر بالسفه ، الناكل عن الفضل المتثاقل فلانا ، المضمر للحقد والنفاق المارق عن جماعة الاتفاق ، الشهير المثالب في الأقطار والآفاق ، العارى من كل فضيلة ، المحتوي على كل رذيلة ... لم يستضيء بنور علم ولا أدبه ، وغشية ظلمات الجهل من كل حدب ، لم يسلك قط لاقتباس علم سبيلا ، ولا عرف لحديث تأويلا ، ولا عاشر ذكيا ولا ذكر الله الا قليلا " .

ومما زاد الهجاء قسوة ان ابن الرياحي هذا مع جهله وسوء خلقه مغترا بما لديه معتقدا في نفسه " انه قد أتي بالحكمة الجامعة ، والحجة البالغة القامعة " ثم يرينا ان ابن الرياحي لم يصل الى هذا المنصب لعلمه أو فضله ، وانما هو من المتسلقين الى ذلك ، فقد خدمته رياح مواتية عند ما أصهر الى أحد الكرام ، وبذلك انتقل من خمول وضياع الى ذكر ومجد وصوله ، يقول الكاتب : (" وذلك انه لما انتقل من سكن الخان والتصرف في النفاية بالنهركاسة ، وع وتعلق بسبب من حزمة الرياسة وتزيا بزى المشارف بعد التزيي بزى الظالم والحواسه ، وتظاهر الى ابن الكناس وتشبه بالناس ، وان كان أشبه الناس منهم بتسناس ... " وقد وجد ابن الرياحي زمانا مساعدا لتسلطه حين انقلبت القيم وسادة دولة السفل . " وأدرك وقتا نسخت فيه المعارف بالمناكر ونفقت سوق كل خائن وماكر ، وغارت نجوم الأشراف .. " وفي مثل هذه الأجواء لاغرابة ان يجد ابن الرياحي وأمثاله سوقا نافقة " فلبس ثوب الكبر والازهاء ، وصعر خده ، واعتقد انه من ذوى النبل والدهاء ، وأنه واحد من خواص البلد وأعيانه ، ونسيج عصره وزمانه " ومن هنا ولكونه ليس أهلا لتولي مثل هذا المنصب أو يتسلم مثل هذه السلطة ، جاءت أحكامه جهلا وظلما وبعدا عن سنن العدل فكان " أعدى من الذئاب البرية ، يحكم أحكام الجاهلية ، ويفضل اضرار

المسلمين " ولكـن دارت الأيام وتقلبت صروف الدهر فانكشف الزيـف وأسفر عوجه الحق ، وعادت الأمور الى نصابها فدالت دولة ابن الرياحي " وأكبل بالحديد ، وصفد كالشيطان المريد ، وأخذ منه بعض الثأر بعد تخليد قبيح الآثار ، وحيل بينه وبين ذلك العمل ، وقطع منـه سبب الرجاء ... فالأيام دول ، والحروب سجال ، وكل دهر لـه حال ، وان كانت للباطل صوله فالحق دوله . " ثم تدخل المقامة في غرضها الاصلي وهو استعداء الحكام على ابن الرياحي وصهره فيقول صاحبها : " وسيعيد النظر في أمره امير المسلمين : فيشف صدور قوم مؤمنين ، وحق له ان يوالي المظاهر ، بعد المصاهر ، ليتصـل المفاخر بالمفاخر ويقال كم ترك الأول للآخر .. "

ثم تختتم المقامة بقصيدة هجاء للرياحي تبلغ اكثر من ثلاثيـن بيتا ، ولعلنا نحمد لهذه المقامة خلوها من الفحش والاقذاع فـي القول .

والملاحظ على مقامات الهجاء ، انها لم تختص بعداء فكـري أو مذهبي او عقائدي أو ادبي يكون من اجله الهجاء والقدح ، بل هـي لم تخرج في مضمونها عن صراعات ، وعداءات ذات طابع شخصي ، صاغها كاتبوها في قالب مقامي ، حتى تكتسب رواجا اكثر لما لقالـب المقامة عند استغلاله من دور في تنوع الهجاء .

ويبدو ان المقامة تتصل بحادثة ذات وزن كبير في التاريخ السياسي الأندلسي ، ولكن عدم معرفتنا لاسم الكاتب ، والشخصية ابن الرياحـي الحقيقية ، اضاعت فرصة عظيمة في ربط هذه المقامة باحداث التاريـخ الأندلسي ومعرفة الظروف التي كتبت فيها ، وحقيقة الثورة التـي أطاحت بابن الرياحي هذا فالمخطوط المذكور لم يذكر اكثر من " مقامة لاحد الكتاب في ابن الرياحي " .

اما المقامات الغزلية : فهناك أمثلة لها كالمقامة الادريجية ، او العياضة الغزلية ، لمحمد بن عياض "١" اللبلي ، وقد أورد منها ابن سعيد "٢" جزءا يسيرا لا يمكننا من الحكم عليها واستخلاص خصائصها الا ان القطعة الباقية منها تدل على ان الغزل هو موضوعها ومطلعها : " قال ميزان الأشواق ومعيار المحبين والعشاق : نبت بي معاهد الأحباب في ريعان الشباب ، لقينة أذكت نيرانها ، وألقت بمسقط الرأس جرانها ، فأمتطيت الليل طرفا ، ومزقت السنان طرفا ، وجعلت أمسح الأرض نجدا ووهدا وأستطعم الآمال صابا وشهدا ، كالعنز لا يستقر بمنزل ، ولا وجد عند رجلته بمعزل ، اصعد من خصور القيعان الى روادف الرّعان ، وأنحدر من فنون الهضاب الى بطون البياب ... " ويستمر على تلك الحال تقذف به صدور المشارق الى أعجاز المغارب حتى يصل الى البلد الذى كان يكلف به ويعشقه (.. وكنت اكلف بالبلدة الحمراء كلف الكمى بالصعدة السمراء ، وأحن الى جوارها ، حنين الناقة الى حوارها للذى اشتهر من حسنها وطيبها وخصبها ، واختيالها في حلل شربها وعضها " وكان ينشد من ذلك " اعتلاق كل ظريف .. والاصغاء الى نبأ طريف " ويختتم هذا الجزء من المقامة أبيات يتغزل فيها بمن أحب فيقول :

---

١) هو ابو عبد الله محمد بن عيسى بن عياض القرطبي ، ويقال اللبلي ، ولعله نزلها فنسب اليها ، وكان متقدما في الآداب ولاحقا بافذاذ الشعراء والكتاب واليه تنسب المقامة العياضية الغزلية ، ويقول ابن الآبار انه حدث بها (أى المقامة) عن أبي زكريا يحيى بن حسان المرادى ، كما نبه على ان نسبتها الى محمد بن عبد الرحمن بن موسى بن عياض المعروف بالمنتشي والمتوفي سنة ٥١٩ هـ " غلط وانها للأول : انظر التكملة : ٥١٥/٣ ، ترجمة رقم ١٤٠٦ ، وج ١ ص ٤٢١ ، رقم ١١٩٥ .

٢) انظر المغرب في حلى المغرب ، ١/٣٤٤ - ٣٤٥ .

عربد بالهجر والعتاب　　نشوان من خمرة الشباب ·
طفا على ريقه حباب　　فاحتجب الخمر بالحباب
أنكرت الاسقام طرف　　وأى سيف بلا ذباب
ان انا لاحظته تواري　　من دمعة العين في حجاب
ابصرته جدولا وورقا　　من دمع عيني وانتحابي
لم تستبق سلوة وجب　　الا وطرف السلو كابي

المقامة الجامعه : وسميتها بذلك لانها تتناول موضوعات متعددة يصلح كل منها ان يكون مقامة مستقلة بذاتها وتمثل لها بمقامة أبي عامر بن شهيد "١" والتي يقول ابن بسام انه حذف بعض فصولها لطولها وفي اولها يتناول سنعة الكتابة والكتاب لعصره ويرى " ان صناعة

---

(١) ابن شهيد : الاديب المشهور ، أبو عامر احمد بن أبي مروان ابن عبد الملك من شهيد بن اشجع وهي بطن من قبيلة غطفان العربية كان جده احمد بن عبد الملك وزير الخليفة الأموى الناصر عبد الرحمن الثالث ، وأول من تسمي بذى الوزارتين في الأندلس، وولد أديبا في خلافة هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر . والأمر يومئذ بيد ابن ابي عامر الحاجب الذى تلقب بالمنصور ، وعاش في كنف المنصور عيشة راضية فترة من الوقت عند ما كان أبوه نديما له . . ذكره ابن بسام وبالغ في الثناء عليه كقوله فيه " . . شيخ الحضرة العظمى وفتاها مبدأ الغاية القصوى ومنتهاها نادرة الفلك الدوار ، وأعجوبة الليل والنهار نظم كما اتسق الدر على النحور ونثر كما خلط المسك بالكافور . . " الذخيرة ١/١/١٩٢ . كما اثنى عليه ابن حيان أيضا بقوله :
" ولو تأملته ولسنه وكيف يجر في البلاغة رسنه قلت عبد الحميد في أوانه ، والجاحظ في زمانه " نفس المصدر السابق ، وقال فيه ابن خلكان " كان من أعلم أهل الأندلس " الوفيات : ١/١١٦ . وفيه نظر لانه عرف بقلة الاطلاع واقتناء الكتب ، كما يقول ابن حيان / الذخيرة ١/١/١٩٢ وتوفي بداء عضال سنة ٤٢٦هـ انظر ترجمته : مطمع الانفس : ١٦ ، معجم الادباء : ٢/٢١٨ المغرب : ١/٧٨

الكتابة محنة من المحن ومهنة من المهن والسعيد من خدمت دولة اقباله والشقي من كانت رأس ماله ، والعاقل من اذا أخرجها من مثالبه لم يدخلها في مناقبه "١" وسبب تلك عنده ان هذه الصنعة قد " تناولها بمد كثير من الشوق ، وباعوها ببيع الخلق فسلبوها تاج بهائها ، ورداء كبريائها ، وصيروها صناعة يكاد الكريم لا يعيرها لحظة ، ولا يفرغ في قالبها لفظه .. " ويستمر في وصف الكتابة والكتاب واحوالهم وواجباتهم في مراعاة الاحوال والظروف عند الكتابة فيقول : " والعاقل من يبرز يوم السرور في زى الأعياد ، ويوم الحزن في ثياب الحداد ، وسيان في الفجاجة والتبرد ، من جد عند الهزل أو هزل عند الجد ... " . ومن الواضح ان الموضوع هنا رسالة في الكتابة والكتاب على نحو ما هو في المشرق عند عبد الحميد الكاتب وأضرابه ، وتبعد عن نهج المقامات كما تحددت خصائصها في الأدب العربي .

ولكن عند ما ننتقل الى موضوع آخر فيها ، نراها تسلك النهج المقامي ، وترينا مشاهدات في الحياة والناس بالأندلس ، ونرى الريف الأندلسي وقد احل الكاتب ضيفا بمنزل بدوى ، و يقفنا من خلال وصفه للبدوى على مؤثرات نفسية واجتماعية هامة فهو قد " هش وبش وكنس منزله ورش ، وصيّر عياله الى ناحية ، وجمع اطفاله في زاوية ، وجعل يدور كالخذروف أمام الصفوف يتلقى الواحد منا بعد الواحد ، يأخذ بركابه ويكشر عن نابه ويتمثل :

أخذ ى كذا بركاب الضيف أنزله
ألذ عندى من الاسفنج بالعسل
أو من رغائف كانون ملهوجة
أو رائب بقرى جيد العمل
أو من خوار عجول في مسارحها
أو من ركوب الحمير الفزة في الكفل "

---

١) انظر فصول المقامة في الذخيرة : ١/٢/٦٧٤ - ٦٧٥ .

ثم تمضي المقامة واضعة منازل الريف الاندلسي من الداخل والخارج ، فتتحدث عن فن البناء والزينة داخل الدار : " ثم مال بنا الى بيت فكنس ، منوع مجنس ، قد جلله حصرا بلديه ، وغشاة بسطا بدويه ، ومد فيه شرائط وحبالا ، كأنه يريد أن يخرج خيالا ، وعلّق منها غلائل وملاءات ، والوهاميين وسراويلات ، وكم شئت من خرق معصفرة ، وعصائب مزعفرة ، حتى المقنعة والخمار والدلال المستعار ... " فالمقامة هنا تقفنا على معلومات هامة من المنزل الاندلسي الريفي ، تريناكيف يزخرف ويزين ، وليس هذا فحسب بل " قد اتخذ في الحائط كوّة وثانيه ، وملأها حقاقا وآنية ، وأودعها من عتاد العروس فاخرة ، ومن طيب البادية أوله وآخره . ومن طيب البادية أوله وآخره ، مثل حراقة الورد بالبلان ، وعصارة العصفور بالزعفران ، وشيء من الاشنو ، والاسفنداج ومزاود الزجاج وحبات المستكي واللبان ، وغبار الفوص وقشورالرمان .." ويظهر لنا هنا مدى ماكان للأندلسيين من شغف خاص وولع بالروائح والعطور ، وقد تعجب صاحب المقامة من كل ذلك وسأل مضيفه البدوى " من أين للبداوة بهذا الرونق والطلاوة ، ز وكيف حتى أغرت على حانوت العطار ، ومتى نقل سوق البزالى هذه الدار ؟ لقد قرت بك الأعين ،وسرّت الانفس ،هذا زى العروس ، فيأين العرس " فيضحك البدوى وينشد :

يا أخي نحن على اننا نتاج بدوى
سادة ناس لنا في هذه الدنيا دوى
عندنا ان جاء ضيف شبع جسم ورى
وسرير حشوه ريش الفراريج وطي
وكسراماات كثيرا ت وهيئات وزى

ثم نلاحظ أن المقامة تعمد من خلال الايحاء بالرمز الى شيء من المعاني السياسية ، وذلك عندما هم البدوى باكرام ضيوفه ، عمد الى ديك هرم له ليذبحه ، ولكن الديك يحتج على الذبح قائلا :

" أيها السادة الملوك ، فيكم الشاب متع بالشباب ، والاشيب نور شيبه مع الكواعب والاتراب ، وقد صحبتكم مده ،وسبحت الله تعالى على روؤسكم مرارا عدة ، أوقظكم بالاسحار ، وأوذن بالليل والنهار وقد أحسنت لدجاجكم سفارا ، وربيت لكم من الفراريج اعدادا ، فالان حين بلي في خدمتكم تاجي انعى الى دجاجي ، وتنحى الشفرة على اوداجي ؟ وحين أدركني الشيخ يمزق في لحمي ويطبخ ؟ ياللكرام ، من ذل المقام وجعلت دموعه تنسفخ من دمه ... ، ثم غشي عليه ، فاجتمعت الهداوة من كل ناحية اليه ، يضربون وجهه بالماء ويخلصون له في الدعاء ، ثم أفاق من غشية وأنشد :

علام يقتل شيخ ... من كل ذنب برى ؟
محقق متحر ... موحد سني
هل نص هذا كتاب ... او قال هذا نبي
لا ذنب لي غير أني ... موذن بدوى

واذا علمنا ان المقامة مهداة الى الفقيه ابن الحديدى ،وهو رجل كان له دور بارز في التاريخ السياسي الاندلسي في عهد ملوك الطوائف، فقد كانت دولة بني ذى النون في طليطلة ، تعتمد عليه اعتمادا كبيرا فقد قسم المأمون ابن ذى النون الحضرة قسمين وادار سياستها على رجلين ، فجعل تدبير الاجناد والنظر في طبقات القواد الى ابن الفرج وبقية الاصدار والايراد والنظر لجماهير الناس وكواف البلاد ، والرأى والمشورة الصغيرة والكبيرة الى الفقيه ابن الحديدى "١" ،وأوصى

---

(١) الذخيرة : ق ٤ / ج ١ ص ١٥١ (اخبار الحديدى مع بني ذنون) .
ابن الحديدى : هو يحيى بن سعيد بن أحمد بن الحديدى ، من أهل طليطلة ،يكنى ابا بكر ،كان نبيلا متفننا ،فصيحا مقدما في الشورى ،كانت له مكانة عظيمة عند المأمون ابن ذى النون ،استثقله حفيد المأمون القادر بالله حتى قتل بقصره سنة ٤٦٨ هـ - الصلة : ٢/٦٦٩ ،المغرب : ٢/١٣ .

المأمون حفيده يحيى الملقب بالقادر ـ والذى سيملك بعده ـ " بأن يشد على ابن الحديدى كلكتا يديه ،ولا يفتات بأمر من الأمور عليه ... " .

وكانت مشيخة طليطلة تسعى للتخلص من ذلك الحفيد ، فوقف ابن الحديدى في وجوههم وكشف عن دسائسهم في حياة المأمون فعتب عليهم وأودعهم السجن جميعا ، فلما هلك المأمون (آل الامر الى القادر هذا أخذ من بقي من تلك الحفنة يغرى القادر بالتخلص من الفقيه الذى أنقذه ، وبالفعل أمر بنفيه من طليطلة ولم يسمع لنصيحة ابن الفرج بأن يحفظ للحديدى يده ، فخرج " والدولة متعلقة باذياله وطبقات اعيانها عن يمينه وشماله والعامة بين يديه ومن خلفه يتمسحون بآثاره " وبعد ذلك أمر القادر باطلاق سراح الناقمين على ابن الحديدى ودخلوا البلد سرا ملثمين سنة ٤٦٨ هـ واستدرج ابن الحديدى الى قصر القادر بواسطة صديقه الفقيه ابن المشاط الذى غدر به وأحفا ط به أولئك الاشرار وقتلوه . "١"

" ولما أحست العامة بقتله وهمت بسلاحها من أجله ، ثار اولئك المخرجون في وجوههم ، أطلال في أسمال فأخذ كل واحد منهم بطرف من الطريق وذهب ممن كان هناك من العامة بفريق ، بين صديق لهم يسر ، وعدو يفر ،وتشاغلوا بنهب دور بني الحديدى حين عجزوا عن نصرته وعلموا ان لا سبيل الى كبرته .. " "٢"

فاذا علمنا هذا كله عمن أهديت اليه المقامة عرفنا أن هذا الديك الهرم المستباح الدم ، غلما وعدوانا ماهو للارمز لفقيهنا ابن الحديدى ، ويوضح الكاتب قصده هذا حين يقول على لسان الذيك ، واصفا صاحبة البدوى ، وكأنه يصف حفيد

---

١) الذخيرة : ق ٤ ، ج ١ : ص ١٥٤ .
٢) المصدر السابق : ص ١٥٥ .

المأمون يحيى القادر " لا أكذب ، الحق طريق مستبين ، واتباعه مروءة ودين ، أما انه لعلى خلق عظيم ، كريم ابن كريم ، غير انه لوم في أمرى وأفرط ، وغلط ماشاء أن يغلط " ، ولعل هذا الربط للرمز في هذه المقامة بتاريخ الأندلس السياسي من خلال واقعة الفقيه ابن الحديدى ، يجيب على تساؤلات الدكتور احسان عباس حين وقف على هذه المفاكهة قائلا : " وليس وراء مفهومها الظاهرى ، فيما أرى أية رموز أرادها صاحبها ، اما لماذا قدمها لابن الحديدى وهل لها من صلة بالمقدمة عن فن الكتابة وهل يمكن من سياستها كله استنتاج غاية وراء اظهار البراعة البلاغية فتلك اسئلة لانستطيع ان نجيب عنها " (١)

ثم تنتقل المقامة الى موضوع آخر يعني بالوصف والتصوير واظهار البراعة وذلك عندما يكون المجلس في دار البطاريق ، وملعب الكأس والأبريق ، فيأخذ في وصف هذه الدار وصفا دقيقا يمتع السمع والبصر وكل الحواس حين تمتزج وتتداخل لتسبر أغوار نفسية الكاتب الهائمة بالشراب والملذات المختلفة والمنطلقة من كل قيد ديني أو خلقي " فأصغيت فاذا بصوت ناقوس ، في دير قيسيس ، وقرية آنه ، كلها حانة ، دار البطريق سائمتها الخنازير ، وحياضها المعاصير ، ومياهها الأنبذة والخمور ، وشكلها مثلث مسطوح ، هندسة حواريوا المسيح ، نباتها غطون من قدود ، تهتز في اوراق من برود ... وفيها مدام من رضاب ، وسقاه من كواعب أتراب ، وغيد لمهوى القرط ، وارتجاج لكثب في مرط ، وجولان لنطاق ، وغصص لخلخال في ساق .. ومكوب تكلف وتشغف ، ونفوس تنشأ وأخرى تتلف " والواقع اننا نحس شريطا متحركا من الصور المشربة بروح الواقع الحيوى الذى شهده ، فلم يغادر صغيرة أو كبيرة الا وأبرزها ووقف عندها وتمتع بها ، ومن ثم لم يكن في هذا المقام - للمقامة من غرض سوى الوصف والتصوير واجادتهما .

---

١) تاريخ الادب الاندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) ص ٣١٠

ثم تمضي المقامة لتعالج موضوعا آخر هو " رحلة الصيد " ،ولا يكاد الكاتب يخرج في ذلك عن اجادة الوصف والتعبير مثل الموضوع السابق يقول : " ثم أغذذنا سيرا ، وكأننا ننفر طيرا ، حتى نظرنا من السائمة تسرح في مروجها ،كالعذارى تميس في ديابيجها ، كلأ نضير ، وماء تمير ، ومازلت أروى هناك بالراشبوالميس ، حتى كاد كياني ينقلب الى كيان التيس " وبعد هذه المقدمة تبدأ عملية الصيد والمطاردة " ثم رحلنا وتذكرنا الطراد ، فمشت الجياد ،وتواثبت آسار ،واستعد بباز وكلاب ، فاذا بحر من تبرك يخرقه سفين من برك ،وفي السيور صقور اذا نظرت ، وليوث اذا جردت ، تنظر من أمثال الدنانير وتتخطف بأشباه المرهفة الذكور ،فأرسلناها ارسال سهام الاحداق ، الى قلوب العشاق ، فلم نر الا ريشا محلوجا ، ومنسرا يحسن تودبجا " وبعد ذلك يتجهون الى عين ماء في رقة النسيم ولذاذة الخمر فيقضون يوما حافلا ،بكل مالذ وطاب ، وينقش ابو عامر على مرمرة بيضاء قصيرة يخلد فيها حوادث ذلك اليوم .

وتنتهي المقامة أخيرا بمشهد كأن أبا عامر أراد ان يتطهر مما علق به من الآثام التي اقترفها ،بشرب الخمور والنظر الآثم الى فتيان وجوارى الدير وما الى ذلك ،فيلتقي بفتى هارب مستعينا ((من ظلمات الغواية ، بنور الهداية ، ومن ذل عبادة الأوثان الى عز عبادة الرحمن " ثم يتوجه الى الفقيه ابن الحديدى . فيقص عليه قصته قائلا : " أيها الفقيه للاشياء غايات تنتهي اليها ، ومقادير تجرى عليها ، أما والخلاق العليم ، والفاطر الحكيم ، الذى أسعد قوما بالهداية وأثابهم عليها ، وأشقى آخرين بالضلالة وعذبهم بها ،لقد أنحلتني عبادة الطواغيب فعبدت الصليب وقرعت الناقوس ، وفعلت كل ماقسرت به عين ابليس ،قدر لم يكن ليخطئني ولا يتخفاني الى ان استنقذني ربي وهداني " ثم يعلن اسلامه امام الاشهاد " وأنا اشهد ايها الاشهاد أن الله اله واحد ، وليس له ولد ولا والد ، كان ولم تكن الاكوان لا أرض ولا ماء ولا دخان ، مخترع الكل ومنشئه ، ومعيده ومبدئه ،له المثل

الأعلى ، والاسماء الحسنى"

ولعل أهمية هذه الاغراض المتعددة في المقامة تكمن في كشفها لنا شيئا من تاريخ الاندلس في حوادث سياسية مثل قصة ابن الحديدى ،أو وصف الريف الاندلسي في منزل البدوى ، ورحلة الصيد بالاضافة الى بيان بعض عادات أهل البطالة في الاندلس كالنزول بالاديرة لشرب النبيذ بين الرهبان والقسس ومن حولهم ، ثم أوضحت المقامة ان كثيرا من العبيد كانوا يهربون من ظلمات الجهل ومن سيطرة اسيادهم غير المسلمين الى نور الهداية والعدل الرباني باعتناق الاسلام .

وبجانب ذلك لم تخل المقامة من نزعة العصر الغزلية الماجنة والتعلق بالمذكر ،فالكاتب يصف الشاب الهارب الذى يريد الدخول في الاسلام بقوله : " ذهب عقيق خديه ، ونم شاربه بالتذكير عليه ، متقلد حسام كأنما طبع من لحظة لا من لفظه ،على جواد ظمآن الأسافل كخصريه ، ريان الأعالي كرد فيه ،تستعيذ عيون البرزة من النظر اليه وتزدحم اطماع الفجرة حواليه .

ومثل هذه المقامات تنهج منهج الرحلات غالبا ، حتى يتمكن صاحبها من تنويع الموضوعات والتنقل فيها ، وكل مجلسه او موضوع ينتهي بلازمه شعريه على منهج المقامة التقليدية ، ومثل هذه المقامات كأن هم صاحبها أن يكتب مقامة واحدة جامعة ، تحتوى على عدد من الموضوعات فيتضح اسمه في زمرة المقاميين ، ويكتفي بذلك ،أما الاسلوب فلم يخرج عن اسلوب العصر بجناسه وزخرفته وسائر صنعته .

الباب الثالث

الرسائل الأدبية في الأندلس

أنواعها ، وسماتها

الفصـــل الأول

رسائل السخرية والهزل ، والمناظرات ، ورسائل العاطفة ، ورسائل الوصــــف

لقد كان القرنان الخامس والسادس الهجريان فترة ازدهـــار الأدب شعره ونثره في الاندلس ، حيث نجد حشدا هائلا مـــن الشعراء والكتاب الذين أغنوا الادب العربي بانتاجهم الأدبي . والذى يهمنا في هذا المجال الجانب النثرى والرسائل الأدبية منه على وجـــه الخصوص لأنها هي التي تتناول موضوعات كانت قبل وقفا على الشعر كالسخرية والوصف والعاطفة وغيرها ، كما نقلت الى النثر أهم أدوات الشعر من خيال وتصور وغيرها ، فلذلك تخرج من دائرتها الرسائـــل السياسية لأنها تكون في العادة موجهة من السلطان لأداء مهام معينـــة فينحصر غرضها في جانبي الفكر والصياغة ، كما تخرج أيضا الرسائـــل الاخوانية لأن معظم غايتها يوجه للمناسبة التي صيغت من أجلها ، كالتهنئة والتعزية والشفاعة وما الى ذلك .

وبذلك نعد كل رسالة أدبية نثرا أدبيا ، وليس بالضرورة أن يكون كل نثر أدبي رسالة أدبية ، فلا يعدم الباحث العثور على نصوص نثرية أدبية خلال الكتب المؤلفة في شتى الموضوعات يمكن أن تدخل ضمـن الرسائل الأدبية ، مثال ذلك بعض القطع الوظفية أو الجدلية ، فـي كتب العقائد والفرق ككتاب الفصل في الملل والنحل لابن حـزم . والذى يعتمد الجدل في الرد على الخصوم بأسلوب أدبي كقـولـه "١" : ((واذا أقرت المعتزلة أن أطفال بني آدم كلهم أولاد المشركين وأولاد

---

(١) ج ٣ ص ١٢٤ ، ط بيروت ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

المسلمين في الجنة دون عذاب ولا تقدير تكليف فقد نسوا قولهم الفاسد أن العقل أفضل من عدمه ، بل مانرى السلامة على قولهم وضمانها والحصول على النعيم الدائم في الآخرة بلا تقرير الا في عدم العقل فكيف فارقوا هذا الاستدلال ؟ وأما نحن فنقول : ان من أسعده الله تعالى من الملائكة فلم يعرضهم لشيء من الفتن أعلى حالا من كل خلق غيرهم ثم بعدهم الذين عصم الله تعالى من النبيين عليهم الصلاة والسلام وآمنهم من المعاصي ، ثم من سبقت لهم من الله تعالى الحسنى من مؤمني الجن والانس الذين لا يدخلون النار ، والحور العين اللاتي خلقن لأهل الجنة ، على أن لهؤلاء المذكورين حاشا الحور العين حالة من الخوف طول بقاءهم في الدنيا ثم يوم الحشر في هول المطلع وشنعة ذلك الموقف الذى لا يفي به شيء الا السلامة منه ، ولا يهنأ معه عيش حتى يخلص منه ، وقد تمنى كثير من الصالحين العقلاء الفضلاء ان لو كانوا نسيا منسيا في الدنيا ، ولا يعرضوا لما عرضوا له على أنهم قد آمنوا بالضمان التام الذى لا يخس ، ولقد أصابوا في ذلك اذ السلامة لا يعد لها شيء الا عند عقول المعتزلة القائلين بأن الثواب والنعيم بعد الضرب بالسياط والضغط بأنواع العذاب والتعريض لكل بلية أطيب وألذ وأفضل من النعيم السالم من أن يتقدمه بلاء .))

وفي كتب التاريخ كالمقتبس من أبناء أهل الاندلس لابن حيان القرطبي "١" المتوفي سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة للهجرة ، والذى يمزج

---

١) هو أبو مروان حيان بن خلف بن حيان ، ولد سنة ٣٤٠ هـ في قرطبة ودرس فيها وكان أبوه من وزراء المنصور بن أبي عامر ، شهد أبو مروان الغاء الخلافة الأموية في الاندلس وقيام دول الطوائف وكان من أكبر المؤرخين لهذه الفترة ، ألف في ذلك كتابا سماه " المتين " في ستين مجلد . وقد ضاع هذا الكتاب ولم يصل الينا .
انظر : ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٣٤٥ ، ابن الآبار : اعتاب الكتاب : ١٩١ ، تحقيق صالح الأشقر ، دمشق ١٩٦١م نفح الطيب : ١٦٧/٤ .

فيه الأدب بالتاريخ مع الدقة والتفصيل في تسجيل الحوادث ، أنظر مثلا الى القطعة التالية التي يتحدث فيها عن أولية ابن السقاء القرطبي مدبر ملك بني جهور ووزيرهم : ((كان أبو الحسن ابراهيم بن محمد ابن يحيى المعروف بابن السقا ، قد كابد من شظف العيش في فناء سنه مالا شيء فوقه ، اذ كان يعالج السقط بسويقة ابن أبي سفيان في قرطبة ببضاعة نزره ، وأعلى ما انتقل اليه عند اكداء تلك الحرفة ، الاستخراج في جهة الاحباس ، وارثه عن والده محمد السقاء وبأسبابها خدم القضاة ، وتمرن مع الفقهاء ، وهو يقتات معيشته مياومه ، ويأوى ليله الى بيت في دويرة والده محمد بجوفي المسجد الجامع يحاضر فيه جماعة اخوة لا يجد بينهم الى مد ساقه سبيلا ، وماهو الا أن حمل الأمانة على كاهله فوضعها أسفل رجله ،وتذكر عض الكلاب لعصاه ، فتحول جرذا للسرقة والخيانة ، وابتنى القصور المنيعة ، واقتنى الضياع ، الى أملاك لا تحصى كثيرة)) "١" .

كما نجد قطعا من النثر الأدبي في بعض الترجمات ، كما في مقدمات ابن بسام في الذخيرة والفتح بن خاقان في كتابه قلائد العقيان . يقول ابن بسام في ترجمته لابن زيدون مثلا : " كان ابو الوليد بن زيدون غاية منثور ومنظوم ، وخاتمة شعراء بني مخزوم ، أحد من جرّ الأيام جرا ، وفات الأنام طرا ، وصرف السلطان نفعا وضرا ، ووسع البيان نظما ونثرا ، الى أدب ليس للبحر تدفقه ولا للبدر تألقه ، وشعر ليس للسحر بيانه ، ولا للنجوم الزّهر اقترانه ، وحظ من النثر غريب المباني شعرى الألفاظ والمعاني ... " .

كما قدم لابن شهيد بقوله : "٢" " كان أبو عامر شيخ الحضرة العظمى وفتاها ، ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاها ، وينبوع آياتها ،

---

١) ص ١٣٠ ، تحقيق محمود مكي ، بيروت ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م .
٢) الذخيرة ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٣٣٦
٣) ق ١ ، ج ١ ص ١٩٢ .

ومادة حياتها ، وحقيقة ذاتها ، وابن ساستها وأساتها ومعنى أسمائها ومسمياتها ، نادرة الفلك الدوار ، وأعجوبة الليل والنهار ، ان هزل فسجع الحمام ، أو جد فزئير الأسد الضرغام ، نظم كما اتسق الدر على النحور ، ونثر كما خلط المسك بالكافور ، الى نوادر كأطراف القنا الأملود ، تشق القلوب قبل الجلود ، وجواب يجرى مجرى النفس ، ويسبق رجع الطرف المختلس " .

ويقول ابن خاقان في ترجمة ابن زيدون "(١)" زعيم الفئة القرطبية ، ونشأة الدولة الجهورية ، الذى بهر بنظامه ، وظهر كالبدر ليلة تمامه ، فجاء من القول بسحر ، وقلده أبهى نحر ، ولم يصرفه الا بين ريحان وراح ، ولم يطلعه الا في سماء مؤانسات وأفراح ، ولا تعدّى به الرؤساء والملوك ، ولا تردى منه الا حظوة كالشمس عند الدلوك ، فشرّف بضائعه ، وأرهف بدائعه وروائعه ، وكلفت به تلك الدولة حتى صار ملحج لسانها ، وحلّ من عينها مكان انسانها ، وكان له مع أبي الوليد ابن جهور تآلف أحرما بكمبته وطافا ، وسقياه من تصافيهما نطافا ، ... الى أن وقع له طلب أصاره الى الاعتقال وقصره عن الوخد والارقال .... "

وقد قسمت الرسائل الأدبية التي استطعت جمعها حسب الموضوع الذى تناولته أوغلب عليها فكانت الأقسام التالية :

أولا :

رسائل السخرية والهزل : وأشهر رسالة أدبية أندلسية في

---

١) قلائد العقيان : ٧٩ .

رسالة ابن زيدون "١" المسماة بالهزلية وموضوعها أن الكاتب أحب الأديبه ولادة "٢" بنت الخليفة المستكفي وقد نافسه في حبها الوزير ابن عبدوس "٣" ، وقد كتب ابن زيدون هذه الرسالة على لسان ولاده الى خصمه المذكور يسخر منه ويحقّره .

---

١) هو : أحمد بن عبد الله بن زيدون ، ولد بقرطبه سنة ٣٩٤ هـ في بيت من بيوت أعيانها ، فأبوه فقيه من سلالة بني مخزوم القرشيين . درس الأدب والنحو واللغة ورواية الشعر على عدد من العلماء في جامع قرطبة الكبير ، وزر لابن جهور ، ثم نسبت اليه مؤامرة على السلطان فأودع السجن حتى سنة ٤٤١ هـ حيث فر الى اشبيلية ، وتوفي سنة ٤٦٣ هـ - انظر ترجمته : الوفيات ١/١٤١ ، الذخيرة : ق ١ ج ١ ص ٢٩٠ ، شوقي ضيف ، ابن زيدون : ١٥-١٦ ، .

٢) هي : ولادة بنت المستكفي بالله ، أديبة شاعرة ، جزلة القول حسنة الشعر ، كانت تخالط الشعراء وتساجل الأدباء ، توفيت سنة ٤٨٤ هـ / انظر الظلة : ٦٩٦ ، النفح : ٥/٣٣٨ .

٣) ابن عبدوس : أبو عامر ، أحمد بن عبدوس ، ولي الوزارة بقرطبه لم يترك آثارا أدبية ولعله مدين بشهرته لابن زيدون فيما وجهه اليه من رسائل واشعار ./ النفح ٣/٢٦٨ ، ٤/١٠٠ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ولم يخصه بترجمة ، وانظر ديوان ابن زيدون : ٣٠ ، تحقيق سيد كيلاني ، القاهرة ١٣٨٥ هـ ١٩٦٥م .

تحليل الرسالة :

تسير الرسالة على تدرج زمني ينبئ عن بناء محكم دقيق ومتلاحق ، فتبدأ باشارات الى أشخاص من أبناء الأمم القديمة كالنبي يوسف - عليه السلام - حاسنك فغضضت منه ، وان امرأة العزيز رأتك فسلت عنه ، وان قارون أصاب بعض ماكنزت ... وكسرى حمل غاشيتك وقيصر رعى ماشيتك .. " ، ويتبع ذلك باشارات الى الجاهليين ككليب ، والسليك ، وقيس بن زهير وغيرهم كثير حيث يقول : " .. وكليب بن ربيعة انما حمى المرعى بعزتك ، وجساسا انما قتله بأنفتك ومهلهلا انما طلب ثأره بهمتك ، والسموءل انما وفى عن عهدك ، والسليك بن السلكه انما عدا برجليك ، وعامر بن مالك انما لاعب الاسنة بيديك ، وقيس بن زهير انما استعان بدهائك " ث.

ثم يأتي بعد ذلك بطائفة من العلماء والفلاسفة القدماء فيقول : (" ... وان هرمس أعطى لينوس ما آخذ منك ، وأفلاطون أورد على ارسطاليس مانقل منك ، وبطليموس سوى الاصطرلاب بتدبيرك ، ... وبقراط علم العلل والامراض بلطف حسك ، وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدقة حدسك .. ".

ويتبعهم بعض المشهورين من علماء المسلمين : " ... وأظهرت جابر بن حيان على سر الكيمياء ، واعطيت النظام أصلا أدرك به الحقائق ، وجعلت للكندى رسما استخرج به الدقائق .. "

وهكذا نجد فالرسالة ذات قسمين كبيرين :

الاول : يعني بالاشارة الى أشخاص متباينين في المنازل والافكار ، والاتجاهات والمعارف .

والثاني : سرد للامثال كقوله : " فكدمت في غير مكدم ، واستسمنت ذاورم ونفخت في غير ضرم .. بل رضيت من الغنيمة بالاياب ، تمنيت الرجوع بخفى حنين ، لاني قلت : لقد هان من بالت عليه الثعالب وأشدت :

على انها الايام قد صرن كلهـــا
عجائب حتى ليس منها عجائـــب "١"

ونجد الكاتب يربط بين القسمين ببراعة لتظهر الرسالة في وحدة متكاملة ، والسخرية هنا نابعة من اعطاء صورة الشخصية واحلالة بغير رتبتهـا الاحاطة بكل هذه الاشياء المتقدمة ، كأنما اجتمعت فيها ضروب مـــن المقدرة والمعرفة ليست بمقدور البشر .

الخصائص الفنية للرسالة :

يرمي ابن زيدون الى اظهار صورتين متناقضتين تماما لخصمــــه ابن عبدوس ، الاولى صورته الحقيقية ، والثانية مايعتقده هو فـــي نفسه فالاولى يمثلها قوله "٢" : " ... أيها المصاب بعقله المورط بجهله ، البين سقطه ، الفاحش غلطه ، العاثر في ذيل اغتراره ، الاعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب ، فان العجب أكذب ، ومعرفة المـــرء نفسه أصوب ، وانك راسلتني مستهديا من صلتي ما صفرت منه أيدى أمثالك ، متصديا من خلتي لما قرعت دونه أنوف أشكالك ، مرسلا خليلتك مرتادة ، مستعملا عشيقتك قوادة ، كاذبا نفسك انك ستنزل عنها اليّ وتخلف بعدها عليّ .

ولست بأول ذى همة دعته لما ليس بالنائل

ولا شك انها قتلتك اذ لم تضن بك ، وملتك اذا لم تغر عليك فانها أعذرت في السفارة لك ، وما تقصرت في النيابة عنك ... " . ثم يصفـــه بأوصاف حسية ومعنوية تسلبه كل محمدة ومكرمة مادية ومعنوية كقوله : " ... كلامك تمتمة وحديثك غمغمة ، وبيانك فهفهة ، وضحكك قهقهة ، ومشيك هرولة ، وغناك مسألة ، ودينك زندقة ، وعلمك مخرقة .

---

١) انظر الرسالة كاملة مع شرحها في كتاب سرح العيون لابن نباتـــه المصرى ، تحقيق أبو الفضل ابراهيم ، ط القاهرة : ١٣٨٣ هـ ١٩٦٤ م .

٢) سرح العيون : ص ٣ ، والكلام هنا على لسان ولادة بعد ان بعث اليها ابن عبدوس احدى النساء لتستميلها نحوه .

مساو لو قسمن على الغواني

لما أمهرن الا بالطلاق .. "

وتبلغ السخرية قمتها بتناقض المواقف والتي تتبعها مثاليات مضحكة تولدها مفارقات الموقف الكلي ، فالمهجو يظن نفسه في الصورة الثانية كما يقول الكاتب : " ... انك انفردت بالجمال ، واستأثرت بالكمال ، وساستعليت في مراتب الجلال ، واستوليت على محاسن الخلال ... " هذا التناقض مدعاة للسخرية حين ترى جانبين للشخصية الماثلة أمامنا : تارة نراها من وجهة نظرها مثالا للكمال واخرى من وجه نظر خصمها مثالا للمعايب والمساوئ ولعل مرد هذا التناقض الى المعجزات والمحالات التي يأتي بها الكاتب اذ يقول : " .. وانك لو شئت خرقت العادات ، وخالفت المعهودات ، فأحلت البحار عذبه ، وأعدت السلام "١" رطبه ، ونقلت غدا فصار أمسا ، وزدت في العناصر فكانت خمسا ...

وليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد .. "

ومثل هذه الرسائل تميل الى الحوار والجدال ، حتى تكون أقدر على اظهار الصورتين المتناقضتين بالقاء اكبر قدر من الضوء على كل صورة " ... كيف رأيت لؤمك لكرمي كفاء ، وضعتك لشرفي وفاء ؟ وانني جهلت أن الاشياء انما تنجذب الى اشكالها والطير انما تقع على الافها ، وهلا علمت ان الشرق والغرب لا يجتمعان ، وشعرت ان المؤمن والكافر لا يتقاربان أو قلت الخبيث والطيب لا يستويان .. " .
والاسلوب عموما يقوم على سعة الثقافة عند ابن زيدون عن تمثيل بحوادث ووقائع من الجاهلية :

---

١) السّلام : الحجارة الصلبة .

" والله لو كساك محرق البردين "١" ، وحلتك ماريه "٢" بالقرطين ، وقلدك عمرو "٣" الصمصامه وحملك الحارث على النعامة "٤" ... " .

هذا بجانب الاقتباس من القصص القرآني كقصة يوسف عليه السلام ، وقصة قارون وأمواله ، وما الى ذلك . بالاضافة الى الاستشهاد بوقائع الأمم الاخرى وضروب علمهم وثقافتهم ، وخاصة فلاسفة اليونان كافلاطون وأرسطو طاليس وجالينوس .

والأسلوب - بعد - مغرق في حل الحكم والامثال " فالنار ولا العار " و " تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها " بجانب تضمين الشعر منثورا ومشطورا ، حتى صارت الرسالة معرضا لثقافة كاتبها .

وهناك رسالة أخرى في نفس الغرض لمحمد بن مسعود القرطبي "٥" ، خاطب بها ابنه لما توجه الى الغرب وقد بلغه خلعه اوه في البطالة والشرب : .

---

١) محرق ، هو عمرو بن هند ملك الحيرة ، لقب محرق لتحريقه مائة من بني تميم ، ويقال : ان وفود العرب كانت عنده فأخرج بردين ، وقال : ليقم أعز العرب قبيلة فليأخذهما .

٢) هي مارية بنت ظالم زوجة الحارث الغساني ، اشتهرت بقرطين أهدتهما الى الكعبة .

٣) هو عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، اشتهر بشجاعته وسيفه الصمصامة ، أدرك الاسلام وأبلى في الفتوح .

٤) هو الحارث بن عباد التغلبي سيد وائل في الجاهلية ، والنعامة اسم فرسه . (هذه التعريفات منقولة عن سرح العيون : ص ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦) .

٥) هو ابو عبد الله محمد بن مسعود القرطبي : قال فيه ابن بسام : كان رحمه الله ظريفا في أمره ، كثير الهزل في نظمه ونثره ، وأراه فيما انتحاه ، تقيل منهاج سميه وكنيه محمد بن حجاج بالعراق ، فضاقت ساحته ، وقصرت راحته واعياه الصريح فمذق ، ولم يحسن الصهيل فنهق . الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٥٤٩ . وانظر ترجمته في المغرب في حلى المغرب : ١/١٣٤ ط القاهرة ١٩٦٤ م .

وغرض الرسالة يظهر من عنوانها فهي سخرية وتهكم ممزوجة بالتقريع من قبل الأب لابنه المنصرف عن الجادة ، وصاحب الرسالة هنا يصور لنا ابنه بصورتين مبالغ فيهما ، الصورة المثالية والصورة الواقعية ، وحينما نمازج بين الصورتين تطالعنا تلك الصورة " الكاريكاتورية " الساخرة .

ولعل ابن مسعود يختلف عن ابن زيدون باضافة الاسئلة المعجزة الى رسالته ، وهي ضرب من الاسئلة يعلم طارحها قبل غيره استحالة الاجابة عليها ، ولكن قصده من ايرادها ان يجعل من وجهها اليه اضحكوكة ، فيسأله ان يصف له في رحلته تلك " مبيض العنقاء " ، والفلاة الخرقاء يوم البلقاء ، والثنية الخلقاء ، ومرسي الزرقاء ، وايوان كسرى .. والهرمين والمنار ، وجبل اللكام والغار ، وغانه السودان وغرائب البلدان وفيفاء بني تميم ، والكهف والرقيم ، وحلق وادى الاشبونة ومدينة جيبونة ..

لقد اجترأت على الزمان وأهلــه

ولقيت كل غريبــة شنعـــاء

وخرجت منها كالشهاب ولم تــزل

مذ كنت خراجــا من الغماء " "١" .

والاسلوب اللغوى عموما يعني باستعراض ثقافة الكاتب بكثرة الاستشهادات والاشارات والمعارف العلمية والتاريخية والاسطورية كقوله : "٢" " .. وعليك يابني بالشجرة الجامعة والليان ، من عيون ذوى الحسد والشنآن ، فأين منك الحية النضناض ، وسليك بن السلكة والبراض ؟ أو ما سمعت ان السفر الطويل ، يرد خشبة البدء الى عويد قنديل ؟ صح عندى إن العسل في تلك الجهة غير منال ومنحط غير عال فتناول اقامته وتركيبه ، واتقن صناعته وتربيته " .

---

١) الرسالة في الذخيرة ، ق ١ ، ج ٢ ص ٥٥٠ - ٥٥١ ، والبيت الثاني لابي تمام . انظر ديوانه : ١٦/١ ، تحقيق محمد عبده عزام ، ط القاهرة ١٩٦٤م .

٢) الذخيرة : ق ١ ج ١ ص ٥٥١ .

كما أن هناك رسالة لأبي عبد الرحمن "١" بن طاهر يسخر فيها من بعض اخوانه وقد حضر محاصرة مدينة شاطبة "٢" ونلاحظ في أولها المظهر الجاد الوقور ، ولكنه يتضمن قدرا كبيرا من التهكم حين يقول : "٣"

" سيدي الأعلى وظهيري في الجلي أطال الله بقاك ، وأدام تمكينك وعلاك ، تابعت الي - أعزك الله - مطالعتك الكريمة بعادتك من الحسن والفضل ، فكان لها موقع القطر في زمن المحل ، ورأيت مآل الامر اليه بوقوع الحرب وشروع النقب ، وانه وضعت الملاطيس فقلت الآن حمي الوطيس ، وأرجو ان يصحب الوطر ويسعفني القدر بحول الله وقدرته . وحدثت انه دعي الى نزال فكنت أول نازل ، فقلت لمحدثني أمجد أم هازل ؟ .. سيدي - اعزه الله - أشد بأسا وأعز نفسا من أن يرى يوم جلاد الاعلى ظهر جواد ، فان لبس زغفا هزم ألفا ، وان تقلد صمصامه لم يبق هامه ولكن اذكره بهزه الشهامه قول ابي دلامه :

ولو أن برغوثا على ظهر قملة
يكر على صفي تميم لولت "

---

١) قال ابن بسام : كان أبو عبد الرحمن بن طاهر أحد من جمع الحديث الى القديم وارتقي من رياسة الاقلام الى سياسة الاقاليم ، واتفق لبني طاهر بالفتنة المطفية رياسة كدرة مرسيه / الذخيرة ق ١ ج ١ ، ص ٢٤ . وقال فيه ابن خاقان : به بدئ البيان وختم وعليه ثبت الاحسان وارتسم ، وعنه افتر الزمان وابتسم وأورد له نثرا ، وذكر أخذ ابن عمار مرسيه من يده وانحيازه الى بلنسيه ، وحضوره وفاته بها سنة ٥٠٧ وقد نيف على التسعين .

انظر ترجمته : قلائد العقيان : ٦٤ ، المغرب في حلى المغرب : ٢٤٧/٢ ، لسان الدين بن الخطيب : اعمال الاعلام : ٢٣٢ ، الذيل والتكملة : ٥٩٠/٢ .

٢) شاطبه : مدينة في شرق الاندلس تقع شرقي قرطبه وهي مدينة كبيرة ، قديمة ، قد خرج منها خلق من الفضلاء ، ويعمل الكاغد الجيد فيها ويحمل منها الى سائر بلاد الاندلس . ياقوت الحموي : معجم البلدان : ٣٨/٣ .

والرسالة تسخر بالشجاعة المزعومة لذلك الصاحب الذى صوره الكاتب بطلا هماما ، بينما هو في حقيقته ضعيف جبان . وقد سلك الكاتب في الرسالة مسلك الجد ليمهد للسخرية والاستخفاف بعقل ذلك المهجو .

وهناك رسائل سخرية أندلسية تنهج نهجا قصصيا يعتمد فيها الكاتب على ايراد حادثة تسخر بالخصم وتكشف ضعف عقله ، ومن أمثلة ذلك رسالة أبي عامر بن شهيد التي يسخر فيها من أبي عبد الله الفرضي "١" ، وقد كان هذا الفرضي يشتغل بالكيمياء ومن ثم قصده أبو عامر من هذا المنحى ، والرسالة فيما يبدو موجهة الى الأمير علي ابن حمود حيث كان الفرضي وزيره بدليل قول ابن شهيد في أولها : "٢" " ... فلا بد من تعريف الموفق - وفقه الله - أصل هذا الفاسق وفرعه ، وان كلفته تطويل سجعه . صحبته منذ اعوام أيام اختلافنا الى الزاهرة ، واذ تلك المواطن قائمة غير داثره ... وكنا كثيرا ما نتدارس ضروب العلم : من أدب وخبر وفقه وطب وصفه وحكمه ، على أنه في أهل الفهم واو عمرو .. وكان ولا أشعر - يدالس ويوالس ... وصار في ذلك وضح النهار ، ونفخة الزمار ، لو لمس البدور ولعاد تزليوفا، أو تناول الشموس لغشاها كسوفا . "

ثم تبدأ القصة المثيرة بزيارة ابن شهيد له "٣" وقصدته يوما على جهل بتلك الخليقة منه لاستريح اليه والقي من شيئي عليه ،فألفيته

---

١) هو ابو عبد الله محمد بن الفرضي وزير يحيى بن علي بن حمود (٣١٢ - ٣١٣) ، وكان خصما لابن شهيد ، ق ١ ج ١ ص ٢١٤ . وقال فيه ابن عذارى : واستوزر (يعني علي بن حمود) محمد بن الفرضي الكاتب فكان آخر شيء على دولته وارتقب بأهل البيت حلول الجنة فقديما استعاذوا بالله من وزارة السفلة . البيان المغرب : ٣/ ١٣٢ .

٢) الذخيرة : ق ١ ج ١ ، ٢٢٠ .

قد خلا بابه ، وغاب بوابه فولجت فثار الى صبي غرير اصبته هنالك قائلا لي : طال انتظارنا لك وتقدمني وسرت حتى انتهيت الى دار ذات أجوان قد غشيها دخان كقطع العنان ، تعبق منها صنان من زرنيخ وكبريت ، وزنجفور ، وانزروت ، فتذكرت (يوم تأتي السماء بدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب اليم) "(٢)" فاستشعرت الشر وأردت العز ثم التفت فاذا انا باكداس جمر وآلات تبر ، واشخاص سود وصفر ، ثم أفضيت الى بيت فيه عدة أشباح كأنها قباض الارواح غرابيب بأيديهم كلاليب .. فلما رأوني صاحوا : فضحكم الواغل فامحقوه من عاجل ، فلما نظرت الى المنية ، وخشيت فصل القضية ، ضحكت اليهم وقلت : تخطتكم النعمة ، ولا هديتم سبيل الحكمة ، أهكذا تعجلون ، ولا تدرون من تريدون ؟ قالوا : ومن انت ؟ قلت : من أخذ الطلق فسحقه بالمرق ، وشعق بيد الذكاء عن زهرة الاشياء ، فبشر الاباء بالابناء . فقالوا : بنار أم بماء ؟ قلت : بهما جميعا وبهواء . فأومضوا الي ضاحكين ، واستقبلوني معتذرين وقالوا : كدت والله أن تلتهم .. قلت : وأين ابو عبد الله ؟ قالوا : انفرد يرقق ماء بيض ويصفق دم حيض وغرضه استخراج دهن الحجر الكريم ، فقلت : حبس حديث او قديم ؟ فنادوا : آواه ، آواه على الخبير سقطتم ، ثم تلطفت وخرجت تطير بي رجلاي ، وقد حقن الله دمي بعطفه ، واستنقذني من يدى منيتي بلطفه ... " .

وهكذا ترى ابن شهيد يستخف بعقل ابن الفرضي واشياعه في تلك المهنة الخطيرة وقد عبر عن ذلك برسم صورة مضحكة لهم فهم اشباح مخيفون في وسط جو غائم بأنواع الدخان المختلفة الصادرة عن مختلف العقاقير وقد سلك الى ذلك سبيل الحوار القصص الساخر في حديثه مع اولئك الاشخاص " السود والصفر " . وكيف استطاع ان يحتال عليهم

---

١) الذخيرة : ق ١ ج ١ ٢٢٠ .
٢) سورة الدخان : آية " ١٠ - ١١ " .

فيرضي عقولهم السخيفة بايهامهم أنه من أمثالهم وداخل في اطارهم ، وان له باعا طويلا في هذه الصنعة ، وهو بهذا يريد ان ينفذ الى التندر بسيدهم الوزير ابن الفرضي الذي مهد لهم هذا العمل وانفرد عنهم " يرقق ماء بيض ويصفق دم حيض " !

وهناك ايضا رسالة لابن شهيد نفسه الى الوزير ابن عباس في هجاء وسخرية بابن الاخليلي "١" الذى كان يكيد لابن شهيد عند ذلك الوزير حتى تغير عليه وتبدلت احواله معه يقول "٢" : " فأنعمت البحث واعملت لطائف الكشف حتى صح عندى انه كدر صفوك علي ، وغير شريك لدى ، فقلت : من هاهنا أتينا ، وعن هذه القوس اللئيمة رمينا ، وقصصي مع هذا الملج طويل ... " ثم يبدأ بتنقصه والتندر به قائلا : " وماكان هذا القرد أهلا لان يحمل عليه حر كلام ولا ليرمي بفضل بيان ، وباطرا ان يرقم على عتبة دكان ، أو يصور على باب حمام وقد غرس في وجعائه رأس نخله ، وخبيء في سعقها عش نحله ، أو ينقش في خاتم قيمار ، وقد علاه خنزير ، وعطس مستنجاه بابرة زنبور فانه يقبه

---

١) ابن الاخليلي : ابراهيم بن محمد بن زكريا الزهرى ، أبو القاسم ، حدث بكتاب النوادر للقالي ، وكان متصورا في الادب يقرأ عليه ، وكان عالما بالنحو واللغة متكلما في معاني الشعراء واقسام البلاغة ، وله كتاب شرح فيه معاني شعر المتنبي . قال عنه ابن حزم . وهو كتاب حسن / جذوة المقتبس : ١٥١ .

شعر المتنبي قال عنه ابن حزم ، و

وذكر ابن بشكوال انه ولي الوزارة للخليفة المستكفي بالله ، وان مولده سنة ٣٥٢ هـ ، ووفاته سنة ٤٤١ هـ ، الصلة : ١/٩٣ ، الذخيرة : ق ١ ج ١ ص ٢١٤ .

٢) الذخيرة : ق ١ ج ١ ص ٢١٤ .

من بني اسرائيل الذين استحلوا الحرام ، واجترحوا السيئات والآثام ، فلما عتوا عما نهوا عنه ،قيل لهم (كونوا قردة خاسئين ، فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين) "١" . فأى صورة أجلب للسخرية والاستهزاء والضحك من هذه الصورة التي رسمها أبو عامر بقدرته الفنية الساخرة لابن الافليلي .

رسائل السخرية بين المشرق والاندلس :

لعل الباحث لا يحتاج الى عناء في الدليل على أن الجاحظ سباق الى هذا المجال دون منازع . وهذا اللون نجده مبثوثا في معظم كتبه حتى كاد يكون طابعه العام ، ولعل أشهر آثاره في ذلك رسالته الموسومة " بالتربيع والتدوير " ، والتي يسخر فيها بشخص يسمى أحمد بن عبد الوهاب "٢" ، ذلك الرجل الذى كان يدعي العلم وبسطة الجسم ، ويطاول الجاحظ ويخاشنه على حد قول الجاحظ في الرسالة . كما ان للجاحظ رسالة أخرى تسمى رسالة " الجد والهزل " "٣" ، تنحو هذا المنحى ، ولعل الكتاب والادباء الاندلسيين اطلعوا على "٤" ماكتب الجاحظ في هذا المجال فاحتذوا حذوه وتأثروا طريقته .

---

١) انظر الى الآية : ٦٥ - ٦٦ من سورة البقرة .
٢) احمد بن عبد الوهاب : من كتاب الدواوين ايام الواثق . وكانت له بمحمد بن عبد الملك الزيات يقول الجاحظ انه يماني ، ويتهمه بالرفض حيث يقول له في رسالته هذه : " ... واستبدل بالرفض الاعتزال " ويبدو أنه رحل بعد انقطاع أمره في بغداد الى مكة ، وفيها أدركته رسالة الجاحظ : انظر ترجمته في الاغاني : ٣٢/٢١ ، ط الساسي ، عبد الكريم شتر ، نصوص مختارة من الأدب العباسي : ٢٠٩ ، ط بيروت ١٩٦٩م
٣) رسائل الجاحظ : ٢٣٥/١ - ٢٣٦ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط القاهرة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤م .
٤) ذكر ياقوت في معجم الادباء : ٧٤/٦ ، ان رسالة التربيع والتدوير اول ماوصل الاندلس من تراث الجاحظ . ونستشف اطلاع ابن زيدون على ادب الجاحظ من نص كلامه حيث قال : " ولو اني أوتيت في النثر غزارة عمرو وبراعة سهل " الذخيرة : ق ١ ج ١ ص ٣٣٨

وهذا مما يتضح من الرسائل التي مرت بنا آنفا وبخاصة رسالة ابن زيدون وابن مسعود فقد اتبعتا نفس اسلوب الجاحظ الفني في عرض الصورتين المتناقضتين للمهجو ، الا ان الفرق كان واضحا بين الاستاذ والتلاميذ فقد امتاز عنهما بقدرته الفنية في عرض الصورتين المتنافرتين داخل اطار واحد دون فصل بينهما بحيث يحس القارئ في العبارة الواحدة التباين بين مايعتقده ابن عبد الوهاب في نفسه وبين ماهو حقيقي فيه ، وهذا أدعى للازدراء واكثف تجسيما للصورة الساخرة كقوله : "١" " كان احمد ابن عبد الوهاب مفرط القصر ويدعي أنه مفرط الطول . وكان مربعا وتحسبه لسعة جفرته واستفاضة خاصرته مدورا . وكان جعد الأطراف قصير الأصابع ، وهو في ذلك يدعي السباطة والرشاقة ، وانه عتيق الوجه ، اخمص البطن ، معتدل القامة ، تام العظم وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ ، وهو - مع قصر عظم ساقه - يدعي أنه طويل الباد ، رفيع العماد ، عادى القامة ، عظيم الهامة ، قد اعطي البسطة في الجسم والسعة في العلم ... " فأى نقيصة بعد ذلك ماديه أو معنوية لم يلصقها الجاحظ بهذا الرجل . وكما كان الاحتذاء واضحا في الفكرة عند ابن زيدون وابن مسعود فانا نلمسه ايضا في الجمل والعبارات وطريقة الأداء ، انظر الى قول ابن زيدون في رسالته السالفة موجها كلامه لابن عبدوس "٢" " ونخرت وكفرت ، وهمست وبسرت وبدأت واعدت وابرقت وارعدت ، " وهممت ولم أفعل وكدت وليتني " ولولا ان للجوار ذمه ، وللضيافة حرمة ، لكان الجواب في قذال الدمستق والنعل حاضره ان عادت العقرب ، والعقوبة ممكنة ان أصر المذنب " .

وقول الجاحظ في رسالته الجد والهزل "٣" : " فلو كنت اذا

---

١) رسالة التربيع والتدوير ضمن مجموعة رسائل الجاحظ : ص ٩٤ ، ط بيروت ١٩٧٢م

٢) سرح العيون : ٥ - ٦ .

٣) رسائل الجاحظ : ١/٢٥٧ - ٢٥٨ .

أردت ما أردت ، وحاولت ما حاولت ، رفعت قبل كل شيء المؤانسة ثم أبيت المؤاكلة ، ثم قطعت البر ، ثم أذنت مع العامة ، ثم أعلنت الحرمان ، ثم صرحت بالجفوة ، ثم أمرت بالحجاب ، ثم صرمت الحبل . . . الخ " .

كما نجد الجاحظ يقول : عن أحمد بن عبد الوهاب - مستخفا به عن طريق مايوجهه اليه من أسئلة يعجز عن الاجابة عنها . -"(١)".

أ حدثني كيف رأيت الطوفان ، ومتى كان سيل العرم ، ومذ كم مات عوج ، "٢" ومتى تبلبلت الألسن ، وماحبس غراب نوح "٣" ، وكم لبثتم في السفينة ، ومذ كم كان زمان الختان ، وخبرني ما عنقاء مغرب ؟ "٤" وما أبوها وما أمها . . . "

وقد قلده الأندلسيون في ذلك حتى اننا نجد ابن مسعود في رسالته المتقدمة يطلب ممن وجهها اليه ان يصف له " مبيض العنقاء . . . الذى ورد ذكره في رسالة الجاحظ .

ونجد في رسالة الجاحظ ذاته المتفوقة المستعلية المعتزة بعلمها " وكيف يرجو غيرك من يراك تطاول ابا جعفر وتخاشنه وتنافره ، وأشهد بعد أنكم تخاشن عمرو بن بحر الجاحظ ، وتعاقله ثم تظارفه

---

١) المصدر نفسه : ٩٦ .

٢) هو عوج بن عوق : رجل قيل انه من ولد آدم - عليه السلام - عاش الى أيام موسى . انظر اللسان : مادة (عوج) .

٣) هو الغراب الذى بعثه نوح . . وهو في الفلك . . بعد انقطاع الطوفان ليرى هل جفت الارض فلم يعد اليه .

٤) عنقاء مغرب : طائر اسطورى يوصف بالضخامة والشراسة ، وقيل أنه يذهب بكل مايأخذه ، فسمي مغربا .
انظر اللسان (مادة عنق) جـ ١٠ ص ٢٧٦ .

وتطاوله " "١" أو في قوله بعد أن طرح مائة مسألة معجزة " وقد سألتك ، وان كنت أعلم انك لا تحسن من هذا قليلا ولا كثيرا .. فان أردت أن تعرف حق هذه المسائل وباطلها وما فيها محال ، وفيها صحيح وما فيها فاسد ، فالزم نفسك قراءة كتبي ولزوم بابي .. " "٢"

والرسالة - بعد - ذات سخرية حادة تصدر عن مزاج طبع على التهكم والهزل هو جماع شخصية الجاحظ بتكويناتها النفسية المعقدة كما تحوي كل خصائص الجاحظ الفنية من بعد عن السجع وايثار للازدواج مع ثقافة عريضة ، تظهر في الاستطراد المحكم والخروج من باب الى باب ، كل ذلك في اطار من الجدل والحوار والاحتجاج في ثوب من الشعر والامثال والحكم والاحاديث والقصص .

رسائل الهزل في الاندلس :

تتميز هذه الرسائل عن رسائل السخرية بأنها توظف طاقة اكبر للهزل والتندر ، وقد كان البخل والبخلاء مادة غزيرة لهذا اللون من الرسائل - وقد تزعم ابن برد الاصغر "٣" هذا اللون في الاندلس حين كتب رسالتين يتندر فيهما بالبخل والبخلاء وهما البديعة والنخلية .

---

١) رسائل الجاحظ : ١٠٩٥
٢) المصدر نفسه : ١٣٠
٣) هو أحمد بن محمد بن برد مولى احمد بن عبد الملك بن شهيد ، ابو حفص الكاتب ، طبع الشعر بليغ الكتابة ، من أهل أدب ورياسة له رسالة في السيف والقلم والمفاخرة بينهما وهو أول من سبق الى القول في ذلك بالأندلس ، عاش بعد الاربعين والاربعمائة .
جذوة المقتبس : ١١٥ ، ط مصر ١٩٦٦ .
قال فيه ابن بسام : كان ابو حفص بن برد الأصغر في وقته فلك البلاغة الدائر ومثلها السائر ، نفث فيها بسحره ، وأقام من أودها بناصع نظمه وبارع نثره وله اليها طروق ، وفي عروقها الصالحات عروق ، اذ كان جده ابو حفص الأكبر واسطة السلك وقطب رحى الملك بالحضرة العظمى قرطبه في ايام سليمان وغيره من ملوك بني عامر وبني مروان ، وأول ما يشهد أن آل برد ==

أما النديمة فهي في تفضيل أهب الشاة على ما يفترش من الوطاء ، وغرضها في ظاهره الرد على من عابوا الكاتب باستعمال جلود الشياه ، فيجرى معهم جوارا فكريا يدافع فيه عن وجهة نظره في استعمال هذه الفرش ، فهو لا يفضلها لبخل أو شح فيه بل لبعد نظر عنده حين رأى فيها منافع غابت عن الناس .

والرسالة في مجملها تحليل لنفسية رجل بخيل وسبر اغوارها لنطلع على مجاهل مستتره لهذا الضعف الانساني ، والمرتكز الفني لاسلوب هذا اللون من الرسائل يقوم على الجدل والاحتجاج وايراد الادلة لهدم الآراء ومن ثم نرى وجهين للموضوع المعروض :

وجهة نظر السائل المنكر ووجهة نظر المدافع القائل بصدق رأيه .
ويبدأ الكاتب أولا بسرد وبسط رأى الشخص المتهم وجوهر دعواه معددا المعايب التي تلحق بمن يستعمل جلود الشياه قائلا : "(١) .. عبتني - أعزك الله - بارتخاص الأشياء ومقارعة الاقوام في الشراء ، وقلت لم تؤثر ذلك الا للؤم الخليقة ، والهمة الدقيقة ، والا فالشيء ربما غولي في ثمنه لطول الاستمتاع به ، وتعرف نماء فائدته ... " .

== جمهور كتابة ومحور خطابة ، وقد فخر أبو حفص هذا بذلك في كتابه الموسوم بـ " سر الأدب وسبك الذهب " .. وكانت وفاة جده هذا سنة ٤١٨ هـ .
انظر الذخيرة : ق ١ ، جـ ١ ، ص ٤٨٦ ، ابن دحيه : المطرب : ١٢٧ ، الصلة : ٣٨/١ ، المغرب : ٨٦/١١ نفح الطيب : ٥٤٥/٣ .

(١) الرسالة في الذخيرة : ق ١ ، ج ١ ، ص ٥٢٢ - ٥٣٥ .

فنجد هنا أنه يذمه ويصفه بالبخل . هذه الخصلة الاولى . ثم يورد سببا آخر لذمه ذلك أن أكثر الناس افتراشا لها ": من المعلمين وقد قيل ان العقل لا يرضى عندهم ، فكيف تسلم في حسن الاختيار لهم ، واختيار المرء قطعة من عقله ، وعيارا على نقصه أو فضله " وهذه الخصلة الثانية وهي : ضعف العقل . وهناك اتهام آخر وهو ان هذه الجلود من الصوف " زي رهبان البيع وأرباب الحانات ، وهم أضعف الناس أحلاما ، وأدناهم طينة ، والقائلون بأن الله ثلاثة ...
تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا " وهذه الخصلة الثالثة :
وهي سوء الخلق وضعفه . ثم يعرض صاحب الرسالة القضية من وجهة النظر المغايرة في اسلوب قوي وحجج وأدلة مقنعة . ليكون الرد على التهم الموجهة اكثر قوة واقناعا فيبدأ بتهمة البخل فيدحضها ، بأن استعماله لجلود الشياه بسبب ميزاتها الكثيرة فيقول : " .. وأي بساط منها أدل على التواضع ، وأعرب عن القناعة وأدفأ في السبرة ، وألين في المس وأخف في الحمل ، وأمكن للنقلة ، وأوفق لمقدار الحاجة ، وأجدر بطول المتعة ، وأبقى على حدث الدهر ، وأغنى عن تكلف التبطين ، ومراعاة أوقات الترقيع ... تجد على الابتذال ، وتعتق مع الامتهان ، ولا تحوجك الى خياط ينازلك في السوم ، ويخجلك أمام القوم ... " ولها فوائد أخرى لأهل البيت أيضا " للعيال - فضلا عنك - على تقادم العهد ووقوع الاستبدال ، اكبر عون وأكمل انتفاع في التمهيد للطفل الصغير ، واستعمالها في الخمير في سحرة الليلة القرة ... وان أدلج اليك ضيف يكرم عليك لم يكن بحضوره لوقته عندك منفس تقيسه به وتقرنه معه ... " .

ثم ينفي عنه تهمة ضعف العقل ويبرر استعمال المعلمين لها بسبب رجاحة عقولهم وثاقب نظرهم فيقول : " المعلمون نظروا الى ضعف اكتسابهم ، وفكروا في تيسير ما تعود عليهم صناعتهم ، فأخذوا بالأقوى والارفق واعتمدوا على الأرخص والأوفق ، ثم علموا أنه ان تحاملوا على أنفسهم وافترشوا ما يزينهم لم يلبث احدهم أن يقوم عن مجلسه لبعض الامر ، أو لقضاء الغرض ، فتقوم حرب لعب الصبيان على ساق ،

وتبلغ بتمزيق ذلك الذى افترشه وغالى فيه ،بالايدى والأقدام والتراسي والازدحام ،مالا تبلغ انياب كلاب القنص في اهاب الحقيرة ، فيعود فيرى مايسخن العين ويوجب الرين . وهذا النوع الذى أنسوا الى خيره ، وآثروه على غيره ، لو أقامه الصبيان مقام الطبل ، وجعلوه هدفا للنبل ز ، لم يكن أثرهم فيه الا أثر الندى في عم الصفا " .

ثم يدفع عن نفسه تهمة سوء الخلق في بيان أن لبس الصوف ليس وقفا على المرابين ، وأهل الحانات بل هو " زى النساك ، ولباس المنقطعين للتعبد ، وعمدة الطراز الاول من السلف " .

وهكذا نرى أن الجدل والاحتجاج أول عماد ترتكز عليه رسائل التنذر ، وذلك من خلال المماحكات والباس التافه من الاسباب ثوب الجد والوقار بتصيد العلل والاسباب كقوله : " ولا تحوجك الى خياط ينازلك في السوم ويخجلك أمام القوم ، تنتح جبينك بعرق الاختلاف اليه ، وذل التكرر عليه ، وهو تبحبح في دكانه واشتغل عن مقالتك باستطابة محادثة صبيانه .. " .

هذا الاتجاه من التفكير مرده الى غريزة البخل الكامنة في النفوس والتي يجتهد الكاتب في دفعها عن نفسه ، ومن هنا يكون الموقف أكثر هزلا لان محاولة التبرير اكثر اقناعا وأشد تثبيتا لما يدافع عنه كدفعه لتهمة ضعف العقل عند المعلمين ، وتبلغ الفكاهة ذروتها حين يحاول الكاتب في امثال هذه الرسالة ان يوجد تبريرات بأسانيد لا مجال للنقاش فيها كقوله عن هذه الجلود : " ولم يجعل الله عز وجل من هذا الجنس أقرب قربانا فدى به ، ابن خليله وسماه ذبحا عظيما في تنزيله الا لسر من فضله سبق في علمه " .

الرسالة النخلية :

تندر بالبخل والبخلاء ، اعتمد ابن برد الاصغر القصص اسلوبا فنيا لها حين حكى عن شخص وعده ورهط من أصحابه بشيء من طلع نخلة ، ولكنه لما حان طلوع الذ ، أقدم صاحبها بليل على جز طلعها

وعند قدومهم عبسا علموا بغعلته من فتى لقيهم وسألهم مستفسرا عن حالهم فقالوا : " بآبائنا أنت لنزجو بيمن لقياك ظفرا بالمطلب ونجحا في المذهب ، جارك وصديقنا الذى نحن تلقاء منزله وفي حاشية محله وعدنا منذ عام بأن يسهم لنا فسي جنى نخلة لديه ، لم تتفقأ تربة هجر عن مثلها ، ولا أدت قمارى بصرى الى شكلها ، فجئنا للأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ، ونكون عليك من الشاهدين "١" .

قال الفتي : " يا لاخواني في الخيبة ، وشركائي في فوت الأمل ، أنا ساكن المحلة التي منيت هذه النخلة في ساحتها ، وقد صرمها منذ خمسة عشرة يوما ... " "٢" فلما سمعوا هذا النبأ كتب اليه ابن برد هذه الرسالة مذكرا اياه بوعده السابق .

ولعل ابن برد استوحى قصة رسالته من القصص العربية القديمة التي تتحدث عن خلف الوعد ، كقصة " عرقوب " "٣" الذى يضرب به المثل

---

١) انظر في هذا الى الآية : " ١١٣ " من سورة المائدة .
٢) الذخيرة : ق ١ ، ج ١ ، ص ٥٢٩
٣) يقول ابن قتيبة : " والعرب تضرب المثل في الخلف بعرقوب ... وكان عرقوب رجلا من العماليق ، فأتاه أخ له فسأله شيئا فقال عرقوب اذا طلع نخلي ، فلما أتاه قال : أذا ابلح ، فلما أبلح أتاه فقال : اذا أزهر ، فلما أزهر أتاه قال : اذا أرطب ، فلما أرطب قال : اذا صار ثمرا ، فلما صار ثمرا ، جزه من الليل ولم يعط أخاه شيئا .
عيون الاخبار : ١٤٧/٣ ، ط دار الكتب ١٣٤٨ هـ

في اخلاف المواعيد ، وقد تناقل الشعر قصته كثيرا "١" حتى أصبح علما في هذا المجال ، وقد استغل ابن برد هذه القصة ليتندر بالبخل وخلف الوعد معا . يغلب على الرسالة الطابع النفسي القصصي من عناية بالسرد والاداء الى وجود عقدة تدار حولها الرسالة ، هذه العقدة قوامها خيبة الامل بانهيار الاحلام التي بنيت على وعد سابق . وقد صور ابن برد هذا التتابع في تدافع سردي مقنع ومحكم ، حيث يفتتح الرسالة بتذكير صاحبه بما جرى في المقام الماضي " أما بعد : جعلك الله من المؤثرين على انفسهم ، والموفين شحها ، والمنجزين مواعيدهم ، والمعطين صدقها ، فقد علمت ما سلف لنا في العام الغارط من عتابك ولبسنا شكته من ملامك ، لما كتمتنا صرام النخلة التي هي بارضنا احدى الغرائب وفريدة العجائب ، هربا من أن تلزمك الاسهام في رطبها ، وحرصا على تمام لذة الاستبداد بها وقلت ويقد سألناك من جناها قليلا ، ورجونا ان تنيلنا منها ولو فتيلا - لو علمت أن لكم به هذا الكلف ، واليه هذا النزاع لامسكته عليكم ، وجعلت حكم جذاذه اليكم ، ولكنها ان شاء الله في العام الآنف غلتكم عتاد نفيس لكم ، وذخر حبيس عليكم .. " .

ومن الخصائص الفنية لابن برد في هذه الرسالة اجراء الحوار الصريح القصير الذى يرمي الى تجسيم العقدة وتشخيص خيبة الامل وذلك باشراك شخصية ثالثة فيما أصاب الجميع من تلك الخيبة هذه الشخصية هو الفتي الذى لقيهم أثناء قدومهم على صاحبهم " فتى وضاح الجبين ، آخذ بالعيون ، في وجهه للادب شاهد وبين عينيه من الظرف رائد " .
ولما كان غرض الرسالة التندر بطبقة البخلاء ، وبغريزة البخل عامة نجدها قد حفلت بقسط وافر من الايقاع الفكه في مثل قوله مخاطبا صاحب النخلة :

---

١) كقول كعب بن زهير :

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا
وما مواعيدها الا اباطيل

انظر الديوان : ص ٦ ، شرح السكرى - القاهرة ١٩٥٠ م
وقال الاشجعي :

وعدت وكان الخلف منك سجية مواعيد عرقوب اخاه بيثرب

عيون الاخبار : ١٤٧/٣ .

- بعد أن طلبوا منه مما ادخره من التمر ليوم تفكهه ويوم نوروزه -
" ولا تخشى منا ما أفسد به ابن الزبير عماله حين قال : " أكلتم تمري وعصيتم أمري "١" اذا نحن أكلنا منها فمرنا نناصب عنك أعداءك برا وبحرا ولا نعصي لك أمرا ؛ ، وأطرف من ذلك قول : " .. نحن عصابة نتحلى بأدب وننتمي الى حفظ غريب وصياغة قريض ، وربما لم تصدق في هذا الطريق مضاءنا ، ولا قبلت يقينا غناءنا ؛ فأردنا أن نصف لك شيئا من كلام العرب في النخل وبدء نباته ، والثمر وتلون حالاته ؛ فان سرك ماجئنا به ، وراقك ما أفضنا فيه ، جعلت جوائزنا تمرا ، وكان ذلك لنا أجرا . " أو قوله له : " فيا أبا عبد الله امجدنا رطبا نمجدك خطبا "٢" ... " . ومن ابلغ تندره بصاحبه حين يخاطبه بجدية تبدو في الظاهر بعيدة عن الهزل والا ضحاك " فلعن الله الشيطان ؛ وأعاذنا منه وصلى الله على سيدنا محمد ،ولا صدنا عنه ،فانه يقول : " نعمت العمة لكم النخلة ، " والخطاب لجميع المسلمين وأنت قد استوليت على عمة من عماتهم ، تستبد بخيرها دونهم وتمسك معروفها عنهم ونحن رجال ب من بني أخيها آتينا نعتفيها ، فان أنت سويتنا مع نفسك فيما تدر به عليك ، وتملأ منه يديك والا نافرناك الى السلطان وآلبنا عليك أبناء الزمان ... "٣" .

والذي يبدو جليا أن ابن برد اتخذ الموضوع تعلة لاظهار ثقافته اللغوية من حيث الالمام بالغريب والشواهد والمترادفات ، تجلى ذلك كله بتصيده لموقف مكنه من الاستطراد في الحديث عن النخل وأسمائه وصفاته : " تقول العرب لصغار النخل : الجثيث والودى ، والهراء ، والفسيل ،والآشاء والكافور ، والضمد والاغريض

---

١) انظر انساب الأشراف : ١٤٩/٥ ، تحقيق : محمد حميد الله ط - القاهرة .
٢) الذخيرة : ق ١، ج ١ ص ٥٣٠ .
٣) المصدر نفسه : ص ٥٣١

فاذا انعقد سميته السّياب ، فاذا اخضر قبل أن يشتد سمته الجدال ... "١"

أما اسلوبه عموما فقوامه تفضيل الازدواج على السجع على نحو طريقة الجاحظ في اطار من استعراض الثقافة العربية والاسلامية من سرد الامثال وحل الشعر وتلويح بالاشارات للاحداث والاشخاص . ويلحظ أن ابن يزد ذهب في رسائله هذه مذهب سهل بن هارون "٢" في البخل في الرسالة التي وجهها الى بني عمه من آل وعبون ، حين ذموا مذهبه في البخل وعابوا شدة حرصه على التوفير والتدبير ، وفي رسالته يرد على لائميه فيورد الامثال لمن يعتبر ، والاسلوب الفني يعنى بسرد المعايب التي لامهم من أجلها من انتقصه بالبخل ، فيعرض سهل هذا المأخذ ثم يبررها من وجهة نظره ويجد لها المخارج ، ويعمد في احتجاجه الى الاستدلال بالمأثور من القول والاقتداء بالسلف الصالح ، واتخاذ اقوالهم وأفعالهم حجة يسد بها الطريق على من يعيره بالبخل والتقتير ، كقوله : " عبتموني بقولي لخادمي : أجيدي عجنه خميرا كما أجدته فطيرا ، ليكون أطيب لطعمه وأزيد في ريعه ، . وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأهله : أملكوا العجين فانه أريع الطحينين" وقوله : " وعبتموني حين قلت للغلام : اذا زدت في المرق فزد في الانضاج لنجمع بين التأدم باللحم والمرق ، ولنجمع مع الارتفاق بالمرق الطيب ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : اذا طبختم لحما فزيدوا في الماء فان لم يصب أحدكم لحما أصاب مرقا " "٣"

---

١) المصدر السابق : ٥٣٠

٢) قال فيه الجاحظ : من الخطباء الشعراء الذين قد جمعوا الشعر والخطب ، والرسائل الطوال والقصار ، والكتب الكبار المخلدة ، والسير الحسان المدونة .. " له كتاب ثعلة وعفراء ، كتاب الاخوان والمسائل ، والمخزوم والهذلية . انظر : البيان والتبيين ٥٢/١ ، وذكر ابن النديم انه كان متحققا بخدمة المأمون وصاحب خزانة الحكمة له . كان حكيما فصيحا شاعرا .. وله كتب كثيرة ورسائل في البخل . الفهرست : ١٧٤ ، معجم الادباء ٢٢٦/١١ ، وذكر وفاته سنة ٢١٥ هـ . عيون الاخبار : ١٣٨/٣ .

٣) الجاحظ ، البخلاء : ٢٢ - ٢٣ - ط بيروت .

وأسلوب سهل في التندر اكثر اشباعا من اسلوب ابن برد ، حيث يعمد الى القصص الطريفة في ثنايا الرسالة على نحو الاستطراد في اسلوبه عموما مثال ذلك قوله "١" : وبعث زياد رجلا يرتاد له محدثا واشترط على الرائد أن يكون عاقلا مسددا ، فأتاه به فكان موافقا ، فقال : " أكنت ذا معرفة به ؟ قال : لا ، ولا رأيته قبل ساعته ، قال : أفناقلته الكلام وفاتحته الأمور ، قبل أن توصله اليّ ؟ قال : لا ، قال : فلم اخترته على جميع من رأيته ؟ قال : يومنا قائظ ، ولم أزل اتعرف عقول الناس بطعامهم ولباسهم في مثل هذا اليوم فرأيت ثياب الناس جددا وثيابه لبسا ، فظننت به الحزم " . وسهل أقدر من ابن برد على الجدل والاحتجاج وتصيد الاسباب والعلل ، ولعل عذر ابن برد في ذلك انه تكلم عن البخل ايحاء حين رمز اليه بتفضيل البخيل لجلود الشياه وتمسكه بها ومدافعته عنها أو بالبخل بثمر النخلة على الاصحاب الذين وعدوا بذلك ، أما سهل فقد تحدث صراحة عن البخل ، وقد كان أيضا أقدر على ايراد النادرة مورد الجد والاهتمام كقوله : " ..وكان هشام يقول : ضع الدرهم على الدرهم يكون مالا ، ونهى أبو الأسود الدؤلي وكان حكيما أديبا وداهية أريبا عن جودكم هذا المولد وعن كرمكم هذا المستحدث ، فقال لابنه "٢" : اذا بسط الله لك في الرزق فابسط ، واذا قبض فأقبض ، ولا تجاود الله فان الله أجود منك" والرسالة - بعد - غنية بالحوار ، الذى يذهب عنها الملل ويبعد عنها الرتابة ويضفي عليها خفة روح وسرعة خاطر ، ولا يخفى علينا تأثر الاسلوب عموما بطريقة المتناظرين من المتكلمين والتي ازدهرت في هذا العصر ،فانا نلمح فيه أثر المنطق والجدل من الأقيسة والقضايا ، والدقة في الحوار التماسا للأدلة ، أما الأسلوب الفني فيقوم على التنويع اللفظي من سرد للمترادفات وايثار للازدواج على السجع واكثار من الامثال وحل الشعر وتلويح بالاشارة الى اشخاص وحوادث .

---

١) المصدر نفسه : ٢٤ - ٢٥ .
٢) المصدر نفسه : ٢٩ .

ثانيا : رسائل المناظرات والمفاضلات :

هي تلك الرسائل الادبية التي تعنى ببسط الأدلة والجدل والحوار، وترمي في الغالب الى اظهار براعة الكاتب في الاحتجاج والتمرس في الاساليب السائدة في عصره ، ولم تخرج في حقيقتها عن النزعة الادبية للمدح والذم والتي صارت لونا أسلوبيا قائما بذاته . ولعل نمو فن المناظرات يرجع اساسا الى صدر الدولة العباسية حين امتزجت الثقافة العربية بثقافات اخرى يونانية وهندية وفارسية ، وابرز الفنون تأثيرا في العقلية العربية الفلسفة والمنطق، حيث اطلع المفكرون والادباء العرب على محاورات السفسطائيين ومجادلاتهم ، ومن ثم كانت طبقات المتكلمين في المباحث العقائدية بما عرفوا من صورة جديدة لتحليل الافكار وتركيبها ، كما طرقوا باب القياس والاستدلال والعلم ، وما الى ذلك من اصطلاحات المناطقة . ولما كان الادب مرآة المجتمع تنمو اغراضه وتتجدد بنوعية ثقافته ، ولما صارت المناظرات الكلامية من دعائم ثقافة المجتمع كان من الطبيعي أن تترك آثارها في أدبه ، فهذه رسالة الشقندى "١" في فضل الأندلس بما حوته من مناظرة بين عصرى الطوائف والمرابطين وأنتصارها لعصر ملوك الطوائف، وتفضيله لما ضم من الادباء والشعراء وبخاصة من الملوك أنفسهم ، ومن الفقهاء والفلاسفة بالاضافة الى المدن والمناطق التي تنم عن خصائص فنية لهذا اللون من الرسائل ، وان كان موضوعها سياسيا اكثر منه أدبيا .

وأول مايطالعنا في هذا المجال رسالة السيف والقلم للكاتب ابن برد الاصغر- الذى تقدم ذكره - وتذكر المصادر الأندلسية أنه هو أول من سبق الى القول في ذلك بالأندلس . "٢" ومضمون الرسالة مناظرة فكرية جدلية بين السيف والقلم في أحقية كل منهما بالسيادة والزعامة ، وهي في حقيقتها مناظرة بين المحارب والكاتب ، ولا يستغرب أن يكون بين دعامتي الدولة "٣" كما يذكر ابن الأثير مثل هذا الصراع .

---

١) نفح الطيب : ١٨٠/٤ .

٢) جذوة المقتبس : ١١٥ .

٣) المثل السائر : ٧٣/١ .

ويقول ابن خلدون "١" : " اعلم ان السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بها على أمره ، الا أن الحاجة في أول الدولة الى السيف مادام أهلها في تمهيد أمرهم أشد من الحاجة الى القلم ، لأن القلم في تلك الحال خادم فقط منفذ للحكم السلطاني ، والسيف شريك في المعونية ، وكذلك في آخر الدولة حيث تضعف عصبيتها ويقل أهلها بما ينالهم من الهرم فتحتاج الدولة الى الاستظهار بأرباب السيوف وتقوى الحاجة اليهم في حماية الدولة والمدافعة عنها كما كان الشأن أول الأمر في تمهيدها ، فيكون للسيف مزية على القلم في الحالتين ، ويكون ارباب السيف حينئذ أوسع جاها وأكثر نعمة وأثنى اقطاعا ، وأما في وسط الدولة فيستغني صاحبها بعض الشيء عن السيف لأنه قد تمهد أمره ولم يبق همه الا في تحصيل ثمرات الملك من الجباية والضبط ومباهاة الدول وتنفيذ الاحكام والقلم هو المعين له في ذلك فتعظم الحاجة الى تصريفه وتكون السيوف مهملة في مضاجع اغمادها الا اذا أنابت نائبة أودعت الى سد فرجة ، ومما سوى ذلك فلا حاجة اليها فتكون ارباب الاقلام في هذه الحاجة أوسع جاها وأعلى رتبة ، وأعظم نعمة وثروة ، وأقرب من السلطان مجلسا وأكثر اليه ترددا .. "

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ٢٥٧ ، ط / بيروت .
لعل من أول الاشارات التي وردت في المفاضلة بين السيف والقلم مارواه الجهشياري : ... ولم تزل العرب تفضل السيف على القلم ، وفي ذلك يقول السليط بن جرير بن لبيد النمرى :

أتحقرني ولست لذاك أهلا ... وتدني الأصفرين من الخوان
جهابذة وكتابا وليسوا ... بفرسان الكريهة والطعان
ستعرفني وتذكرني اذا ما ... تلاق الحلقتان من البطان

ثم يورد قول البحتري :

تعنو له وزراء الملك راغمة ... وعادة السيف ان يستعبد القلما

انظر : الوزراء والكتاب : ٢٨ .
وقد كان هذا الموضوع غرضا شعريا مفضلا عند الشعراء قال فيه المتنبي :

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي ... المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتب بنا أبدا بعد الكتاب به ... فانما نحن للاسياف كالخدم

انظر ديوان المتنبي ، بشرح العكبرى : ٤/١٥٩ ط بيروت ـ ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٨ م .

هذا التحليل التاريخي الدقيق لدور كل من الكتاب والجند بالدولة من هذا العالم الفذ يوضح لنا في جلاء أن دولة كالأندلس قامت منذ نشأتها على قاعدة عريضة من الجهاد والحروب ثم أتى عليها حين من الدهر طحنتها فيه الفتن المدمرة وتمزقت وحدتها وظهر بالتالي مايسمى بالملوك والطوائف ، وكان هؤلاء في أشد الحرص على مسايرة الجند وإتخاذ الاتباع لحماية العروش المزعزعة ، فظلت السيوف مشرعة سنين طويلة ، والاقلام نائمة في محابرها سنين أطول ... كل ذلك جعل أصحاب القلم يحسون بتأخر مكانتهم عن رصفائهم . ولعل من الأدلة على ذلك مانلمسه في كتابات بعض المعاصرين لتلك الفترة من الأدباء كأبي بكر الطرطوشي مثلا "١" . وهو من كتاب النظم "٢"، فانه لم يتحدث عن أصحاب القلم وقيمتهم في الدولة بينما عقد فصلا خاصا للحديث عن سيرة السلطان مع الجند وفيه يقول"٣": " اعلم أن الجند عدد الملك ، وحصونه ومعاقله وأوتاده ، وهم حماة البيضة والذابون عن الحرمة والدافعون عن العورة وهم جفن الثغور وحراس الأبواب والعدة

---

١) هو : محمد بن الوليد بن سليمان الفهري الطرطوشي ، يكنى أبا بكر ويعرف بابن وندقة ، درس على القاضي أبي الوليد الباجي بسرقسطة ثم رحل الى الشرق وحج ودخل بغداد وتفقه فيها ثم سكن الشام مدة يدرس بها ، وكان اماما عالما عاملا زاهدا توفي بالاسكندرية سنة ٥٢٠ . الصلة : ٢/٥٧٥ ، وذكر الظبي جماعة ممن رووا عنه منهم ابو بكر بن العربي ، والصدفي وذكر من تأليفه : التعليق في الخلافيات في خمسة اسفار ، وله كتاب كبير عارض به كتاب الاحياء ، وكتاب سراج الملوك . بغية الملتمس : ١٣٥ ، ترجمة رقم ٢٢٥ ، الوفيات : ٤/٢٦٢ ، المغرب : ٢/٢٤٢ .

٢) احسان عباس ، عصر الطوائف والمرابطين : ٢٨٩ . بيروت - ١٩٧٨م .

٣) سراج الملوك : ٢٠٦ ، طبعة الاسكندرية : ١٢٨٩ هـ .

للحوادث ... ولا يصلح الجند الا بادرار ارزاقهم وسد حاجاتهم ، والمكافأة لهم على قدر غنائهم وبلائهم ، وجنود الملك وعندها وقف سعود الأمة ونحوسها ... " ثم يوصي الجند قائلا "(١) : " أيها الأجناد اقلوا الخلاف على الأمراء فلا ظفر مع الخلاف ولا جماعة لمن اختلف عليه .. قال تعالى : " ((ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم)) " . فأول الظفر : الاجتماع ... وعماد الجماعة السمع والطاعة .... النصر مع التدبير ، لا ظفر مع بغي ، لا تغتر بالاقوياء بفضل قوتك على الضعفاء ، لا تجبن عند اللقاء ولا تقتل عند القدرة ، ولا تسرف عند الظهور ، ولا تغل عند الغنائم ،ونزهوا الجهاد عن غرض الدنيا " .

هذا الاهتمام الواضح بالجندى على حساب غيرهم من الرعية وخاصة أهل الدعامة الثانية - الكتاب - هو الذى دفع ابن برد لكتابة هذه الرسالة والتي نحس فيها حلما أو أمنية بالمساواة بين دعامتي الدولة .

تحليل الرسالة : جعل الكاتب التنافس بين متساويين حتى يكتسب الموضوع حدة الصراع والجدل المطلوب في المناظرة حيث قال "(٢): ان التسابق من جوادين سبقا في حلبة ، وقضيبين نسقا في تربة والتحاسد من نجمين أنارا في أفق ، وسهمين صارا على نسق ، والتفاخر من زهرتين تفتحتا من كمامه وبارقتين توضحتا من غمامة لأحمد وجوه الحسد وان كان مذموما مع الأبد . "

وبطرح القضية على هذا المستوى ،تتهيأ الأذهان لنوع من الصراع فريد ، اذ ربما امتد أحد الجوادين بخطوة او خص أحد القضيبين بربوة ، أو كان أحد السهمين أنفذ مصيرا ، أو راح أحد النجمين أضوأتنويرا

---

١) المصدر نفسه : ٣١١ - ٣١٢ .
٢) الذخيرة : ق ١ ، جـ ١ ، ص ٥٢٣ .

أوغدت احدى الزهرتين أندى غضارة ، أو أمست احدى البارقتين أسنى انارة ، فالا فالمقصر يرتقب تقدما ، وتقارب الحالتين في المجانسة، يشب نار المنافسة ، وان حال بينهما قدح النقاد ، وقبح تحاسد الاضداد " . وحتى لا يتهم الكاتب بالتحيز ضد أصحاب السيف ، وحتى لا يبخس أصحاب القلم حقهم نص من بداية المناظرة على أسباب التنافس بينهما وبررها بقوله : "(١)" ان السيف والقلم لما كانا مصاحبين يهديان الى القصد من بات يسرى الى المجد ، وسلمين يلحقان بالكواكب من ارتقى لساحات المراتب ، وطريقين يشرعان نهج الشرف لمن تقرب اليه وشفيعين لا يؤخر تشفعهما ... جررا أذيال الخيلاء تفاخرا وآشما بأنف الكبرياء تنافرا ... " فيبدأ الحوار بينهما ويستمر ويتسم بالعنف في الرد والاتهامات المتبادلة حتى يوفق الله بينهما و ينهيا الى الصلح : " فأجمل رداء نرتديه ، وافضل حذاء نحتذيه ، وأهدى سبيل نقصده ، وأصفى منهل نرده مؤالفة نجرر أذيالها ، ونميل ميلها ، ومعاشرة نتجانى ثمارها ، ونقاد ونتعاطى عقارها .. "

الخصائص الفنية لاسلوب الرسالة :

يعني الكاتب بطرح القضية على بساط البحث والمناظرة على نحو مايدور في حلقات المتناظرين ، وذلك بالتماس الاسباب والمسببات الداعية لعقد المناظرة (كما في القطع الاول من الرسالة) كما يلتمس الكاتب - على لسان كل فريق - الأدلة المدعمة لوجهة نظره ، القائلة بزعامته وباحقيته في السيادة من القرآن الكريم ومن المأثور وغير ذلك ، على نحو مايفعل المتناظرون في مجالسهم . " فقال القلم : ... والافضل من فضله الله - عز وجل - في تنزيله مقسما به لرسوله فقال : ((ن . والقلم وما يسطرون)) وقال : ((اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم)) . فجل من مقسم وعز من قسم . فما تراني وقد حللت بين جفن الايمان وتناظره ،

---

١) الا الرسالة كاملة في ملحق : ق ١ ج ١ من الذخيرة : ص ٥٢٣ - ٥٢٨ .

وجلت بين قلب الانسان وخاطره ؟ لقد أخذت الفضل برمته وقدت الفخر بأزمته " ! ويتخذ الكاتب من مثل هذه الرسائل سببا لاستعراض ثقافته في مناحي التفكير الدقيق المستقصي ، حين يحاول كل فريق من المتناظرين أن يدفع حجج خصمه ويفحمه بأسلوب المناطقة في التماس القياس كقول : القلم مدافعا عن صغر حجمه وقلة ثمنه " .

" ... ألا وان الذهب مفدنه المعفر وهو أنفس الجواهر ، والنار مكمنها في الحجر وهي احدى العناصر ، وان الماء وهو الحياة ، أكثر المعايش وجدانا وأقلها اثمانا ، وقلما تلقى الاعلاق النفيسة الا في الأمكنة الخسيسة " . كما أن الكاتب يصرّح بانه كان يقصد من رسالته اظهار براعته وبلاغته وذلك في الابيات التي ختم بها الرسالة ، حيث يقول - موجها خطابه الى أميره أبي الجيش موفق العامري -

يا أيها الملك السامي بهمته
الى سماء قد أعيت الهمما
لولا طلابي غريب المدح فيك
لما وصفت قبل ملاك السيف والقلما
وانما كان تعريضا كشفت به
من البلاغة وجهها كان ملتثما

ومثل هذه الرسائل لا تخلو من السخرية الحادة في محاولة لكسر هيبة الخصم واذلاله ، والتهوين من شأنه كقول السيف عن القلم :
" يا الله ؟ استنت الفصال حتى القرعي ، ورب صلف تحت الراعدة لقد امتدادا بباع قصيره ، وانتفاضا بجناح كسيره ، أستصرب والغلس ثمنك ، وستجلب وكل بمقه وطنك ؟ جسم عار ودمع جار تحفى فتنعل بريا حتى يعود جسمك فيئا ... "

ولعل الباحث يستطيع أن يرى بوضوح تفضيل ابن برد لاصحاب القلم ، ونصرته لهم ، خاصة اذا نظرنا فيما أورده من حجج دفع بها أصحاب السيف ، وذلك انه وصفهم بتكبر ما أخلصه الاخاء وتوليد اسباب

الفتن ، أو في قوله على لسان السيف : " ... أقضي فلا أنصف ، وأمضي فلا أحرف ، أزرى بالوفاء ، وأهتك اللامة هتك الرداء " كل ذلك وغيره كثير ... مقابل ما أضفاه على أصحاب القلم ، ولعله يخص نفسه في هذا المقام بصفة خاصة . " ... وهل أنا الا قطب تدور عليه الدول ، وجواد شأوه يدرك الامل ، شفيع كل ملك الى مطالبه ووسيلته الى مكاسبه ، وشاهد نجواه قبل كل شاهد ، ووارد معناه قبل كل وارد ... "

واذا علمنا أن الرسالة مهداة الى أبي الحبيش الموفق العامري ، لم يغب عنا ان بها منحا رمزيا قصد اليه ابن برد ليلفت نظره الى ضيعة الكتاب والوزراء - وهو منهم - ويستجدي في أخذ بعض الحق لهم من أصحاب السيوف والحرب ، ومن هنا نلتمس له العذر ان جاءت أدلته أقوى حجة وأنصع بيانا في حق القلم دون السيف .

رسائل الورود :

وهي رسائل أدبية كتبها الادباء على ألسنة الورود والأزهار . كل يفضل وردا أو زهرا بعينه ، وهي تسلك مسلك قصص الأمثال ، والأساطير حين تجعل الكلام على ألسنة الحيوان أو النبات ، وهي ربما رمي بها الى معنى عظيم من العظة والاعتبار . كما لا تخلو من منحى رمزي قل أو كثر ، والاسلوب قوامه الجدل والنقاش ، بالرأى أو الدليل ، يرمى الى تفنيد الرأى المعادى سواء بأدلة وبراهين من الكتاب والسنة أو بأدلة عقلية او استنباطية من الآثار والاخبار ، أو بكل ذلك معا .

وأول مايطالعنا في هذا المجال في الأندلس رسالة لابن برد الأصغر اهداها الى ابن جهور "١" تحكي : " أن صنوفا من

---

(١) ابو الوليد محمد بن جهور ، صاحب قرطبة ، كان حافظا للقرآن مجودا لحروفه وكان مشاركا في العلوم والآداب توفي سنة ٤٦٢هـ الصلة : ٥١٧/٢ .

الرياحين وأخباسا من أنوار البساتين ، جمعها في بعض الأزمنة خاطـــر خطر بنفوسها وهاجس هجس في ضمائرها ، لم يكن لها بد مـــن التفاوض فيه والتحاور والتحاكم من أجله " "١"

وكان هذا الخاطر عقد لواء الرئاسة للورد على جميع أنـــواع الأزهار والرياحين ذلك لأنه : " الاقرب حسبا والاشرف زمنا ، ان فقد عينه لم يفقد أثره ، أو غاب شخصه لم يغب عرفه " . وتظهـــر نزعـــة الكاتب الجدلية حين تستند الى خصائص الورد ويستغلهـــــا باستنباط أدلة عقلية منها يؤيد بها قضية . وهي الاجماع على مبايعة الورد ، نحس ذلك حيـــن يستغل اللون الأحمر للورد : " وهو احمر والحمرة لون الدم ، والدم صديق الروح ، وهو كالياقوت المنضد ، في أطباق الزبرجد ، وعليها فرائد العسجد ، وأما الاشعـــار فبمحاسنه حسنت ، وباعتدال جماله وزنت " . أما النرجس الأصفر فيشكو من سقم جسمه في حب هذا الرئيس وهو الورد : " والذى مهد لي حجر الثرى ، وأرضعني ثدى الحيا ، لقد جئت بها أوضح من لبـــة الصباح ، واسطع من لسان المصباح ، ولقد كنت أسر من التعبد له ، والشغف به ، والاسف على تعاقب الموت دون لقائه ، ما أنحل جسمي ، ومكن سقمي ، واذا قد أمكن البوح بالشكوى ، فقد خف ثقل البلوى" .

وأما البهار فقد سلّم بالقيادة مباركا قائلا : " لا تنظرن الى غضارة منبتي ونضارة ورقي ورقتي ، وانظروا اليّ ، وقد صرت حدقـــة باهتة تشير اليه ، وعينا شاخصة تندى بكاء عليه :

ولولا كثـرة الباكين حولـــــي
على أخوانهم لقتلت نفســـي " "٢"

---

١) الرسالة كاملة في الذخيرة : ق ٢ ج ١ ص ١٢٧ ، نهاية الارب : ١١/١٩٦-١٩٧ ، ط القاهرة - سنة ١٩٣٥م
٢) البيت للخنساء ، ديوانها : ٨٨ ، ط بيروت ١٩٦٣م .

أما الخيرى "١" فقد استغل ابن برد خصائصه الطبيعية في جعله يعطي البيعة راضيا مقرا بفضل الورد عليه فقال : "والذى أعطاه الفضل دوني ، ومد له بالبيعة يميني ، ما اجترأت قط اجلالا له ، واستحياء منه ، على أن أتنفس نهارا أو اساعد في لذة صديقا أو جارا ، فلذلك جعلت الليل سترا ، واتخذت جوانحه كنا ".

والذى يعنينا أن ابن برد قد استغل خصائص الورود الطبيعية ووصفها بها على نحو جدال ومناظرة وحوار ، يدلي فيه كل زهر وورد بوجهة نظره ، لينتهي المجلس باجماع على كتابة عقد لهذه المبايعة ، نصه : " هذا ما تحالف عليه أصناف الشجر وضروب الزهر وسميها وشتويها وربيعيها ، وقيظيها حيث ما نجمت من تلعة أو ربوة ، وتفتحت في قراره أو حديثه عند ما راجعت من بصائرها وألهمت من رشادها واعترفت بما أسلفت من هفواتها وأعطت للورد قيادها ، وملكته أمرها ، وعرفت أنه أميرها المقدم بخصاله فيها ، والموفر بسوابقه عليها ، واعتقدت له على السمع والطاعة والتزمت له الرق والعبودية وبرئت من كل زهر نازعته نفسه المباهاة له ، والانتزاء عليه في كل وطن ومع كل زمان ... ".

أما ابو الوليد الحميدى "٢" فقد أنكر مبايعة أزهار ابن برد للورد

---

١) الخيرى : نوع من الزهور ويسمى " النمام "

٢) هو اسماعيل بن محمد بن عامر بن حبيب ، الوزير الكاتب باشبيلية . له ولأبيه ، قدم في الأدب والرياسة توفي قريبا من سنة ٤٤٠هـ الجذوه : ١٦٢ ، ترجمة رقم ٢٩٥ ، وذهب ابن سعيد الى ان المعتضد بن عباد هو الذى قتله (المغرب : ٢٥٠/١) ، وابن الآبار هو الذى أقام قناته وصقل مرآته فأطلقه شهابا ثاقبا ... ولو تحاماه صرف الدهر وامتد به طلق العمر لسد طريق الصباح ، وغير وجوه الرياح وله كتاب " البديع في فضل الربيع " الذخيرة : ق ٢ ج ١ ص ١٢٤ ، البغية : ترجمة رقم ٥٣٤ .

وكتب رسالة للمعتضد بن عباد يبايع فيها البهار ، ويذكر في مستهلها أن أول من رأى كتاب مبايعة الأزهار للورد " نواوير فصل الربيع التي هي حبيرة الورد في الوطن وصحابته في الزمن ، ولما قرأته أنكرت مافيه وبنت على هدم مبانيه ونقض معانيه ، وعرفت الورد بما عليه فيما نسب اليه من استحقاقه مالا يستحقه ، واستئهاله مالا يستأهله ، ورأت أن مخاطبة من أخطأ تلك الخطيئة ، وأدنى نفسه تلك الدنية ، تدبير دبرى ، ورأى غير مرضي ، فكتبت الى الاقحوان والخيري الاصفر كتابا قالت فيه : لو استحق الورد امامه واستوجب خلافه ، لبادرتها آباؤنا ولعقدها أوائلنا ، التي لم تزل تجاوره في مكانه وتجي معه في أوانه ، ولا ندرى لأى شيء أوجبت تقديمه ورأت تأهيله بما غيره أشكل له واحق به وهو نور البهار البادى فضله بدو النهار ... " . وقد اتق اقتضب ابن بسام في ايراد هذه الرسالة وقال في آخرها : " وطول أبو الوليد في رسالته هذه وختمها بمبايعة الأزهار للبهار فرجعت عن تقديم الورد في خبر طويل " "١"

---

١) الذخيرة : ق ٢ ج ١ ص ١٣٠ .

المعتضد : ابو عمرو عباد بن محمد بن اسماعيل ، ملك اشبيلية ، ولد سنة ٤٠٧ هـ امتاز بالشجاعة والقسوة والعنف " كان شديد الجرأة ، قوى المنه ، عظيم الجلادة ، مستهينا بالدماء " اعمال الاعلام : ١٥٦ ، ويذكر أنه كانت له حديقة مليئة بالرؤوس المحنطة من الملوك والحجاب الذين أبادهم بسيفه ، البيان المغرب : ٣/ ٢٠٥ - ٢٠٦ ، وكان من أهل الأدب والشعر ، وتوفي سنة ٤٦١ هـ ، الجذوة رقم ٦٧٢ .

وأما ابو عمر الباجي "١" فيرسل الى ابن هود على لسان النهار شاكيا الورد لما تعدى عليه واغتصب رتبته قائلا :

" وقد علم الورد موقع امارتي ، وغني بلطف ايمائي عن عباراتي ، وانها تحية الزهر حياك بها وخبيئة دخرها لك ، وأهلك لها ، وقد أتيت في أواني ، وحضرت وغاب أقراني ، ولم أغفل من خدمتك رتبتي ومكاني ، ولم أعر من الحضور بين يديك نوبتي وزماني ، وانا عبد مطيع مسخر ومملوك يتصرف مدبر ، حقيق بان يحسن الي " فادني ، وجدير بأن يهتبل بي ولا أجفى لاني سابق حلبة النوار وأول طلائع الأزهار وانا ناظر الفضل وعينيه ، ونضار الروض ولجينه وقائد الظرف وفارسه ، وعاقد مجلس الانس وحارسه " "٢"

وأما ابن حسداى "٣" الاسلامي فينتصر للنرجس حين

---

١) الفقيه أبو عمر الباجي : جليل القدر ، رحل الى المشرق وحج ولي قضاء حلب ، ثم عاد الى الأندلس فجل قدره عند المقتدر بن هود ملك سرقسطة . وكان من بلغاء الكتاب المغرب : ٤٠٥/١ ، الذخيرة : ق ٢ ج ١ ص ١٩٤ . القلائد : ١١٥ . اما المقتدر فكان من اعظم ملوك الطوائف مع الدهاء والسياسة بالاضافة الى العلم والادب ، توفي ٤٧٤ هـ / المغرب : ٤٣٧/١ .

٢) الرسالة في الذخيرة : ق ٢ ج ١ ص ١٩٤ .

٣) ابن حسداى : هو ابو الفضل حسداى بن يوسف بن حسداى ، كان ابوه بالأندلس من بيت شرف اليهود ، متصرفا في دولة ابن رزين باقليم السهلة ، وكان له في الادب باع ، ونشأ ابنه أبو الفضل هضبة علاء وجذوة ذكاء وعني بالتعاليم وأسلم وساد ، ونال حظا كبيرا من الشعر والنثر وبرع في علم العدد والهندسة والنجوم .
انظر : الذخيرة : ق ٣ ج ١ ص ٨٠ ، المغرب : ٤٤١/٢ ، النفح : ١٦٥/٢ ، ٤ /٢٧١ - ٢٧٣ ، الحلة السيراء : ١٧٥/٢ ، المطرب : ١٩٦ ، اللائد : ٢٠٩ ، الخريدة : القسم الرابع : ج ٢ ص ٤٨٠ .

يجرى حوارا ، ليس بين النرجس وأحد الورود بل بين النرجس وأحد حاشية الامير المقتدر بن هود ، وذلك أن النرجس كان زاهيا بنفسه ، شاعرا بحسنه ، فمر به ظريف من خواص الأمير ، فقطف النرجس وحاوره قائلا : " يا أيها الزهر الفارد والنوار الشارد ، الساحر بحدقه واجفانه ، الباهر بورقه وعقيانه ، مالي أرى قضبك غبراء ذابلة ومنابتك شعثاء ناحلة " "١" . ولم نعرف ماذا كان جواب النرجس لان ابن بسام لم يورد الرسالة كاملة وانما نجد أن النرجس عاد يفتخر بذاته ويشكو حساده على مكانته لدى الأمير قائلا : " فليت الرياض تعلم بمكاني فتذبل كمدا ، وتذوى حسدا ، وتراني وقد أنرت في افقك البهيج ، وزهرت في روضك الأريج " ، فأزل عني حسدهم بكبتهم ، فقد شجاهم تقدمي قبل وقتهم " .

وكذلك نجد ابا مروان الجزيرى - ولعله اول من كتب في هذه الرسائل حين جعلها مقدمات لمقطوعاته الشعرية - يفضل البنفسج على الأزهار جميعا في رسالته للمنصور بن أبي عامر حيث قال على لسان البنفسج "٢" :

---

١) ساق ابن بسام فصولا من الرسالة في القسم الثالث ج ١ ص ٤٧٠ . ومابعدها .

٢) ابن الجزيرى : عبد الملك بن ادريس الجزيرى الكاتب ، أبو مروان ، وزير من وزراء الدولة العامرية وكاتب من كتابها ، عالم أديب ، شاعر كثير الشعر غزير المادة ، معدود في أكابر البلغاء ، ومن ذوى البديهة في ذلك له رسائل واشعار مدونة ، ومن مستحسن مطولاته قصيدة له في الاداب كتب بها الى بنيه . قال صاحب الجذوة : لا أعلم لاحد مثلها في معناها وتوفي سنة ٣٩٤ هـ . الجذوة : ٢٨٠ ، ترجمة رقم ٦٢٤ ، البغية : ٣٦٤ ، المغرب : ١/٣٢١ ، المطمح : ١٣ .

٣) الذخيرة : ق ٤ ج ١ ص ٣٣ - ٣٤ ط القاهرة ١٩٤٥م

" وقد ذهب البهار والنرجس في وصف سنا سنهما والفخر بمشابهما كل مذهب، وما منهما الا ذو فضيلة غير ان فضلي عليهما أوضح من الشمس التي تعلونا ، واعذب من الغمام الذى يسقينا . فاني أتشبه بأحسن في شعرهما ببعض مافي العالم من جواهر الارض ومصابيح السماء ، وهي موت من الموات الصامت ، فاني أتشبه بأحسن مازين الله به الانسان وهو الحيوان الناطق . مع أني اعطر منها عطرا ، وأحمد خبرا واكرم امتاعا شاهدا وغائبا ، ويانعا وذابلا وكلاهما لا يمتع الا ريثما يصنع ، ثم اذا ذبل نستكره الانوف شمه وتستدفع الاكف ضمه ، وأنا امتع رطبا ويابسا ، وتدخرني الملوك في حزائنها وسائر الاطباء ..) .

ولعلنا لا نعدو الصدق اذا رأينا في هذه الرسائل صدى للحالة السياسية لعصر ملوك الطوائف ؛ وكان كل كاتب قد اتخذ من ورد معين رمزا لأميره أوولي نعمته ، يجعل من تفرده بين الورود نظيرا لتفرد أميره بين الامراء ، كما اننا قد لا نعدو الصدق اذا عددناها مناظرة بين الكتاب تشف عن الصراع والحسد في بلاطات الامراء ، فكل يشكو حساده ويرجو التميز على أقرانه ، ألم يقل الباجي في رسالته السابقة الى ابن هود على لسان البهار " اطال الله بقاء المقتدر بالله مولاى وسيدى ومعلي حالي ومقيم أودى ، وأعاذني من خيبة العناء وعصمني معه ممن اخفاق الرجاء ، ولا أشمت بي عدوا من الرياض يناصبني ، وماسدا من النواوير يراقبي ... " بل قال في صراحة " وقد أتيت في أواني ، وحضرت وغاب أقراني " وقال ابن حسداى الى ابن هود على لسان النرجس : " ... فأزل عني حسدهم بكبتهم وفقد شجاهم تقدمي قبل وقتهم " . وقال الجزيرى لابن أبي عامر على لسان البنفسج " ... اني اعطر منها عطرا وأحمد خبرا ، واكرم امتاعا شاهدا وغائبا " .

وهذه الرسائل أيضا تحتمل مناحي من الرمز ابعد من ذلك فقد تكون رمزا لتفاخر بنات الامراء والملوك "[١]" في الجمال والرتبة أورمزا

---

(١) لعله من الدليل على ذلك ان المنصور بن أبي عامر سمى ==

لتنافس الجوارى داخل القصور لاحتياز قلب أحد الامراء كما يذكر احسان عباس "١" ، أو أن مجلس الجماعة بقرطبة أصبح صوريا لا يملك الا الاذعان والتسليم للحاكم في كل الأمور .

وقد يتساءل الباحث : لماذا اختصت الورود - بصفة خاصة - بهذه المفاضلات والمناظرات ؟ لم استطع الوصول الى نص يهدى الى حقيقة يطمئن اليها ، وتفسر بها نشأة هذا اللون ، ولكن الثابت أن قصيدة ابن الرومي في تفضيل النرجس على الورد والتي مطلعها :

== بناته بأسماء الأزهار ، والثابت أن الشعراء قد وصفوا الأزهار في قصائدهم على نحو يظهر فضائل بنات المنصور نفسه من حيث قال ابن بسام في ترجمة الجزيرى مثلا : ومن شعره أيضا مما اندرج له في اثناء نثره الذى ملح فيه مخاطبته على ألسنة كرائم المنصور بن ابي عامر بزهور رياضه مثل : بهار العامرية قصيدة أولها :

حدق الحسان تقر لي وتغار
وتضل في صفتي النهى وتحار

ومن أخرى نرجس العامرية :

حيتك ياقمر العلا والمجلس
أزكى تحيتها عيون النرجس

ومن أخرى بنفسج العامرية :

شهدت لنوار البنفسج آلسن
من لونه الأحوى ومن ايناعه

انظر الذخيرة : ق ٤ جـ ١ ص ٣٤ ، ط القاهرة ١٩٤٥م

(١) تاريخ الادب الاندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) ص ٢٩٣

خجلت خدود الورد من تفضيله
خجلا تورد ها عليه شاهد "١"

قد تركت صدى كبيرا بين الشعراء الاندلسيين ، مثال ذلك ماذكره ابن الآبار في ترجمته لجهور بن عبد الله بن أبي عبده حين قال عنه " ... وكان شاعرا مكثرا . فمن قوله من أبيات في تفضيل الورد وكأنه يرد بها على ابن الرومي : "٢"

خضعت نواوير الرياض لحسنه
فتذللت تنقاد وهي شوارد
واذا ابتدى الورد في أغصانه
ذلت ، فذاميت وهذا حاسد

والى هذا المعنى ذهب الحميدى حين ترجم السعيد بن محمد ابن فرج بقوله : " ... وله من قصيدة طويلة في الرد على أبي الحسن على ابن العباس الرومي في النرجس ... "٣"

عني اليك فما القياس الفاسد
الا الذى رد العيان الشاهد
أزعمت أن الورد من تفضيله
خجل وناحله القضيلة عائد . "

---

١) ديوان ابن الرومي : ٢/ ٦٤٣ ، تحقيق حسين نصار ، ط القاهرة : ١٩٧٤م .
٢) الحلة السيراء : ١/ ٢٤٧ - ٢٤٨ ، تحقيق حسين مؤنس .
٣) جذوة المقتبس : ٢٢٨ ، ترجمة رقم ٤٦٣ .

وقد حاول الدكتور احسان عباس تلمس مخرج لهذه الظاهرة في الأدب الأندلسي حين قال "١" : " أما القطع الشعرية والنثرية التي كتبوها للمفاضلة بين نور ونور ، وأحدهم يرد فيها على الثاني ، فقد امتحنوا بها مقدرتهم الجدلية ، واتخذوا من الطبيعة موضوعا للجدل بدلا من أن يكون جدلهم حول شئون العقيدة اذلا كانت المناظرات في امور العقيدة مظنة خطر ، ومازال شأنها ضعيفا حتى ظهور ابن حزم ، وكانوا في الحالين يرضون لديهم ميلا عقليا أكثر من توفرهم على اقامة الصلة العاطفية بينهم وبين المنظر الجميل " .

فالدكتور عباس يحاول ان يربط هنا بين العداء الفكرى للفلسفة والجدل بعصر المرابطين وبين هذه المناظرات ، ولكن الواقع التاريخي لا يدعم هذا الربط ، ولا يبرر وجود مثل هذه الصلة ، اذ أن هذه القطع النثرية كانت في عصر الطوائف وما قبله ، ومن ثم لا معنى لا ستنتاج عباس بانهم قد اتخذوا من الطبيعة موضوعا للجدل بدلا من أن يكون جدلهم حول شئون العقيدة . اما ارضاء الميل العقلي وحده فلا أظنه تفسيرا كاملا يبرر كل هذا العدد من القصائد والقطع الشعرية . والرأى عندى ان هذه المناظرات كانت أدخل في باب شعر الطبيعة ووصفها ، وقد استغل الاندلسيون - لما فتح ابن الرومي هذا الباب - ماحبتهم به الطبيعة من جمال ، وأقاموا حول هذا الجمال موضوعا ادبيا تنافس الشعراء والكتاب في ابداء البراعة فيه ، وهذا لا نخلي الامر من التأثر العام بمدارس الجدل واساليب المناظرة والاحتجاج ، وذلك أن الموضوع بعناصره تكوينه يتيح لمثل هذا الاسلوب في العمل الادبي اكثر من غيره . هذا بالاضافة الى ان الادب الاندلسي انفرد عموما في شعره ونثره ، بظاهرة المعارضة قصيدة واحدة تثير عدة قصائد او رسالة تثير عدة رسائل

---

١) تاريخ الادب الاندلسي : (الطوائف والمرابطين) : ١٩٧ .

أو كتابا يستدعي آخرا تذييلا عليه ، وهي ظاهرة لم نجدها بهذا الوضوح في أدب المشرق .

خصائص اسلوب رسائل المناظرات :

لعل أهم خصائص هذه الرسائل ميلها الى الاسلوب الخطابي حيث تتابع الجمل والمترادفات وتقسيم الجملة فقرا فقرا ، مع عناية خاصة بالايقاع ومراوحه بين الاساليب البلاغية من سجع وازدواج وجناس وطباق مع رصانة هذا الاسلوب وجزالته ، وذلك بحل الشعر وتضمين الامثال والاستشهاد بالمأثور من القول . مثال ماجاء في رسالة السيف والقلم على لسان السيف : " جعجعة رحى لا يتبعها طحن ، وجلجلة رعد لا يليها مزن ... " . كما ان من الخصائص الفنية لاسلوب رسائل المناظرات العناية الفائقة بالخيال ، وهو خيال متأثر بحكايات الاساطير في ادارة الحديث على السنة غير الانسان وتمثل لهذا (برسائل الورود) السالفة الذكر ، ولعلها قد تأثرت الى حد ما بمناحي الرمز في قصص " كليلة ودمنة " ، أما ان الجدل في خصائص هذا الاسلوب فهذا ما لا تحتاج الى التدليل عليه . وقد ذكرنا فيما تقدم أن هذا اللون عموما من ثمرات تلاقح العرب بالثقافات الأخرى ، وقد توسعت العقلية العربية في هذا الاسلوب في ظل الاوضاع السياسية والاجتماعية السائدة فدخل ميادين ارحب حينن طرق باب السياسة وابواب الحياة العامة . واذا أردنا ان نعرف قيمة مثل هذه الرسائل الادبية عند كتاب الاندلس أنفسهم فيحسن ان نرجع الى رسالة الباجي المتقدمة ، كأنموذج لهذا اللون ، فانها كانت في نظر ابن الحناط "(١)" وهو كاتب قدير - مثالا للبلاغة والبيان الرفيع ، حيث

---

١) ابن الحناط : ابوعبد الله محمد بن سليمان بن الحناط — ==

قال في وصفها : " بعثت اليك برسالة الوزير الكاتب أبي عمر الباجي في النهار منقولة بخطي على اختلاله واختلاف اشكاله ، الا أن حسن الرسالة ، وموضعها من البلاغة والجزالة يغطي على قماءة خطي ، ودناءة /ضبطي فاجتلها - أعزك الله - عروس فكر ، لحظها جبير ، ولفظها سحر ومعناها بديع ، ومنتهاها رفيع ، ومرماها سديد ، ركب اللفظ الغريب ، فاعتنس له المراد البعيد يطمع ويوئيس ، ويوحش ويوءنس ، فاما اطماعها فبما تحرز من لدونة الفاظها ، وسهولة اغراضها ، واما ايآسها فبما يعجز من امتثالها ، ويبعد من منالها ، والله يمتعك برياض الآداب تجتني أزهارها وتنتقي خيارها " "١"

ثالثا : الرسائل

ثالثا : الرسائل العاطفية :

هي تلك الرسائل التي يطغى فيها شعور العاطفة والوجد على غيره من المشاعر وهي رسائل الانفعال والهيجان العاطفي قبل الفكر والخيال ، ولذلك يقل فيها الوصف ويرتبط الاسلوب وصياغته بالذات، ويتراوح طبقا لذلك، هدوءا وثورة وحدة وانفعالا . قد تكون رسائل الوجد ديني او رسائل شكايات واعتذاريات او رسائل تنم عن احساس بالغربة الروحية والضياع أو هي رسائل تعبير عن عاطفة الحب .

== الرعيني ز ، قال فيه ابن بسام : وأبو عبد الله هذا زعيم من زعماء العصر ورئيس من روءساء النظم والنثر في ذلك الأوان . . وكانت بينه وبين ابن شهيد متناقضات في عدة رسائل وقصائد اشرقت ابا عامر بالماء ، واخذت عليه بفروج الهواء / الذخيرة : ق ١ ، ج ١ ، ٤٣٧ ، وقال ابن حيان : في سنة ٤٣٧ هـ نعي الينا ابو عبد الله الحناط الشاعر الضرير القرطبي ، بغية الادباء التحارير في الشعر ... كان اوسع الناس علما بعلوم الجاهلية والاسلام ، عالما بالافلاك ، حاذقا بالطب والفلسفة ماهرا في العربية والآداب الاسلامية / نفس المصدر السابق : انظر الجذوة : ص ٥٨ ، الخريدة : ٢/٢٢٣ .

(١) الذخيرة : ق ٢ ،ج ١ ص ١٩٥

رسائل الوجد الديني :

يكتب بها من لم تسعده الظروف بزيارة بيت الله الحرام ، ومسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبره الشريف ، وهي بذلك تدخل في باب رسائل العاطفة لما بها من شوق الى امنية عزيزة حرمتها النفس، وهي تصور هذه النفس المحرومة النائية عن تلك الاماكن المقدسة حين تتلمس ضربا من العزاء والسلوان المفعم بالحنين ، وقد يكتب بها الكاتب على لسان من صدر من البيت الحرام كرسالة ابي القاسم "١" بن الجد التي خاطب بها سيد المرسلين ـ عليه الصلاة والسلام . وفيها يقول "٢" :

" قلبي بحبك معمور ومأهول ، وماعدل وعلى الايمان بك مفطور ومجبول وبتمثل ماعينته من عظيم آثارك مهول مشغول ومن لي بمقول لا يتخلله خلل ، ولا يدركه في الصلاة عليك والدعاء لك ملك ، ولا يشغله عن ذكر الله تعالى وذكرك سهو ولا خطل ... " .

فابن الجد لم يصدر حقيقة عن البيت الحرام ولكنه ـ تنفيسا عن ذاته الملتهفة ـ استعار ذاتا قد صدرت ومن ثم اجتر تجربتها ، وتمثلها بعين احساسه . وهي تمثل لونا من احلام اليقظة اذ يقول "٣" :

---

١) ابو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد الفهري المعروف بالاحدب تولى خطة الشورى في بلده ريه ،وتقلد وزارة الراضي ابن المعتمد بن عباد في رنده ثم كتب لابي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين ، وكان متفننا في المعارف والعلوم مقدما في الأدب والبلاغة ، وله حظ جيد من الفقه والحديث ،وكان فاضلا حسن العشرة توفي سنة ٥١٥ / انظر ترجمته في القلائد : ١٠٩ ، الصلة : ٥٧٤/٢ ، المعجب : ١٢٤ ، المطرب : ١٩٠ ، الخريدة : ق ٣ ج ٢ ص ٣٥٧ ، المغرب : ٣٤١/١ .

٢) الذخيرة : ق ٢ ج ١ ص ٢٨٧ .

٣) نفس المصدر والصفحة .

" ولما صدرت يارسول الله عن زيارتك الكريمة ، وقد ملأت هيبتك ومحبتك أرجاء فكري ، وفضاء صدري وغشيني من نور برهانك مابهر لبي ، وعمر قلبي ، لحقني من الأسف لبعد مزارك ، والحنين الى شرف جوارك ، ما أودع جوانحي التهابا ، واوسع جوارحي اضطرابا وأشعر املي عودا ، الى محلك المعظم ، وايابا ، وكيف لا أحن الى قربك وأتهالك في حبك ، واعفر خدي في مقدس تربك ، وبك اقتديت فاهتديت ، ولولاك ماصمت ولا صليت ، ولا سعيت ولا طفت ، بل كيف لا يتحرك نحوك نزاعي ، ويتأكد انقطاعي ، وبك استشفاعي واليك مفزعي يوم الداعي ، فلا تنس لي يارسول الله عياذي بك ولياذي واسراعي الى زيارتك ، واعتزازي ، واذكرني في اليوم العظيم المشهود ، عند حوضك المورود ، وظلك الممدود ، ومقامك المحمود " .

وابن الجد ان كتب هذه الرسالة على لسان من صور من البيت الحرام ، فقد كتب أخرى مهنئا ، من سعد لت بتلك الزيارة التي هي الحلم والأمنية يقول :(١) " كتبت وقد هزني وافد البشرى ، واستخفني رائد المسرة الكبرة مما سناه الله عن قدومك محوط الجوانب والارجاء ، منوط الفخار بذوائب الجوزاء ، محطوط الآثار في مواطن الرسل ، ومواطئ الأنبياء ، قبالها حجة مبروره ما أتم مناسكها ، وأوضح في مناهج البر مسالكها ... " ثم يغيب في حلمه حين يتخيل هذا السعيد وقد شرع في اتمام مناسك حجه : " ... واهتز البيت العتيق لطوافك واستلامك ، ورضيت المروة والصفا عن كمال أشواطك ، وتهلل بطن المسيل لسعيك فيه وانحطاطك ، ثم بالموقف الأعظم من عرفه سطع عرف تخشعك ودعائك ، وارتفع خفض تضرعك واستخذائك وفي البيت الاكرم من المزدلفة خطى تقربك وتزلفك وزكا تهجدك وتنفلك ، وعند الافاضة فاضت الرحمة عليك ، وكملت النعمة لديك ، وأما مني

---

(١) المصدر نفسه : ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(١) الذخيرة :

ففيها قضيت مناك وأوطارك ، وقبلت هداياك وجمارك ، وحطت خطاياك وأوزارك ... "

ثم يختم رسالته بتمثله رحلة الحج كاملة بعد أن تنقل في مشاعر الحج ومشارف المدينة المنورة ، ووقف على القبر الكريم ، فيقول مهنئا لذلك العائد من تلك الرحلة : " فهنأك الله مامنحك من جزيل الأجر في مواقف الحرمين وأطار لك من جميل الذكر في الخافقين ، ولما قعد بي عن قصدك ماقعد ، ولم يمكني الوفود عليك في جملة من وفد . استنبت كتابي منابي " .

ونجد أيضا رسالة لابن ابي الخصال "١" في نفس الغرض يعبر فيها : " عن دمع يفسح ونفس يلفح وصدر باشواقه ملآن يطفح ... وزفرة باحناء الضلوع تجيء وتذهب ، وحشاشة بطرائق البعد عنك تنهب " "٢" ومرد ذلك الأسى وهذا الحزن أني : " لم أعبر الى زيارتك لجة ولا موماه ولا أخطرت في معترك نفسا أنت منقذها مجتبيها ، ولا مثلت بمعاهدك المشهورة ، ومشاهدك المطهرة " .
فان كان هذا حاله فحق له ان ان ينعى النفس وضيعتها بقوله :

---

(١) هو الوزير الكاتب الشاعر ابو عبد الله محمد بن مسعود بن أبي الخصال الغافقي ، أصله من أهل شقورة ، سكن قرطبه ، وكان مفخرة وقته متفننا في العلوم متبحرا في الآداب واللغات وكان كاتبا وزيرا لابي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين ، وله ديوان رسائل شغف به أهل الأندلس ، وجعلوه اماما يحتذونه ومن كتبه (سراج الأدب) ذكره المقري في النفح : ٣/١٨٤ ، وكتاب ظل الغمامة وطوق الحمامة . ذكره ابن دحية في المطرب : ص ١٨٧ . توفي قتيلا سنة ٥٣٩ هـ ، أو ٥٤٠ هـ ، وكان مولده سنة ٤٦٥ هـ ، انظر ترجمته في : الصلة : ٢/٥٨٩ ، بغية الملتمس : ١٢١ ، ط مدريد ١٨٨٤م ، الخريدة ق ٤ ، ج ٢ ص ٤٥٩ ، معجم الصيرفي : ١٤٧ ، المعجب : ١٢٦ .

(٢

" فوا آسفا الا أهب الى ذراك مستقبلا ، والا أكب على ذراك مقبلا وآلا أصافح من تلك العرصات مدارس الآيات ومهبط الوحي والمناجاة ... " ثم يغيب في أحلامه داعيا ربه أن يبلغه أمنيته التي لا تزال حلما وهي زيارة قبر الحبيب المصطفى - عليه الصلاة والسلام - " اللهم كما جعلتني من امته واستعملتني بسنته وشوقتني الى آثاره ، وشغلت قلبي بتخيله وتذكاره ، وأريتني تلك المعالم المنيفة خيالا ، وخططت منها في الضمير مثالا ، وأشهدتني تأملها المسامع والفؤاد جمالا ، فأشف بمرآها بصرا ضريرا ، وأكحله بسناها يرتد بصيرا ... "

ثم نجد ابن أبي الخصال يعتذر عن رسالته هذه اذ " لو أوتيت يارسول الله يارسول الله سؤلي لسبقت اليك كتابي ورسولي ، لكن قل الوعد ، واستفل السفر وغادرني حرضا ولسهامهم بالوجد والأسى غرضا ، أتبعهم نفسا لا يؤوب وقلبا يسحقه القلق والوشوب " . ومن أجل ذلك " لم أملك يارسول الله الا رقعة تشكو بث التبريح وتحية خفيفة المحمل طيبة الريح " ويختم الرسالة متشوقا الى قضاء الحج وشهادة مواقيته ويشفع ذلك بقصيدة طويلة .

اما عن سبب كتابة مثل هذه الرسائل ، فهو كما يقول احسان عباس : "(١)" ... وسيلة للتعبير عن التدين الكامن في النفوس ، ولكنها بالنسبة للأندلس الآخذة بالضياع تشبث الغريق بحبل النجاة ، وتنفيس عن الحيرة الدنيوية في ظل الأهواء المتنازعة والامارات المنقسمة وكلما اشتدت وطأة الحياة السياسية على الأندلسيين وفدنهم اصبح التفاتهم الى " مصدر الدين " أقوى ، وحنينهم اليه أشد ، تعلقا منهم بخيط من خيوط الرجاء " . ورغم عمومية هذا التفسير وشموليته فانه ينفذ الى شيء من حقيقة هذا الموضوع . وقد حاولت من نصوص الرسائل أن استقرىء أسبابا لكتابتها ، فوجدتها جميعا تلتقي عند

---

(١) عصر الطوائف والمرابطين : ٣٠٧ .

حد الرحلة الخطيرة وبعد المسافة وما يكتنف هذه الرحلة من مشاق وأهوال وصعاب تعتبر مخاطرة بالنفس الم يقل ابن ابي الخصال :
" ولم أعبر الى ‌به زيارتك لجة ولا موماه ، ولا أخطرت في معترك نفسا " هنا يترجح أن الشوق مبعثه مشقة الرحلة التي جعلت أداء فريضة الحج تبدو في شكل امنية عزيزة المنال . ان حرمها الكاتب في الواقع لجأ الى التعويض عنها في الخيال . وذلك بتمثلها واجترارها .

ولعله من الجدير بالذكر ان هذه الرسائل تؤكد على فكرة الكتابة والتدوين اكثر من المشافهة والخطاب وسندها في ذلك نفسي ، وهو ان الكتابة أكثر قبولا من المشافهة ، يقول ابن الجد : " كتبت وقد هزني وافد البشرى " . ويقول ابن أبي الخصال : " كتبته باواضع الأمر والاغلال " . وغني عن البيان هـ ان هذا الغرض قد صار من أهم اغراض شعراء المتصوفة في الاندلس والشرق على السواء .

رسائل الغربة الروحية :

تصدر هذه الرسائل في الغالب عن اولئك الكتاب من ذووى التفوق العقلي والعلمي الذين لا يجدون من مجتمعهم المكانة اللائقة بهم فيتقدم عليهم في مراكز الدولة والحظوة لدى الحكام من لا يساويهم في رفعة المكانة ، ومن ثم فهي نفثة مصدور يعبر فيها عن تجربة مريرة . يقول ابن زيدون في هذا المعنى [1] : " ... ولم استغرب أن أسام مثل هذا الخسف في مسقط رأسي ومحق تمائمي ، وأول أرض مس ترابها جلدى ، فنظرت في مفارقة الوطن ، اذ قديما ضاع الفاضل في وطنه وكسد العلق الغبيط في معدنه ... " فهو هنا يصدر عن احساس بالاغتراب الروحي احساس الاديب بالقهر والضياع ومرده الشعور بالظلم وعدم التقدير وضيعة الولاء والذم احساس

---

(١) الذخيرة : ق ١ ج ١ ص ٣٥٦ .

الأديب بأن صوته الصداح قد ضاع بينما ارتفعت أصوات من هم دونه ، هذا الاحساس زاد للادباء والشعراء يستمدون من صراعه قوة دافع لابداعهم .

وان كانت نكبة ابن زيدون ذات بعد شخصي ضيق ، فهناك نكبات أوسع وأشمل ، تتحول الى شكايات ذاتية مسببة الشعور بالاغتراب . كما في رسالة الكاتب ابن الدباغ "١" التي يقول فيها "٢" " كتابي وعندي من الدهر مايهد أيسره الرواسي ، ويفتت الحجر القاسي ، ومن أجلها قلب محاسني مساويا ، وانقلاب أوليائي أعاديا ، وقصدي بالبغضة من حيث المقه ، واعتمادي بالخيانة من جانب الثقة ، فقس بهذا على سواه ، وعارض به ما عداه ، ولا تعجب الا لثبوتي لما لم يثبت له الخلق السرد ، وبقائي على مالا يبقي عليه الحجر الصلد " ومن ثم ، عاش الاديب مغتربا في وطنه بعيدا عن الناس يائسا من خيرهم " انا والله فعلت خيرا فعدمت جوازيه ، وما أحمدت عوائده ومباديه ، وزرعته فلم أحصد الا شرا ، ولا اجتنيت منه الا ضرا ، وهكذا جدي فما أضع وقد أبي القضاء الا أن افني عمري في بؤس ، ولا أنفك من نحوس " هذه المخاصمة مع الدهر والجور من الايام جعلته يرى الموت أمنية عزيزة غالية لهذه النفس المعذبة . " ... وياليت باقية قد انصرم وغائب الحمام قد قدم ، فعسى أن تكون بعد الممات راحة من هذا النصب ، وسلوه عن هذه الخطوب والنوب " .

---

١) هو ابو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ ، نشأ في ظل الامير المقتدر بن هود ، وحدث بينهما جفوة ، فهاجر ولجأ الى المعتمر بن عباد ، ثم الى المتوكل بن الافطس ولكن سوء خلقه وكثرة فجوره لم تمكن له عند أحد من الامراء فرجع الى سرقسطة وذبح في أحد بساتينها / انظر الخريدة ٢/٣٤٩ ، القلائد : ١٢٠ ، المغرب : ٢/٤٤٠ ،

٢) الرسالة كاملة في الذخيرة : ق ٣ ج ١ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ ، وفي القلائد : ص ٢٢١ .

ولعل من أشد رسائل الغربة الروحية ايقاعا ماكتب به أحمد ابن عباس "١" مخاطبا أهل غرناطة في أمر عتبوه عليه بقوله : "٢"

" ... لم أعقر ناقة رضاكم فأسخط ولا أكلت من شجرة عقوقكم فأشحط وانما اعطيتكم صفقة الطاعة لأكرم ، وانحرفت عنكم على زاوية المقه كي لا أهان ، ونمت على مهاد الثقة بكم لئلا اتهم ... " وسبب نفوره من قومه ، و، وتغربه عنهم ،ماجنتاه منهم من عدم التقدير والوفاء بعد أن " أجهدت نفسي في خدمة هواكم ، واتباع رضاكم ، وصرت منقادا لرمز حواجبكم ، وتبعا لركابكم ، على أنني ما أكلت من حلوائكم مايحطني في أهوائكم ، ولا لحظت من دنياكم العريضة بلحظة ، ولقد خبنا من صفقات أرباحكم ، وصرنا على الحرمان من متاجركم ، وقنعنا بشم قتاركم ، واستنشاق النسيم من لقائكم .. "

وقد يستعشر الاديب عبئا ثقيلا ، لا يرجو له دفعا ، ولا يستطيع منه خلاصا ، فيمضي يناجي النفس شاكيا حاله ، وضيعة أمره وهوان شأنه كما في رسالة أبي الحسن الحصرى "٣" التي قال

---

١) هو وزير زهير الصقلبي ملك المرية ، بد الناس في اربعة أشياء المال ، والبخل ، والعجب ، والكتابة ، كما يروى ابن بسام ، وكان حسن الكتابة جميل الخط ، مليح الخطاب ، غزير الادب ، مشاركا في الفقه ، جماعا للدفاتر حتى بلغت اربعمائة ألف مجلد ، وبلغ ماله خمسمائة الف مثقال جعفرية ، وتوفي مقتولا سنة ٤٢٧ هـ .
انظر النفح : ٥٣٥/٣ ، الاحاطة في اخبار غرناطة : ٢٥٩/١ - ٢٦٠ ، المغرب : ٢٠٥/٢ ، نقلا عن الذخيرة ق ١ ج ٢ ص ٦٤٣ .

٢) الذخيرة : ق ١ ج ٢ ص ٦٤٩ .

٣) هو علي بن عبد الغني أبو الحسن القروى المعروف بالحصرى ، شاعر أديب رخيم الشعر ، حديد الهجو ، دخل الاندلس وانتجع ملوكها بعد خراب بلده القيروان بعد الخمسين واربعمائة / الجذوة : ٣١٢ ، قال فيه ابن بسام : كان بحر براعة ورأس ضاعه وزعيم جماعة . ق ٤ ج ١ ص ٢٤٤ ، ==

فيها "١" : " ماحياتي بين الحيات وثباتي في الجميع أو الثبات، وقد حانت وفاة الوفاء ، وخانت صفات الصفاء ، وأرداني الزمان بأرذاله، وأعياني بتقلب أعيانه ؟؟ الجاهل هو الحاظي ، والعالم مبخوس الا حاظي ، والغاوي مقبول الدعاوى وما أبعد الخير من الغير ، والكيس من التيس ، والفضل من الفل ؟؟ اذا كان الجاه للجاهل ، والباس على الناس ، والمنافق هو النافق وصوحت المراعي ، وقل المساعد والمراعي ، فيا دهر ما أسهاك ، ويا موت ما أشهاك ، المنية هي الأمنية ، فالبر بائر والحر حائر ، بين اخوان ا، وأجوار جيران ، ان وصلوه صرموه أو سألهم حرموه ، وان اجاب بالصواب قالوا : أخطأ الجواب " .

ان هذه الشكايات التي كان سببها الشقاء والقهر أدت بالتالي الى لون من الانصراف عن هذه الدنيا والعزف عنها والتفكير بحياة أخرى أفضل وأكرم ، نجد هذا واضحا في رسائل ابن ابي الخصال والتي سمت بالشكوى الى مرتبة عالية من التشكي للبشر من حكام وسلاطين وأمراء الى التوجه الى الله سبحانه وحده : " ... الى الله اشكوها نفسا قليلة الهدوء ، امارة بالسوء ، تعب جسمي في مرادها ، ولعبت بي في ضلالات ارتيادها .. " "٢"

ويمضي متعففا عن دنيا الناس ، ونحس معه أن غرض رسائل الاغتراب قد سما عن مجرد الغربة الروحية بين الناس ومضى يلتمس طريقه في وجد وحنين آسر الى الذات العليا بعد أن ضاق بدنيا البشر .

= وذكر ابن خلكان في الوفيات : ٣٣١/٣ ، ان المذكور ابن خالة ابي اسحاق الحصري صاحب زهر الآداب ./ وانظر : شذرات الذهب : ١٨٥/٣ ، الحله السيراء : ٥٤/٢ ، ٦٧

١) الذخيرة : ق ٤ ج ١ ص ٢٤٩ .

٢) الرسالة كاملة في مخطوط (ترسل الفقيه الكاتب) ورقة ٧١

وقد نتساءل لم كان الاحساس بهذه الغربة منتشرا في الأدب الأندلسي ؟ لعل هذا الشعور قد تضخم لما بدأ الأندلسيـــون يستشعرون بكيانهم ، ويحسون بنبوغهم ، وتجاهل من حولهم ، لـهـذا النبوغ والاعجاب بكل مايصدر عن المشرق من علم وأدب وفن .

ولعل منذر بن سعيد البلوطي "١" قد عبر عن هذا المنحى النفسي الدقيق لما خطب في حضرة أمير الروم منتزعا اعجاب الحاضرين وقد ارتج على أبي علي القالي نجم الشرق فقال في نهاية خطبتـه مشيدا ببلاغته ، ولكن الذى أزرى به هو كونه أندلسيا وليس بشرقي :

---

(١) هو منذر بن سعيد القاضي أبو الحكم ، يعرف بالبلوطي ، نسبة الى موضع قريب من قرطبة ، يقال له فحص البلوط ، ولي قضاء قرطبة في حياة الخليفة الحكم المستنصر بالله ، وكان عالما فقيها ، وأديبا بليغا ، وخطيبا على المنابر وفـي المحافل مصقعا ، وله اليوم المشهود الذى ملأ فيـــه الاسماع ، ذلك ان الحكم كان مشغوفا بالقالي يؤهله لكـل مهم في بابه ، فلما ورد رسول ملك الروم أمره أن يقوم خطيبـا جريا على العادة ، فلما شاهد أبو علي الجمع خانته شجاعته ، ولم يساعده لسانه فسقط على الأرض ، فوثب البلوطي هـذا وارتجل خطبة عصماء أعجب بها من حضر وقال في ختامهـا الابيات المذكورة .
انظر الجذورة : ٣٤٨ ، نفح الطيب : ١/٢٤٠ .

هذا المقال الذي ماعابه فند
ولكن صاحبه أزرى به البلد
لو كنت فيهم غريبا كنت مطرفا
لكنني منهم فاغتالني النكد
لولا الخلافة أبقى الله بهجتها
ماكنت أبقى بأرض مابها أحد

وقد عبّر ابن حزم عن دقائق هذا الشعور في قوله "(١)" : " ما أشبهنا بالغريبة التي خيرها يدفن وبشرها يعلن ، يتعب أحدنا نفسه ، ويرهف حسه ، ويعارض السيف بفهمه ، والبحر بعلمه ، والنار بذكائه ، والزمان بمضائه ، ونتائج فكره محجوبة وبنات صدره غير مخطوبة :

ان يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا
عنه وما سمعوا من صالح دفنوا "

وقد ألف الفقيه أبو محمد بن حزم رسالته المشهورة في فضل الأندلس وذكر علمائها ومشاهير رجالها وفيها يشير الى ان الاندلس قد : " حضت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم والماهر منهم ، واستقلالهم كثير مايأتي به ، واستهجانهم حسناته ، وتتبعهم سقطاته وعثراته ، واكثر ذلك مدة حياته ، بأضعاف ما في سائر البلاد . ان جاد قالوا سارق مغير ، ومنتحل مدع ، وان توسط قال : غث بارد وضعيف ساقط ، وان باكر الحيازة لقصب السبق قال : متى كان هذا ؟ ومتى تعلم ؟ وفي أى زمان قرأ ؟ ولامه الهبل "(٢)"

---

(١) الذخيرة : ق ١ ج ١ ص ١١٥ ، ط القاهرة ١٣٣٩هـ وابن حزم المذكور : هو ابو المغيرة عبد الوهاب بن حزم وليس أبو محمد الفقيه المشهور .

(٢) الرسالة في نفح الطيب : ١٦٦/٣ ، تحقيق عباس .

ولعل هذا السبب نفسه هو الذى جعل ابن بسام يؤلف كتابه الضخم الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ويطنب في مدح من يترجم له من الادباء والشعراء ، وفي ذلك يقول في مقدمة كتابه المذكور[١]

" ... الا أن اهل هذا الأفق أبوا ألا متابعة أهل الشرق ، يرجعون الى اخبارهم المعتادة ، رجوع الحديث الى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما ، واخبارهم الباهرة ، وأشعارهم السائرة مرمى القصية ، ومناخ الرذية ، لا يعمر بها جنان ولا خلد ، ولا يصرف فيها لسان ولا يد ، فغاظني منهم ذلك ، وأنفت مما هنالك ، وأخذت نفسي بجميع ماوجدت من حسنات دهرى ، وتتبع محاسن أهل بلدى وعصرى ، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة ، وتصبح بحاره ثمادا مضمحلة ، مع كثرة أدبائه ووفور علمائه ، وقديما ضيعوا العلم وأهله ، ويارب محسن مات احسانه قبله . وليت شعرى قد قصر العلم على بعض الزمان وخص أهل الشرق بالاحسان ؟؟ " .

ومن هنا نطمئن الى أن من أهم دوافع الاحساس بالغربة الروحية في الأندلس وجود فجوة عميقة بين الشاعر أو الكاتب وجمهوره ، وذلك أن الجمهور قد تعود انماطا من الخلق والابداع الادبي محددة وهي ماجادت به قرائح المشارقة ، ومن ثم لم تقبل بسهولة - ابداعات الاندلسيين الخاصة ، كالموشحات مثلا ، فيقول صاحب المعجب في ترجمته لابن زهر "٢" : " ولولا أن العادة لم تجر بايراد الموشحات في الكتب المجدة المخلدة لاوردت له بعض مابقي على خاطرى من ذلك .. " .

---

١) الذخيرة : ق ١ ج ١ ص ٢

٢) المراكشي ، المعجب : ٢٤٦ تحقيق سعيد العريان ، القاهرة ١٩٦٣م .

ابن زهر : هو الوزير ابو بكر محمد بن الوزير ابي مروان ==

فالموشح عندهم لا يستحق التدوين والتخليد لانه اختراع أندلسي محض خرج عن السنن الشرفي فاعتبروه فنا شعبيا محليا لم يبلغ الى درجة الشعر الذى تتناقله الالسنة والكتب .

رسائل الاعتذار :

أشهر رساله اندلسية في هذا المجال هي رسالة ابن زيدون المشهورة (بالجدية) والتي وجهها الىابن جهور - أحد ملوك الطوائف الذى نقم عليه لسبب من الاسباب فأودعه السجن بعد أن كان وزيره وصاحب الحظوة عنده - مستعطفا اياه ليخرجه من السجن معتذرا اليه مما بدر منه .

ونريد هنا أن نقف عند هذه الرسالة بتأن لنستشف من تحليلها خصائص هذا اللون من الرسائل ، ونكتفي بها عن سواها لشهرتها في الأدب الأندلسي بخاصة والأدب العربي عامة ، ثم لارتباط العاطفة فيها بأحاسيس متباينة منها وقع الحب على نفس الكاتب - وقصته مع ولاده مشهوره - ثم نكاية الوزير ابن عبدوس به ، والأهم من ذلك سخط اميره عليه وانزاله من عل والزج به في غياهب السجون حيث " الجناة المفسدون واللصوص المقيدون ... "[١] على حد قوله . ومن ثم ننظر للرسالة نظرة أبعد من مجرد كونها استشفاع او اعتذار أو

== عبد الملك بن زهر .
قال فيه ابن دحيه : كان رحمه الله بمكان من اللغة مكين ، ومورد من الطلب عذب معين ، كان يحفظ شعر ذى الرمه - وهو ثلث لغة العرب - مع الاشراف على علي جميع أقوال أهل الطب ، وتوفي سنة ٥٩٥ هـ / المطرب : ٢٠٤ ، تحقيق الابياري ، وحامد عبد المجيد . وانظر : معجم الادباء : ٢١/٧ ، نفح الطيب : ٣٤٠/٤ .

(١) الذخيرة : ق ١ ج ٢ ص ٣٥٥ ، والعبارة من رسالة بعث بها لمن عاتبه بشأن فراره من السجن يبرر بها فعلته .

تنصل من ذنب بل نرى فيها أطيافا من المشاعر المختلفة كالحب والبغض والحسد والشعور بالظلم والمرارة كل هذه الاحاسيس مجتمعة تفاعلت لتنتج عنها هذه الرسالة التي يقول فيها : "١"

" يامولاى وسيدى الذى ودادى له واعتمادى عليه ، واعتدادى به ، ومن ابقاه الله تعالى ماضي حد العزم وارى زند الأمل ، ثابت عهد النعمة ، ان سلبتني - اعزك الله - لباس نعمائك ، وعطلتني من حلي ايناسك واظمأتني الى برود اسعافك ، ونفضت بي كف حياطتك ، وغضضت عني طرف حمياتك بعد ان نظر الاعمى الى تأميلي لك ، وسمع الأصم ثنائي عليك ، وأحس الجماد باستحمادى اليك ، فلا غرو ، قد يغص بالماء شاربه ، ويقتل الدواء المستشفى به ، ويؤتى الحذر من مأمنه ، وتكون منية المتمني في أمنيته ، والحين قد يسبق حرص الحريص :

كل المصائب قد تمر على الفتى

وتهون غير شماتة الحساد "

هذا الاستهلاك يشيع جوا من الاستعطاف والانكسار ويتخلله الطلب والرجاء " يامولاى وسيدى .. " .

ثم يشفع ذلك بتأكيد أحقية ولاءه الخاص للسيادة " ووادى له واعتمادى عليه واعتدادى به ... " .

ونلاحظ هنا ان حروف الجر التي جاءت على نسق متسار " له ، عليه ، به .. " أدت دورا في تدرج المعنى لتحدث الهزة والاستجابة المطلوبة ، فبعد أن كنّ الولاء أولا شفعه بالاعتماد وختمه بالاعتداد .

---

١) تمام المتون شرح رسالة ابن زيدون (الجديه) للصفدى ، تحقيق : أبو الفضل ابراهيم ، بيروت ١٣٩٨ هـ ١٩٦٩م ص ٢٢ .

وهذه دلالة الاقرار بالعجز المطلق ، وكأنه لا شعوريا ينفي عن نفسه تهمة التطاول التي حبس ومن أجلها .

ثم تأتي عبارات الاستعطاف المشبع بالدعاء للأمير ابن جهور وذلك باستعمال استعارات مركبة من مترادفات تبعد عن السجع والصنعة "

أبقاك الله ماضي حد العزم واري زند الامل . . . .

وغضضت عني طرف حمايتك " .

ثم تطويل جواب الشرط بعد تعداد الفواجع بهذه القطيعة " فلا غرو قد يغص بالماء شاربه . . . " يشف عن الهرب النفسي عند الكاتب مع ملاحظة مافي الاستلاب وان سلبتني - اعزك الله - لباس نعمائك من حده وجرح وظلم لا يطلك معه المرء الا ان يرفع الصوت متشفعا مسترحما . ولزيادة حدة الانكسار يوءدى الاستلاب الى جعل ابن زيدون خلوا عاطلا من كل حلي تزين . ونستشف البعد النفسي في اظهار الضعف باشعاره حلي المرأة التي هي رمز الرقة والاستسلام ، كما نحس دلالة الفاجعة من خلال الالفاظ المعبرة بها : اظمأتني ، نفضت ، غضضت ، فتعللي والي هذه الحروف المجهورة يحدث جلجلة قوية تضفي على الأمير المستعطف صفات العظمة والقدرة على المنع أو الحجب .

وتنتقل الرسالة لمسار آخر عندما ينتقل ابن زيدون ليوءكد ذاته ، وهذا يعني لا شعوريا الرفض لهذا الواقع المعاش ، وكان لسان حاله يقول : لست انا من يكون في هذا المقام ولي الباع الطويل في الشعر والنثر ، وليس كل شعر اونثر بل بوجه خاص قولي فيك يا ابن جهور ، كل ذلك في اطار من المبالغة والتهويل عله يبلغ من أميره اذنا صاغية فيقول :

" . . . بعد أن نظر الاعمى الى تأميلي لك ، وسمع الأصم ثنائي عليك وأحس الجماد ، باستحمادى اليك . . . " .

أى ان مطلق حبي وولائي لك أحدث الخوارق والمعجزات

ثم يعود - وكأنه أحس بما في خطابه للأمير من جرأة - يلتمس العزاء في تصرف عجز عن تصور دوافعه وأسبابه فعزاها الى الاقدار " .... فلا غرو قد يغص بالماء شاربه ويقتل الدواء المستشفى به ... " ونلاحظ الايقاع الرقيق مع التزام فواصل السجع ، وفي البيت المستشهد به ينتقل ابن زيدون لشرح بعض الاسباب التي أدت الى ماهو فيه وخاصة عند ذكره " شماتة الحساد " فأعداؤه وحساده اذن طلاب شماته ، وهذا بيت الداء وسبب البلاء ، وقد آن للأمير أن يدرك ذلك .

وفي الفقرة التالية يقول :"١" واني لا تجلد وأرى الشامتين أني لريب الدهر لا أتضعضع ، فأقول : هل انا الا يدا أدماها سوارها ، وجبين عض به اكليلة ، ومشرفي الصفة بالارض صاقله ، وسمهرى عرضه على النار مثقفة ، وعبد ذهب به سيده مذهب الذى يقول :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازمــا

فليقس أحيانا على من يرحـم "

فهو يظهر الجلد وطيب المعدن عند الشدائد ليغيظ الحساد الشامتين ويعقب ذلك برسم صورة مشرقه له ولأميره وكأنهما متساويان في المنزلة فهو يد والامير سوار ، وجبين واكليله ، وسيف وصاقله وسمهرى ومثقفه ، هذا الاحساس النسبي بالتساوى يوحي الامل بقرب الفرج عند الكاتب .

" هذا العتب محمود عواقبه ، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلي ، وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تقشع ، ولن يريبني من سيدى ان أبطأ سيبه أو تأخر غير ضنين غناؤه ، فأبطأ الدلاء فيضا أملؤها ، وأثقل السحاب مشيا أحفلها ، وانفع الحيا ماصادف جدبا ، وألذ الشراب ما أصاب غليلا ومع اليوم غد ولكل أجل كتاب ، له الحمد على اهتباله ولا عتب عليه في اغفاله .. "٢"

---

١) تمام المتون : ٢٢ .
٢) المصدر السابق والصفحة نفسها .

ونلاحظ هنا تعليل الكاتب لعتب سيده المحمود العواقب ، وربما فعل ذلك حتى لا يحمل كلامه من قبل حساده على غير محمله ويفسر بأنه مناهد للأمير ابن جهور ، ثم يقول : " ماهذا الذنب الذى لم يسعه عفوك ، والجهل الذى لم يأت من ورائه حلمك ، والتطاول الذى لم يستغرقه تطولك ، والتحامل الذى لم يف به احتمالك ، ولا أخلوا من أن أكون بريئا فأين العدل أو مسيئا فأين الفضل ؟

ألا يكن ذنب فعدلك واســـع
أو كان لي ذنب ففضلك أوســـع

حنانيك قد بلغ السيل الزبى ، ونالني ماحسبي به وكفى ، وما أراني الا لو أني أمرت بالسجود لآدم فأبيت ، واستكبرت ، وقال لي نوح (اركب معنا) فقلت : (سآوى الى جبل يعصمني من الماء) وأمرت ببناء الصرح ... وعكفت على العجل ، واعتديت في السبت ، وتعاطيت فعقرت .. ورجمت الكعبة وصلبت العائذ على الثنية ، لكان فيما جرى على مايحتمل ان يسمى نكالا ، ويدعى ولو علـــى المجاز عقابا ... فكيف ولا ذنب الا نميمة أهداها كاشح ونبأ جاء به فاسق ". "١

وفي هذه الفقرة يبلغ درجة من المرارة والاحساس بالظلم تجعله يلجأ الى السجع المقفى ليجتر على مهل شريط ذكرياته علها تعــود عليه بشيء يخفف من أحزانه ، فالمقابلات التي يوردها ترمي الى اظهــار التعارض بين فعلته ، وما استوجبته من عقاب ، لكن حنانيك ، نحسهــا صرخة مدوية تخرج من فؤاد مكلوم معنى ، ثم يعدد بعدها ذنوبا كبارا ، استوجبت غضب الله - سبحانه وتعالى - ومقتــه ويقرنهـا بذنبه افاذا هو لا بالنسبة اليها هين لا يحدث شرخا في نواميس الكون ، وذلك أدعى للاحساس بالظلم ، والاكثار من الاستشهاد بهذه الوقائع

---

١) نفس المصدر : ٢٣ - ٢٤ .

يبعد بالرسالة بعض الشيء عن روح التحسر الذاتي ، وغلب جانب الفكر على الجانب الوجداني ، وربما كان ابن زيدون يقصد اليها بعمد مدللا على سعة اطلاعه ونضجه الثقافي ، وان هذه المعرفة جديرة أن ترفعه الى مصاف الوزراء والكبراء لا أن تزج به في غياهب السجون .

ثم يوكد انه لا يزال يسير في نفس النهج الذى نهجه من قبل مع الأمير ولم يغير أو ينحرف .

" ووالله ماغششتك بعد النصيحة ، ولا انحرفت عنك بعد الصاغية ولا نصبت لك بعد التشيع فيك ولا أزمعت يأسا منك مع ضمان ، تكلفت به الثقة منك ، وعهد آخذه حسن الظن عليك ، ففيم عبث الجفاء بأذمتي وعاث العقوق في مواتي ، وتمكن الضياع من وسائلي .. ولم ضاقت مذاهبي ، واكدت مطالبي ؟ وعلام رضيت من المركب بالتعليق ، بل من الغنيمة بالاياب ، واني غلبني المغلب ، وفخر علي العاجز ، الضعيف ، ولطمتني غير ذات سوار ، ومالك لم تمنع مني قبل أن افترس ، وتدركني ولما أمزق ، أم كيف لا تتضرم جوانح الاكفاء حسدا لي على الخصوص بك ، وتتقطع انفاس النظراء منافسة في الكرامة عليك وقد زانني اسم خدمتك وزهاني وسم نعمتك " "١" .

في هذه الفقرة يركز الكاتب على الضمائر لاظهار حدة العاطفة المنشودة والاشعار بالمخاطبة الذاتية الخاصة المفردة ، ورفع الكلفة ثم الضرب على وتر الشعور بالعبء الشديد من شماتة الحساد ، مع اظهار العجز الكامل عن دفعها وردها ، وهذا الحسد من قبل الأعداء راجع الى كرم الامير وعطفه على ابن زيدون ، وهذا الحسد ليس بمستغرب فكثيرا هم الذين يغيظهم منزلة هذا الاديب الكبير عند الأمير الخطير ، ويتمنون ان ينالوا مثل ذلك .

---

(١) تمام المتون : ٢٥

ثم تتوالى الهزات النفسية في نفس الأديب والتي سببها عدم التوازن العاطفي بين الطرفين ، فعطف وحب من قبل ابن زيدون يقابل بالجفاء والهجر والابعاد من قبل الأمير فيتوجه اليه بلهجة عتاب فيها شيء من الاستعطاف " ... فما هذه البراءة ممن يتولاك ، والميل عمن لا يميل عنك وهلاّ كان هواك فيمن هواه فيك ، ورضاك عمن رضاه لك .

يامن يعز علينا ان نفارقهم

وجداننا كل شيء بعدكم عدم " "١"

ويختم الرسالة بقوله : " اعيذك ونفسي من أن أشيم خلبا ، واستمطر جهاما ، وأكدم في غير مكدم ، واشكو شكوى الجريح الى العقبان والرخم ، فما أبسست لك الا لتدر وحركت لك الحوار الا لتحن ، ونبهتك الا لا تنام ، وسريت اليك الا لاحمد السرى لديك ، وانك ان شئت عقد أمر تيسير ، ومتى أعذرت في فك أسرى لم يتعذر ، وعلمك محيط بأن المعروف ثمرة النعمة ، والشفاعة زكاة المروءة وفضل الجاه ، تعود به صدقه :

واذا امرؤ أهدى اليك صنيعة

من جاهه فكأنها من ماله : "٢"

فهو يتهض بكبرياء جريح نحسه في مرارة الكلمات وفي المقاطع المركزة البعيدة عن الصنعة اللفظية . في اطار من الأماني " لعلي أن ألقي العصا بذراك ، يستقر بي النوى في ظلك ، وأستأنف التأدب بأدبك ، والاحتذاء على مذهبك ، فلا أوجد للحاسد مجال لحظة ولا أدع للقادح مساغ لفظة " "٣" .

هذه هي الارض التي ينشدها ابن زيدون عسى أن يكون بها مقامه ،

---

١) نفس المصدر والصفحة .
٢) المصدر نفسه : ٢٣ .
٣) تمام المتون : ٢٧ .

ليستفيد سالف عصره ، وماتم به من قبل ، ثم يعمد الى اظهار براعته الشعرية - كما أظهرها في النثر - ليرى الوزير سبقه بكل ميدان يجرى فيه .

ونلاحظ أن الشعر المستشهد به في الرسالة يمثل فواصل استراتيجية تجدد النشاط وتبقي الحدث في ذروة الحركة بل هي في بعض الفقرات تمثل قمة المأساة ، وخاتمة يبدأ من عندها وجه جديد كجانب جديد من التحسر والضياع ... هذا بجانب الاستفادة الواعية من التراث العربي حكما وامثالا ومقولات وأشعارا وقد نحس أحيانا بعض التعقيد في فقرات الرسالة ، ولعل مرد ذلك أن الموضوع ينبع من أعماق نفس غائمة يصعب التعبير والافصاح عنها بوضوح ، لذلك نجد الكاتب يلجأ الى استعمال الضمائر والجمل الاعتراضية مع التحديد والانقطاع المفاجيء في التعبير ، والاسلوب عموما يتراوح بين الاعتدال والثورة في اطار من انتقاء اللفظ وايقاع الجرس الموسيقي المؤثر ، ومن خصائص الاسلوب العاطفي بعامه ، الاكثار من الجمل القصيرة المنفصلة ، وهي دلالة الانفعال المتدفق الجامح ، والنفس الهائمة المضطربة ، ثم يزاوج بجمل طوال مسجوعة - وهي دلالة الانشراح العاطفي بالحلم المنشود . كما يحس القارئ إن الكاتب يتحدث عمع نفسه . كما يشف الاسلوب أيضا عن الحزن العميق والتشوف للحرية والانطلاق والبكاء على الحياة من منطلق الحيرة والقلق ، كما يمتاز بالدفق الموسيقي المتراوح بين العنف والهدوء والانسياب والثورة ... دفقات الاحساس الغاضب الحاد ، والهادىء المستكين المستشفع .

رابعا : الرسائل الوصفية :

ويقصد بها الرسائل التي توجه عناية خاصة للأوصاف اكثر من عنايتها بالمحتوى الفكرى او العاطفي ، وغالبا ماتفتمل هذه الرسائل قصة أو موضوعا يكون تعلة ينفذ الكاتب من خلالها الى غرض غرضه الاساسي في الوصف ، وكثيرا ماتجر الرسالة الواحدة من رسائل الوصف، رسائل أخرى وخاصة عندما يدخل حلبة النزال كتاب أخر يقصد اظهار البراعة والاقتدار على مجاراة الرسالة الأصل ؛ ومحاولة التفوق عليها ، ومن ثم نرى أمامنا حشدا من الرسائل في وصف أشياء متعددة ومن أهمها في الاندلس .

الطرديات :

الطرديات غرض شعرى هام ، يصف الشعراء فيه الوحوش ، والغزلان ، والطيور وعدو الصيد من كلام ورماح وسهام وصقور وخيول .. كما نجده غرضا نثريا رائعا لكتاب الرسائل الأدبية ومن أمثلة ذلك رسالة أبي عبد الله محمد المعروف بابن الحناط "١" ، التي تقص علينا رحلة الصيد للكاتب مع رفقه من أصحابه واترابه ، فنراهم وقد توسطوا " وهدات الربا وعنت لنا اسراب الظبا كأنما ألبسن الدمقس سربالا واتخذن السندس سروالا " "٢" ومن ثم تبدأ المطاردة والقنص وماهي الا لحظات حتى غادروها " بين جريح مضرج بدمائه وقتيل يجود بدمائه " وبعد ذلك ينزل القوم للاستراحة والأكل والشرب في آخر الليل ، ولعل وقوفنا على وصف الكاتب الدقيق للمجلس يوضح لنا الغرض الاساسي لهذا اللون من الرسائل ، يقول :

فنزلنا معرسين ، وأقمنا مخيمين وشبت النار وتناثرالشرار

---

١) تقدمت ترجمته

٢) الرسالة كاملة في الخريدة ق ٤ ج ٢ ص ٢٢٣ - ٢٣٥ .

وظل طهاة اللحم من بين منضج
صفيف شواء أو قديد معجل

فلما قرب ، وصف الشواء وصهب "١" ، تعاطينا لحما كالعقيق ، وتهادينا شحما كالشقيق ، ثم قام كل الى جواده يمشي بعرقيه كفيه ، ويمسح نسعه بين عينيه ، ونحن اذ ذاك بحيث تضاحك الورد والبهار وتمازج النور والأنوار ، وأرضنا بمخضر بنت صاغ النور تاجه ، وحاك القطر ديباجه ، وسماؤنا غدافية الاهاب ، هامعة السحاب ، فماء الندى سكوب ، ورواق الطل مضروب ، والريح تصفق والغصن يتثنى والقبرة تصرصر ، والبلبل يتغنى ، وقد خيم السرور ، وجعلت الكأس تدور ، ولا حديث يسقى بها ، غير هاك ، وهاتها ... " .

ولعل أهم ما نلحظه في هذه الأوصاف ارتباطها بالحالة الشعورية المسيطرة على الكاتب ، اذ يطبع ما بنفسه من بهجة ومسرة على مظاهر الطبيعة ، ومن ثم تبدو الاوصاف مشرقة مشعة متفتحة ، فيتضاحك الورد والبهار وتتمازج النواوير ، ولتصف الريح ويتثنى الغصن ، وتتغنى الطيور ، انه يضفي أوصاف الحياة النابضة بالحركة والمرح على هذه الموصوفات على اختلاف هيئاتها بحيث يكون صور متكاملة لما يشعر به في نفسه من بهجة ومرح . أما الساقي الذى يدير المدامه " فغزال يدير في كفه منها الغزالة ، وهلال تحفه من أصداغه هاله ، تنفس الصبح من طرفه ، وعسعس ليل الشعر من فوقه . كأن الجلنار من خده خلق والاقحوان من ثغره سرق ، ذو خصر صوال الوشاح وبشر كالدرة ... " ثم تمضي هذه الرحلة الى مرحلة جديدة وهي الانتقال من صيد البر الى صيد البحر " أقبلت الزوارق تهفو بقوادم غربان ، وتعطو بسوالف غزلان تخالها في سمائه أهلة مكسوفة ، وتحسبها فوق مائه رعيل دهم مصفوفه " .

---

(١) صهب الشواء : احمر ، والمصهب ، واللحم المختلط بالشحم . اساس البلاغة ، مادة (صهب) ص ٥٤٨ .

ثم ركبوها باسم الله مجراها ومرساها وفي أثناء ذلك يشرع في وصف شباك الصيد والصنانير التي " كأظفار السنانير قد عطفها القين ، كالراء وصيرها الصقل كالألاء ، فجاءت أحد من الابر وأرق من الشعر ، كأنها مخالب صرن أو نصف حلقة زرد ... " ثم يمضي في الوصف التفصيلي لعملية الصيد والتي تنتهي باستخراجهم لحما طريا ، واشتوائه وأكله هنيئا مريئا .

ولا يخفى علينا هنا أن الكاتب نجح ووفق في تصوير الحركة كما نحسه في اندفاع الزوارق بقوة وحركة الصيادين النشطة ، فأهدوا بها (أى الصنانير) الى مقر السمك ، وقذفوها في سماء لازوردية الحبل فما هو الا ريث قذف تلك الرجوم من غوره ، وطلوع الفينان ، أشباه النجوم من غوره تبرق ببريق الصوارم المسلوله ... " ولعل أوضح ظاهرة ندركها في رسائل الوصف الطردية عناية الكاتب بايجاد قدر من الحركة ، وذلك أن الموضوع من أساسه يرتبط بالبعد الشعورى المعبر عنه ، كما جاء في وصف الكاتب لحمامة انفردت عن الفها فبصربها باز فجد في أثرها ليقتنصها ، وبعد أن يصف الباز جزءا جزءا " فكأنما اكتمل بلهب واشتعل بذهب ... من رماحه اظفاره ، ومن سيوفه منقاره ، من اللواتي تنافس الملوك فيهما وتمسكها عجبا بها ... " ثم يصف عطية مطاردته للحمامة فيقول : " فلما ارتقت في السماء ، اتخذ اليها سلما من الهواء ، وهي تبعد منه بعد الأمل ، وهو يقرب منها قرب الأجل ، واختطفها أسرع من اللحظ ، ولا محيد لها عنه وانحدر بها أقرب من اللفظ ... " ولابن خاقان أيضا رسالة في نفس الموضوع يصف فيها رحلة مع ثلة من الوزراء والجند يحفون بالملك الأجل ، فمضوا يتهمون وينجدون ويبحثون عن القنص في كل مكان ، وبينما هم كذلك " اذ سنح لهم في البلسائط سانح ، وارتاع من الغوق ، ومر لا يستمسك بواضح الطريق ، فتارة يسلك مستبينا ، وتارة لا يعرج شمالا ولا يمينا ، ومازالت الجياد تبارى استنانه ، وذوات المخالب تحاكي روغانه ، حتى عادت عليه الارض قضا ، وساقته الينا قبضا ، فعلقته كف كائد ،

لا حبالة صائد ، فأخذه صاغرا ، وفم الحمام قد تعرض فاغرا ، فذكاه بشفرته ، وقذف زاده في ثغرته وما زلنا تستوفر عددها ، وتقصر أمدها حتى ملأت الحقائب وأتعبت الركائب ، وأذكت الهاجرة شواظ لهيبها ، ولوت الصبا عناق هبوطها ... "١"

ولا يخفى مافي هذه الرسالة من خصائص رسائل الوصف كالارتباط بالحركة الشعورية وتصوير الحركة العنيفة حتى ان القارئ يشعر بأن الأنفاس تتلاحق بسرعة عند قراءة هذه الفقرة . كما نستشعر فيها الشدة والجذب وقوة الطراد وسرعته ، ثم تهدأ الحركة العنيفة عندما ينزل القوم للراحة والتمتع بالطعام والشراب في بعض الحدائق التي يرسل ابن خاقان نفسه في وصفها بقوله :

" فملنا الى حدائق امتد عليها من أرومتها رواق ، وغازلتنا من أزهارها جفون وأحداق ، فخططنا بساحتها وانبسطنا في رحب ساحتها ، ودارت بيننا راح تلقيناها بالراح ، ولوعا ، وحسبناها شمسا طلعت طلوعا ، وما زلنا نديرها كبارا وصغارا ، نجوم اتخذت الافواه مغارا ، الى أي فتى اليوم أوهم .. " وواضح في الرسالة التمارض بين بين الحركتين ففي ميدان الطراد حركة مثل مروق السهم ، وهنا حركة هادئة تتمثل في الفاظ الميل ، والمغازلة ، الحط ، دوران الراح ... الخ .

وصف المطر بعد القحط :

هذا الموضوع من اغراض الرسائل الوصفية المفضلة ، اذ يتيح للكاتب مجالا خصبا للتفنن في الوصف ، ونجد الرسالة في الغالب تقسم الى فواصل ثلاث : حين تبدأ الأولى بالتسليم الكامل لقضاء الله وقدره والثانية في وصف الارض حالة جدبها وقحطها ، والثالثة وصف الارض حالة

---

١) الرسالة في الخريدة : ق ٤ :٢/ ٦١١ - ٦١٢ .

اخضرارها وازدهارها عقب هطول المطر وتختتم الرسالة بحمد الله وشكر نعمه .

ونعرض في هذا المجال لرسالة الكاتب ابي عمر الباجي : فنجده يستهلها بقوله "١" : " ان الله تعالى قضايا واقعة بالعدل واعطايا جامعة للفضل ، ومنحا يبسطها اذا شاء انعاما وترفيها ، ويقبضها اذا أراد الهاما وتنبيها ، ويجعلها لقوم صلاحا وخيرا ، ولآخرين فسادا وضيرا ((وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ، وينشر رحمته وهو الولي الحميد)) . وبعد هذا التسليم لامر الله والايمان بعدله في قضاءه يبدأ في التمهيد لوصف حال الارض المجدبة ، وذلك بوصف الجدب في النفوس اولا ، وهي وقفة نفسية دقيقة يربط فيهما بين الجدب الروحي ممثلا في الهلع والخوف وخيبة الأمل ، والجدب المادى مثلا في الجفاف وموت الزرع وجفاف الضرع وغير ذلك . فيقول : " وانه كان من امتساك السقيا ، وتوقف الحيا ، ماريع به الآمن ، واستطير به الساكن ، ورجفت الاكباد فزعا ، وذهلت الالباب جزعا ، وأذكت ذكاء حرها ، ومنعت السماء درها ، واكتست الرياض غبره بعد خضره ولبست شحوبا بعد نضره ، وكادت برود الرياض تطوى ، ومدود نعم الله تزوى " .

والالفاظ توحي بحالة الجفاف والقحط من خلال المقابلات بين الغبرة والخضرة ، والشحوب والنضرة . ثم كان ان " نشر تعالى رحمته ، وبسط نعمته ، وأتاح منته وأزاح محنته ، فبعث الرياح لوافح ، وأرسل الغمام سوافح ، بماء دفق ، ورواء غدق ، من سناء طبق ، استهل جفنها فدمع ، وسح دمعها فهمع ، وصاب وبلها فنقع .

---

١) الذخيرة : ق ٢ ج ١ ص ١٩٦ - ١٩٧ ، والباجي تقدمت ترجمته .

وكان من جراء هذا الخير التعميم أن " استوفت الارض ريا ، واستكملت من نباتها أثاثا وريا ، فزينة الارض مشهورة وحلة الزهر منشوره " وان زوال الجدب المادى ، ليصاحبه بالمثل زوال الجدب الروحي " ومنة الرب موفورة والقلوب ناعمة بعد يوءسها ، والوجوه ضاحكة اثر عبوسها ، وآثار الجزع ممحوه ، وسورة الشكر متلوة ... "

وواضح هنا أن التعارض بين النعيم والبوءس ، والضحك والعبوس والجزع والشكر ايحاء موفق بالحالة الشعورية . وان كانت الحركة قوام رسائل الوصف الطردية ، فان اللون هو قوام هذا النوع من الرسائل ، يتعامل معه الأديب ببعدين : بعد داخلي وبعد خارجي ، بحيث يجعل تلوين الصورة خاضعا لتجربته ، واستعمال الألوان المتضادة والمتعارضة من أنجح وسائل التصوير في هذه الرسائل كما نري ذلك في رسالة لابي محمد بن عبد الغفور "١" ، اذ يقول في وصف الارض حالة جدبها : " قد غبط طير الماء ضباب اليهماء وحجبت كاسف الرجاء نيرات النعماء ، وشابت مفارق الرياض ، وغاضت مفعمات الحياض واقشعرت الربى ، وحل نبت الحاجر عقد الحياء وباتت أزهار الغيطان عليلات الاجفان ، تستسقي نجوم السماء ، وتتوسل بالشبه الى ذوات الانواء ... " "٢"

---

١) هو ابو محمد بن عبد الغفور الكلاعي ، الوزير الكاتب . من بيت علم وأدب ، نشأ بين يدى ابيه ابي القاسم بن عبد الغفور في دولة المعتمد بن عباد ، وابو محمد هذا كاتبا لعلي بن يوسف بن تاشفين ، وقد نعته ابن خاقان بالتهور وكثرة التقعر والهوج ووعورة المنهج ، ويرميه بالحسد والحقد ، غير أنه يثني على منثوره ومنظومه .
انظر : خريدة القصر : ق ٤ ج ٢ ص ٤٢٤ ، القلائد : ١٨٢ ، المطرب : ٢٣٦ . المغرب : ١/٢٤١ .

٢) الذخيرة : ق ٢ ج ١ ص ٣٤٣ .

وعند ما جاءت رحمة الله بنزول المطر : " نمنم وشي التلاع بيد لطيفة ضاع ، ورصع تيجان الآكام ، بنطف الغمائم السجام ، فاهتزت القطارية لذلك القطار ، واشتملت على محسنها من الأوطار، وضحك ثغر الروض بعد عبوس ، ونقل الى سعة الرحمة من ضنك البوس ، وسجلت فواهق الانهار مذانبها ، ونشرت عرائس الازهار ذوائبها ، ولعله قد وفق في الايحاء بواقع الحالين حين كسى صورة في اللوحة الاولى بلون قاتم أسود نحسه في ذبول الرياض وجفاف أحواض الماء ، . .

- وكسا صورة في لوحته الثانية بلون مبهرج كثير الالوان متعددها تعدد الوان الأزهار من أصفر وأخضر واحمر ، لتوحي هذه الالوان جميعا بصورة لامعة للربيع الطلق وقد كتب في هذا الموضوع أيضا أبو القاسم ابن الجد فلم يخرج عن هذا الاطار المتقدم حين صور الجدب الروحي لما أمسكت السماء قطرها " وصدع لنيل اليأس صبح الرجاء ، وخلع عامل البأس والى الرخاء . . . " أما الارض فقد " تأهبت رياض النجاد لبرود الحداد ، واكتحلت أجفان الازهار بأشد النقع المثار، وتعطلت اجياد الانوار من حلى الديمة المدرار " . "١"

ولما نزل المطر " اهتزت رفاة النبات طربا لتغريد مكتها ، فكأن صفاء قد نشرت على بسيطها بساطا منوفا وأهدت اليها من زخارف بزها ومطارف وشيها ألطافا وتحفا " ولا يخفى هنا اثر الالوان في الربط بين الصور وفقا للحالة الشعورية المصورة والمعبر عنها .

وكتب ابن أبي الخصال رسالة أيضا في هذا الموضوع لم تخرج عما ذكرناه من خصائص : حين مهد للجدب بما أصاب النفوس من الهلع والفزع ثم يستخدم اللون في وصف الصورتين وصورة الجدب ، وصورة الارض المخضرة ، ولعله قد أطال بعض الشيء لما عني بوصف النهار الممطر بقوله : "١" . . . وأتى الله بأمره فهبت الريح عاصفا واستهل

---

(١) رسائل أدبية (مخطط بدار الكتب) ورقة ٢٣ ، مجهول المؤلف .

(٢

الرعد قاصفا ، ولمع البرق خاطفا ، انبعث غماما وأقام لزاما وفي مثل ارتداء الطرف احتكت ضروعه ، وتفجر ينبوعه ، ووافي عباب السيل يلتطم واقبلت غوارب الموج ترتكم ... " ولعل الجديد في رسالته انه اتخذها وسيلة لتذكير المؤمنين بأفضال الله ونعمه .

الزرزوريات "١" :

هذه الرسائل في مضمونها ترمي الى وصف أصحاب الكدية والادباء الذين يفتجعون الامراء والملوك لعرض بضاعتهم الادبية ، التي ان لقيت القبول عاش صاحبها في بلاط ذلك الامير او الملك ، وانقطع له بالمدح ووصف معاركه ورحلاته وغير ذلك ، ولذلك راج في رسائل الادباء - وخاصة في القرن الخامس - غرض الشفاعات لدى ملوك الطوائف الذين كانوا يحرصون على جلب الادباء من شعراء وكتاب ليزخرفون القصائد في مدائحهم ، وينمقون الكتب والخطب بأسمائهم ، ومن أمثلة هذه الرسائل رسالة لابن حسداى وزير بن المقتدر بن هود صاحب سرقسطة وكاتبه ، شفاعة للاديب أبي الحسن الحصرى لدى اميره المذكور ومنها " ... ومازال ذراك الرفيع سابغا على ذوى الاخطار ظله ، غامرا لذوى الاداب افضاله ، باهرا فضله ، وأحقهم بأجزل البر الاوفى ، من هاجر اليه على بعد المدى مهلا بمحامده ومدائحه ، مستشعرا لميامن قصده ومناجمه ، وهو الشيخ الفاضل الكامل أبو الحسن ابن عبد الغني ... وهو البارع المتقدم في احسانه ، وتصرفه في

(١) الزرزور : بفتح أوله وضمه طائر من فصيلة العصافير ، طويل الذنب مرقط يتلون ألوانا شتى ، يتميز بالحركة والنشاط ، فهو يفرخ في البلاد الشمالية ، ويرحل في الشتاء الى العراق والشام وجزيرة العرب ومصر والمغرب . / انظر الحيوان : ٥/٢٠٧ ، تحقيق عبد السلام هارون ط القاهرة ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦م

الابداع واتفتتن

الابداع وافتتانه ،... والله تعالى قد شرف رتبتك ونزه منصبك عن الاصغاء الى تنميق الوشاة ، والاجازة لكيد المداة .. "1"

وهذه الرسائل تستعير صورة الزرزور - في سخرية لطيفة - لما يمتاز به هذا الطائر من خفة حركة وفهم ... اطارا نصب فيه اوصافها الساخرة ، ولعل أول من استثار هذا اللون من الرسائل الوزير الكاتب ابن سراج "2" حين كتب لابن الجد رسالة شفاعة في أمر شخص يعرف بالزريزير - تصغير زرزور - يقول فيها : "3" :

" كتبت أحرفي هذه ، والود صقيل الوذائل ، مطلول الخمائل ، جميل البكر والاصائل ، والله تعالى يزيد أزهاره وضوحا وأطياره صروحا ، وظباءه تيامنا وسنوحا بمنه ، ويصل به - وصل الله علوك - وكبت عدوك - شخص من الطيور يعرف بالزريزير ، أقام لدينا أيام التحسير وزمان التبلغ بالتشكير ، فلما وافى ريشه ، ونبت بافراخه عشوشه ، أزمع عنا قطوعا ، وعلى ذلك الافق اللدن تدليا ووقوعا ، رجاء أن يلقى في تلك البساتين معمرا ، وعلى تلك الغصون حبا وشمرا ، وأنت بجميل تأتيك ، وكرم معاليك تضع له هناك وكونا وتستمع من نغم شكره على ذلك أغاريد ولحونا دون أن يلتقط في فنائك حبه ، او يشترط من مائك غبة " . والملاحظ ان ابن سراج في هذه الرسالة يتحدث عن زرزور - وهو شخص من الطيور - ولذلك جاء بالمصطلحات والاشياء الخاصة بالطيور من تحسين وشكير ، وريش ، وفرخ وعش ، ووكون ... "

---

1) الذخيرة : ق ٣ ج ١ ص ٤٨٥ .

2) ابن سراج - أبو الحسين سراج بن أبي مروان بن سراج ، كانت له عناية كاملة بكتب الأدب واللغات مع الحفظ والاتقان لما جمعه منها . كان حسن الخلق كامل المروءة من بيت علم وفضل ، توفي سنة ٥٠٨ هـ ، انظر : الصلة ٢٢٧/١ ، المغرب : ١١٦/١ والقلائد : ٢٧١ ، بغية الدعاة : ٥٧٦/١ .

3) الذخيرة ق ٢ : ج ١ ص ٣٤٧ .

ووصلت هذه الرسالة الى ابن الجد فأعجب بما فيها من ايماء واستعارات ، ولطف اشارات فعارضها برسالة اتخذها تعلة لادارة الوصف على دعائم متعددة من هزل وسخرية وتلاعب بالالفاظ واستعراض للثقافة فقال فيها "١" : " ... وبعد فاني اعود الى ذكر ذلـــك الحيوان الفريد ، والشيطان المريد فأقول : لئن سمي بالزريزير ، لقد صفر للتكبير ، كما قيل حريقيص ، وسقطه يحرق الحرجة ، ودويهية وهي تلتهم الارواح والمهج .

ومعلوم أن هذا الطائر الصافر يفوق جميع الطيور في فهم التلقين وحسن اليقين ، فاذا علم الكلام لهج بالتسبيح ولم ينطق لسانه بقبيح ، ثم تراه يقوم كالنصيح ، ويدعو الى الخير بلسان فصيح فمن أحب الاتعاظ لقي منه قس اياد بعكاظ ، أو مال الى سماع البسيط والنشيد ، وجد عنده نخب الموصلي للرشيد ، فطورا يبكيك بأشجى من مراثي أربـــد ، وحينا يسليك بأحلى من أغاني معبد ، فسبحان من جعله هاديـــا خطيبا ، وشاديا مطربا مطيبا " . ولعل هذا الزرزور لم يرق لــــه العيش في بلاد الغرب فيرجعه الابن الجد الى ابن سراج مرة أخرى كما يتضح من المقطع الثاني من الرسالة نفسها حين يقول :

" ولما طار ببلاد الغرب ووقع ، وزقا في أكنافها وصقع ، وكاين ما اتفق فيها هذا العام من عدم الزيتون في تلك البطون والمتون ، أزمع عنها فرارا ، ولم يجد بها قرارا ، لان هذا الثمر بهذا الافق هو قوام معاشه وملاك انتعاشه ، اليه يقطع وعليه يقع ، كما يقع على العســل الذباب ، وتقطع الى المراد الضباب .

فاستخفه هائج التذكار ، نحو تلك الأوكار ، حيث يكتسي ريشه حريرا ، ويحتشي جوفه بريرا ، ويحتسي قراحا نميرا ، ويغتدى على

---

(١) الذخيرة : ق ٢ ، ج ١ ص ٣٥٠ ،
(١)

رهطا أسيرا ، فحنذه اليك نازلا لديك ، ماثلا بين يديك ، يترنم بالثناء ترنم الذباب في الروضة الغناء ، وقد هز قوادم الجناح لعادة الاستمناح وصبر من لمع الاسجاع ، مايصلح للانتجاع واثقا بأن ذلك القطر الناضر ستنفحه حدائقه ولا تلفحه ودائقه .. "

ولعلنا لانحتاج الى دليل في بيان ماتكشف عنه الرسالتنان من منحى رمزى بصور ضيعية الاديب وضيق عيشة وضياع صوته مما يدفعه الى أن يلتمس رياضا أخرى ويصبح أشبه باصحاب الكدية المحترفين ، ويتضح ذلك في رسالة أخرى لابن الجد هذا على لسان الزرزور ، ولكنه خرج بها من الوصف ، بحيث جعلها تعلة للحديث عن ضيقته واغترابه قال في فصل منها "١" : " ... حتى اشتد منه الفقار واسود فرعه والمنقار ، ولم يكن به الى العول افتقار ، فنهض وكسب ، واعرب عن نجرته وانتسب وأخذ بالطباع في التوليد ، وصدح عزوا ببيت الوليد ، الا ماغير منه وأحال ، ولا يعرف الممكن ولا المحال - :

لك الله عشا غص ليلا بأفرخ

بعليا فرع الأثلة المتهدل

فياللعجب العجيب ، ولسان هذا الزرزور النجيب ، أنطقه فضل الوزير بلسان ، نقله من نوع الزرازير الى نوع الانسان ، فشكر وشعر ، حتى غلا مرجل اشده واستعر ، وأخذ عن وكنه في الرحيل ، وباع مبرما من العيش بسحيل ... يتمنى لعزعزته بالندم ، ان يخضب من أوداجه بدم ، لانه سقط من شجر زيتونه بعقم بطونه ، في هذا العام ومنونه ، على خاليات من المير موحشات مثل جوف العير " .

وتمتاز هذه الرسائل عامة بما فيها من أوصاف تعني بالتتبع والاستقصاء والتفريع وايجاد مجال من القول في أمر هين وغرض بسيط

---

١) الذخيرة : ق ٢ ، ج ٢ ص ٣٥٤ .

(كالزرزور مثلا) باستعراض الكاتب لقدرته على البلاغة والبيان ، وهذا البطليوسي "١" يدخل حلبة المعارضة من خلال وصف الزرزور الذى "٢" " ... أقام عندنا زمانا لا يتآلف الا زندا أو بانا ولا يلتقط الا عنابا أو سيسبانا ، يتدرج في البساتين ، يتطلب العنب المنتقى والتين ، فذكرت له يوما والحديث ذو شجون ، مشتبهة الزيتون ، وأرضك الميثاء ذات الشجر والعيون ، وأطيار محاسنك فيها السـخ الياسمين فصفق جناحا ، واهتز ارتياحا ، وحن الى ذلك القطر ، وانتفض كما بلله القطر ، ورجع أطرابا وسألني الى مجدك كتابا ، فأنلته ما أبتغي .. " وقد كتب البطليوسي في هذه الرسالة ـ كما يتضح من نصها ـ في معارضته رسالة ابن سراج المتقدمة ، ولذلك نجده يحمل الزرزور كتابه المذكور الى ابن سراج نفسه : " فأخذ الكتاب بمنقار وصفق من ريش الجناحين سرورا وطار ، ومن ركب ـ أعزك الله ـ الجناح ، وامتطى الرياح ، طوى البراح ، وهو آتيك كالبرق في لمحة تصفيقة الطائر المستحر شرعه ، فان حل البساط فابن سريج والغريض ، وان احتفل السماط فأبو جلنده وابن بيض " "٣" .

---

١) البطليوسي : ابو بكر عبد العزيز بن سعيد البطليوسي ، كان من جلة الادباء ورؤسائهم ، كاتبا مترسلا ، كتب للمتوكل بن الافطس ، ثم لابن تاشفين المرابطي من بعده ، وتوفي بعد سنة ٥٢٠ هـ قال فيه ابن بسام : " احد فرسان الكلام وحملة السيوف والاقلام . من أسرة اصالة وبيت جلاله .
انظر : الذخيرة : ق ٢ ج ٢ ص ٧٥٣ ، التكملة ترجمة رقم ١٧٤٣ ، الكلاعي ، احكام صنعة الكلام ١٣٦١ هـ. تحقيق رضوان الداية ، بيروت ١٩٦٦م .

٢) الرسالة كاملة في الذخيرة : ق ٢ + ج ٢ ص ٧٥٩ - ٧٦٠ .

٣) ابو جلنده اليشكرى : شاعر من شعراء الدولة الاموية من ساكنـي الكوفة خرج مع ابن الاشعث فقتله الحجاج ، وكان معاقرا للخمر انظر اخباره في الاغاني : ١١/٢٩١ - ٣١٢ ، بيروت ١٩٥٧م
وابن بيض : حمزة بن بيض الحنفي ، وهو شاعر كوفي أموي ماجن توفي سنة ١٢٠ هـ / انظر معجم الادباء : ١٠/٢٨٠ ، الاغاني ١٦/١٤٣ فوات الوفيات : ١/٣٩٥ تح احسان عباس بيروت ١٩٧٣م

ثم يوصي البطليوسي صديقه بقوله : " وأنت بسيادتك تبسط له في بساتينك ، وتغرش له من وردك ، وياسمينك ، حتى تلبس أغاريده الحلل المنتثرة ، وينشر على منابر ادواحك شبيبا " "١" وابن لسان الحمرة ، وتنبت أرضك مندلا ، وجوك عندلا ، وثراك خزامى ، وقرنفلا وتهب له ريحك جنوبا ؛ ؛ ؛ "

وكتب في شأن الزرزور أيضا ابو عامر بن أرقم رسالة شفاعة ، وهو في الواقع لم يرد منها سوى استعراض براعة اسلوبه على نهج وصفي متتابع كقوله : "٢" " حيوان يصفر كل أوان ، ويسفر بين الاخوان ، رقيق الحاشية يعتمد على كرواء ، ويستمع بخذواء ، وينظر من يملك عين كأنها عين ، ويلفظ بمنقار كأنه من قار ، يسلي المحزون بالمقطع والموزون ، وينفس عن المكظوم ، بالمنثور والمنظوم ، مسكي الطيلسان تولد بين الطائر والانسان ؛ ؛ ؛ قطع من منابت الربيع ، الى منازل الصقيع ، ومن مطالع الزيتون الى مواقع السحاب الهتون ، فصادف من الجليد ، مايذهب قتوى الجليد ، ومن التبرد ، مالا يدفعه الريش والبرد ، فمني البائس بما لم يعهده ، كما وسم بالزور من لم يشهره . ولما قال رأيه ، أو كاد سعيه التفت الى عطفه أشمط ، والى أديمه أرقط ، فناح ثم سوى الجناح وقد أنكر مزاجه ، ونسي ألحانه وأهزاجه ، ولا شك أنه واقع بقبائك ، راشف من انائك ، آمل حسن غنائك واعتنائك .. "

وعباراته فيها افتتان في الصنعة المحسنات كالتورية والجناس مع الالتزام الكامل بالعبارات المسجوعة مجاراة لاسلوب عصره في غرض جديد .

---

١) شبيب بن شيبه ، من خطباء تميم ، انظر البيان والتبيين : ١/ ٢٤ ، ٣٢ ، ٤٧ ، ٩٤ ، اما ابن لسان الحمرة : فهو عبيد الله بن حصن وهو اعرابي نسابه ، أدرك الدولة الاموية الفهرست : ٩٩ .

٢) الرسالة في الخريدة : ق ٤ ج ٢ ص ٤٠١ الذخيرة : ق ٣ ج ٢ ص ٤٠٥ - ٤٠٦ ، وابن ارقم تقدمت ترجمته .

ولما انتهى الموضوع عند ابن أبي الخصال ، حاول فيه شيئا من التجديد ، فجعل الرسالة أقرب الى الخطبة الدينية حين أطال الادعية والتحميدات في اولها ، ثم جعل الزرزور يتحدث عن نفسه بعد أن كان متحدثا عنه يقول "١" : " ... وقد أعفاكم زرزور من النصب ومنه الى السماء من الدعاء بسبب ... الله يامن جعل الارض قرارا وفجر خلالها انهارا ، وجعل لنا من الشجر الاخضر نارا ، ويامن جل عن الشركاء والانداد ، وتعالى عن الصاحبة والاولاد .. "

ثم يتبع هذا الاستهلال بما يناسبه من الجدية فذهب الى ان الزرزور أصبح شيخا قد جاوز الستين وغلب عليه الزهد والورع فأراد ان يخلع هذا اللقب الصبياني الذى لا يليق بمن هو في مثل حاله فيقول :

" وما اقبح بمن جاوز الستين ، وأوهنت الأيام جل عمره المتين ، وقطعت أو كادت منه الوتين ، أن يوسم على ساعة من الكبر بزور أو يلقب بزرزور ، ولا سيما من أدرج القرآن بين جنبيه وأرعفت الحكم من جانبيه ، وشهد كل نادى خير ، وأنصت له الجلة كأن على روءوسهم الطير .. "

وابن أبي الخصال في هذا ربما كان يحاول التجديد في الموضوع فحاول الخروج به من دائرة الهزل الى الجد فجعل الزرزور أشبه مايكون بابطال المقامات ، حين اقامه واعظا وخطيبا ، يقرع الاذان بزواجر الوعظ في مزاوجة بين الشعر والنثر واستعراض لالوان متعددة من البلاغة والبيان ، ولكن رغم ذلك ، ظل عنصر الوصف طاغيا على الرسالة كقوله "٢" : " انما هو زرزور عليه الليل مزرور ، رشته النجوم بأزاريها وذرت عليه من صبابها ، فهو منمنم الاوداج بديع الايتلاف والازدواج يباسطكم البعيد والقريب ، ويطارحكم المستعمل والغريب ويلقط الاحسان حبا ، ويضمره جبا ، ويلفظه لوءلوءا رطبا ، لا جرم انه سابق الحبشة

---

١) الرسالة في مخطوط ، ترسل الفقيه الكاتب ورقة ٣ ، لابن ابي الخصال .

٢) المصدر السابق ورقة ٦٨ .

والمصلى بعد انجشه ... " ويمضي واصفا ولعددا صفات هذا الزرزور العجيبة ، مستعرضا قوله اجاعلا منه بطلا مقاميا حين يستدر رفد القوم وعطائهم بلسان ذرب خلق " ... وان الطفني لوالكتم نطقت ، وان صدقني احسانكم صدقت " ويتبع ذلك بقصيدة طويلة تستحث الناس على الكرم ، ولسان حاله يقول لسامعية "١" : " ومثلكم جقل المعروف نقدا ، وتابعه سردا ، أوأكم الله الى كنفه ، ولا أعدمكم مضاعفة عوضه وخلفه " . وبهذا يختتم الكاتب رسالته .

والملاحظ انه تحول فيها عن قضية الشفاعة والتوصيه التي كان يحتاجها الزرزور دائما - كما تقدم في رسائل من سبقوه - كما انه من الممكن القول ان ابن أبي الخصال ، افتتح رسالة بخطبة دينية وانتهى بها الى المقامه . خاصة ما أضفاه على الزرزور من بلاغة تشمل الشعر والنثر عند حثه الناس على السخاء والعطاء وهي تشبه الى حد كبير أوصاف البطل المقامي . وبذا ينتهي هذا اللون من الرسائل الوصفية .

ولعل المشرق قد عرف رسائل الوصف . خاصة الطرديات - قبل الاندلس بزمن بعيد نفجد مثلا - رسالة لعبد الحميد الكاتب "٢" في هذا الموضوع ، وهي نموذج لرسائل الوصف التي نقلت الموضوع من الشعر الى النثر ومنها :

---

١) المصدر نفسه : ٧١ .

٢) عبد الحميد الكاتب : هو ابو غالب عبد الحميد بن يحيى ابن سعد ، الذى قيل فيه : " فتحت الرسائل بعبد الحميد " وكان كاتبا لمروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، وقتل معه في مدينة بوصير المصرية سنة ١٣٢ هـ / انظر الوفيات : ١/ ٣٠٧ الفهرست : ١٧٠ ، الجهشيارى ، الوزراء والكتاب : ٧٢ ، ط القاهرة ١٣٥٧ هـ .

" ... واني أخبر أمير المؤمنين أنا خرجنا الى الصيد بأعدى الجوارح ، وأثقف الضوارى ، أكرمها اجناسا واعظمها اجساما ... وقد أمطرتنا السماء مطرا متداركا ، فربت منه الأرض ، وزهر البقل ، وسكن القتام من مثار السنابك ، ومتشعبات الاعاصير فـ ثم برزت الشمس طالعة ، وانكشفت من السحاب مسفره ، فتلألأت الاشجار وضحك النوار ... فاذا نحن برعلة من ظباء وخلفه آرام يرتعن آنسات ، قد أحالتهن الضبابة عن شخصنا ، وأذهلهن انيق الرياض عن استماع حسنا ... " (١)

ثم يصف انطلاق الضوارى والجوارح نحوها :

" فمرت تحف حفيف الريح عند هبوبها ، تسف الارض سفا ، كاشفة عن آثارها في طالبة لخيارها ، حارشه بأظفارها ، قد مزقتها تمزيق الريح الجراد ، فمن صائح بها ونعاعر ، وهاتف بها وناعق ، يدعو الكلب باسمه ويفديه بأبيه وأمه ، وراكض تحت مغره ، وخافق يطلبه الرمح ، وطامح يمنعه ، وسانح قد عارضه بارح ... حتى امتلأت أيدينا من صنوف الصيد ، والله المنعم الوهاب . " ثم ينتقل الى صيد الطيور .. وغير ذلك .. الخ .

ولا نشك في تأثر الادب الأندلسي بهذه الرسالة وخاصة هذه الحركة السريعة المتلاحقة التي صورها عبد الحميد بانطلاق الضوارى والجوارح مختلطة بحركة الصائدين المساعدين لها بالرماح والتي رأيناها واضحة في طرديات الاندلسيين أضف الى ذلك ان عبد الحميد قد ترك بصماته الواضحة على النثر الاندلسي . ولعله من الطريف ان نلاحظ أن رسالة عبد الحميد الكاتب قد خلت من ذكر الشراب والقيان والترف التي كانت عماد الرسائل الاندلسية . حيث التفنن في وصف الخمرة والساقي والجوارى المغنيات الى غير ذلك ، كما يتضح أيضا أثر البيئتين المشرقية والاندلسية في ما انتظم الرسالتين من مشاعر وأوصاف ، ولعل الجديد في رسالة الاندلس - أيضا - وصفها لصيد

---

١) زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب : ٢/٥٤٥ ، القاهرة : ١٣٥٦ هـ .

البحر وهو لون من الطرديات يسمى بالبحريات لم تعرفه طرديات المشرق ، وذلك راجع لطبيعة البيئة الأندلسية .

كما نجد في المشرق رسائل المطر بعد القحط كرسالة الحجاج الى عبد الملك بن مروان التي وصف فيها حال الارض قبل نزول المطر بقوله : "(١)" ... حتى د قعت الارض واقشعرت واغبرت .. وثارت في نواحيها اعاصير تذر دقائق الارض عن ترابها ، وأمسك الفلاحون بأيديهم من شدة الارض واعز اعتزازها وامتناعها " . ثم ارسل الله بالقبول يوم الجمعة ، فأثارت زبرجا متقطعا متمطرا ، ثم أعقبه الشمال يوم السبت فطحطحت عنه جهامه ، وألفت متقطعة وجمعت متمصرة حتى انتضد فاستوى أو طما وصحا ، وكان جونا مرثعنا ، قريبا رواعده ، واعتدت عوائده بوابل منهمل منسجل .. "

وقد أورد ابو علي القالي في الآمالي قطعا صغيرة في وصف المطر بعد القحط ومثال ذلك ماروه عن الاصمعي قال : سمعت اعرابيا يذكر مطرا أصاب بلادهم في غب وجدب فقال : "٢"

وقد أورد ابو علي القاب

" تدارك ربك خلقه وقد كلبت الامحال ، وتقاصرت الآمال ، وعكف اليأس ، وكظمت الانفاس ، وأصبح الماشي مصرما ، والمترب معدما ، وجفيت الحلائل ، وامتهنت العقائل ، فأنشأ سحابا ركاما ، كنهورا سجاما ، بروقه متألقة ورعوده متقعقة ، فسح ساجيا راكدا ، ثلاثا غير ذي فواق .... " .

ولعل هذه النماذج المشرقية تختلف عن رسائل الأندلس في عنايتها بالاغراب في الالفاظ والصور ، ثم هي مقطوعات صغيرة ترمي غالبا للاخبار وليست رسائل أدبية ذات بداية ووسط وخاتمة كما عرفتها الأندلس التي جاءت أوصاف رسائل كتابها أخصب لان مجالاتها كان في حضن الطبيعة الاندلسية الجميلة الغناء ، ولكن ذلك لا يعني عدم تأثر الاندلسيين بهذه الآثار المشرقية ..

---

١) البيان والتبيين : ٩٩/٤ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط مصر ، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م

٢) الأمالي : ١٧٣/١ ، ط القاهرة ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦م

الفصـــل الثانـــــي

رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلســي

اذا نظرنا الى الخيط القصصي في الأدب العربي يمكن أن نميز بوضوح وجود تيارين فيه قديم قوامه القصص الخيالية والأساطير الشعبية وما تحويه من أيام العرب وما يدور حولها من وقائع بالاضافة الى قصص الجن والغول وما أشبه ذلك وتتميز هذه القصص بأنها ذات خيال جامح وتيار وجد بعد الاسلام قوامه قصص السيرة النبويـــة وما تحويه من اخبار صحيحة وغير صحيحة عن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه الابرار وغزواتهم ... حتى اذا وصلنا الى العصر العباســي نجد تغيرا في شكل القصة العربية بسبب تمازج الثقافة العربيـــة لبثقافات أخرى ، وأصبح هناك نوعان من القصص مترجم دخيل ، وقصص عربـي أصيل ، ومثال الأول كليلة ودمنه لابن المقفع ، وهو ضرب من الخرافات على لسان الحيوان قصد به الرمز والايحاء ، ونقد الحكام والاوضاع في عهدهم ، وكتاب الف ليلة وليلة وان اختلف عن كليلة ودمنة في خلوه من الغاية الخلقية واحتفاله بالخيال والمخاطر وعالـــم السحر والعجائب .

أما القصص العربي الأصيل ، فلعل المقامات أول اشكالها ، كما تدخل في دائرتها رسالة ابن شهيد التوابع والزوابع ورسالة الغفران لابي العلاء المعرى وحي بن يقظان لابن طفيل .. الخ .

والذى يهمنا من هذه اللمحة السريعة عن تاريخ القصة فـــي الادب العربي هو ان هذا الفن أصيل في أدبنا وقد طرقت الرسائـل هذا الميدان في الادب الاندلسي كما في قصة ابن شهيد التوابع والزوابع أو " شجرة الفكاهة " كما تسمى أحيانا .

أما موضوع الرسالة ، فهو رحلة يقوم بها الكاتب الى عالم مجهول غير عالمنا ، لم يصله بعد احد من الناس عالم الجن والشياطين حيث مصدر الادب والشعر والخطابة التي تملى على بني البشر الموهوبين .

وقد أثارت هذه الرحلة تساؤلات الباحثين ،من أين استمد ابن شهيد هذه الرسالة ؟ ومضوا يلتمسون اوجه التأثير والتأثر فيها ، خاصة بينها وبين رسالة الغفران لابي العلاء المعري للشبه بين الرسالتين من حيث الجو العام الذى تدوران فيه . فذهب الدكتور أحمد ضيف الى أن ابن شهيد هو المتأثر حين قال "١" : " ولعل ابن شهيد كان يقلد ابا العلاء في ذلك لانه ادرك عصره ولان شهرة ابي العلاء كانت ذائعة في المشرق والمغرب ، وكان اهل الاندلس يقلدون أهل المشرق في كل شيء " . ولكن الذى يبدو ان الدكتور ضيف أدلى برأيه هذا نظرا لشهرة أبي العلاء الواسعة في المشرق والاندلس ولم يلتفت الى التاريخ الزمني الذى الفت فيه كل من الرسالتين والذى قد يثبت عكس ماتوقع .. اذ ان الراجح أن ابا العلاء تأثر بابن شهيد وان ادرك ابن شهيد عصر المعرى ، اما شهرة المعرى فتقابلها شهرة ابن شهيد في الاندلس والمشرق أيضا ، ولا أدل على احتفال المشرقيين به مما أورده صاحب اليتيمة "٢" له من الشعر والنثر ، بالاضافة الى فصول من رسالته التوابع والزوابع والواقع أننا يمكن أن نستدل على تاريخ تأليفها من بعض ماورد فيها من الاخبار والحوادث ، فقد جاء في الرسالة : " ... أما أبو محمد فانتضى على لسانه عند المستعين وساعدته زرافة استهواها من الحاسدين ... " "٣"

---

١) بلاغة العرب في الأندلس : ٤٨ ط القاهرة ١٩٢٤م
٢) انظر اليتيمة : ٢/٣٥-٥٠
٣) رسالة التوابع والزوابع : تحقيق بطرس البستاني ص ١٦٦ - ط بيروت ١٩٥١م .

ومعروف أن هذا الخليفة قد حكم مابين سنة ٤٠٣ و ٤٠٧ هـ"١" وقد دعا ذلك بعض الباحثين كالدكتور زكي مبارك الى القول بأن الرسالة ألفت في تلك الفترة "٢" ، وعلى هذا تكون قبل الغفران بعشرين عاما ، لان الغفران ألفت سنة ٤٢٤ هـ ، ويعلق الدكتور احمد هيكل على هذا بقوله " على أن هذا الرأى ليس دقيقا ، فقد اشتملت التوابع والزوابع على نصوص يرجع تاريخها الى مابعد هذا ، من ذلك قصيدة ابن شهيد الذى قالها وهو في سجن بني حمود . فالمرجح أنه قالها أيام القاسم ابن حمود الذى يغلب ان يكون قد سجن ابن شهيد لصلته بمنافسة الثأئر يحيى بن حمود ، وقد كانت خلافة القاسم سنة ٤١٣ هـ ، وفيها كذلك مايؤخر زمن تأليفها عن هذا التاريخ ، فقد اشتملت على بعض رثاء ابن شهيد لابي عبيدة حسان ابن مالك ، وكان هذا ضمن وزراء المستظهر سنة ٤١٤ هـ ، وهكذا فان تاريخ الانتهاء منها يجب ان يكون بعد هذا التاريخ ولكن ليس بكثير لاننا لا نجد فيها تاريخا متأخرا ، عن هذا التاريخ ، ولأن في الرسالة أبياتا يمدح بها ابن حزم ويذكر شافعيته ، ومعروف ان ابن حزم كان شافعيا في هذه الفترة ، ثم تحول الى الظاهرية فعلى هذا يكون قد أتمها سنة ٤١٥ هـ "٣".

أما الغفران فقد كتبها المعرى ردا على رسالة ابن القارح والتي جاء فيها أن مؤلفها كتبها حين نيف على السبعين وإذا علمنا أن مولده كان ٣٥١ هـ فباضافة سبعين عاما لهذا الرقم تكون النتيجة ان الرسالة كتبت حوالي ٤١٢ هـ تقريبا .

ورسالة الغفران كانت ردا عليها ، فلا شك في تأخرها وخاصة أن المعرى اعتذر عن تأخير رده لأنه مستطيع بغيره ، كان من المعقول أن تكون رسالة الغفران كتبت حوالي سنة ٤٢٤ هـ وهذا مايسنده نص

---

١) المعجب : ٩٠ / والمستعين : هو الخليفة الاموى سليمان بن الحكم الذى انتقلت الخلافة في قرطبه بعد مقتله الى بني حمود .

٢) النثر الفني : ١/٣١٩ .

٣) احمد هيكل : الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة ، ط القاهرة ١٩٦٢م

نص في الغفران نفسها اذ يقول فيمن يتحدثون عن الغيب :

" ولا يجوز ان يخبر مخبر منذ مائة سنة أن امير حلب حرسها الله في سنة أربع وعشرين وأربعمائة اسمه فلان بن فلان "١" ،

وحاصل هذا الكلام ان رسالة ابن شهيد سبقت رسالة المعرى بنحو تسعة أعوام .

ويقول بروكلمان في كلامه عن ابن شهيد " والحق انه صنف رسالة رائعة ، نقد فيها أدب معاصريه ، واسلافهم ، وأخرجها مخرج رسلة الى وادى الجن ، والواقع ان هذا الاطار الفني اطار الرحلة الى ماوراء العالم المنظور ، انما استعاره بعد عشرين سنة ، على وجه التقريب أبو العلاء المعرى الشاعر السورى واصطنعه وسيلة لنقد مشاهير الشعراء في الجاهلية والاسلام . "٢"

وهذا ما يؤيد سبق ابن شهيد أيضا وان كان بروكلمان قد جعل المدة بينهما عشرين سنة ، فقد أبعد بعض الشيء عن المدة التي هي اقرب للواقع وهي تسع سنوات .

واهتم النقاد - أيضا - قدامى ومحدثون بتحقيق الشخص المرسلة اليه الرسالة او الذى خاطبه بها ابن شهيد بقوله : " لله أبا بكر ... " فمن أبو بكر هذا ؟ ؟ الواقع أن هناك شبه اجماع على أنها مهداة الى ابي بكر بن حزم صديق ابن شهيد وقد نص على هذا الحميدى بقوله : "٣" : " يحيى بن حزم ، ابو بكر ، شيخ من شيوخ الادب ، وله في ذلك ذكر ، وهو الذى خاطبه ابو عامر بن شهيد برسالة " التوابع والزوابع " التي سماها " شجرة الفكاهة "

---

١) رسالة الغفران ، تحقيق بنت الشاطيء ، ص ٤٥٠ ، ط القاهرة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩م .

٢) الامبراطورية الاسلامية وانحلالها : ١٧١ . ترجمة نبيه امين فارس منير البعلبكي - بيروت - ١٩٥٤م .

٣) جذوة المقتبس : ٣٧٤ ، ترجمة رقم ٨٨٧ .

كما أشار ابن بسام الى أنه ابو "١" بكر بن حزم ، وأسرته مشهورة في الأندلس ومنها الفقهاء والوزراء والأدباء . . . وتابعه على ذلك ابن سعيد "٢" . ثم جمهرة النقاد والمحدثون كالمرحوم أحمد ضيف ، الذى قال "٣" : " كتب أبو عامر هذه الرسالة الى صديقه ابن حزم ، فقد عاش في عصر أبي بكر بن حزم هذا ، فتصادقا وتحابا . وكان لكل منهما دالة على صاحبه ، وكل منهما اديب وعالم . . . وكانت بينهما رسائل ومكاتبات يعرضون فيها آرائهم وما يجول بنفوسهم " .

وقد شذّ عن هذا الاجماع الدكتور احمد هيكل "٤" الذى يرى أن الرسالة موجهة الى أبي بكر الكاتب المعروف باشكمياط "٥" ، ويعلل هيكل رأيه هذا " بأن أبا بكر بن حزم قد توفي صغيرا ، وقبل تأليف التوابع والزوابع بزمن طويل ، فقد مات بالطاعون الذى اجتاح قرطبة ٤٠١ هـ كما ذكر أخوه ابو محمد بن حزم في كتابه طوق الحمامة "٦" ، على أن صلة ابن شهيد ببني حزم كانت بينه وبين أبي محمد وأبي المغيرة ولم تعرف له صلة بأبي بكر هذا ، فأغلب الظن أن الأمر التبس على ابن بسام حين رأى الرسالة موجهة الى أبي بكر ، وحين علم أن ابن شهيد كانت له صلة ببني حزم ، وحين علم أيضا أن من بني حزم

---

١) الذخيرة : ق ١ ج ١ ص ٢٣٠ .

٢) المغرب في حلى المغرب : ١/ ٧٩ .

٣) بلاغة العرب في الاندلس : ٤٨

٤) الادب الاندلسي : " من الفتح الى سقوط الخلافة "

٥) اشكمياط : الكاتب أبو بكر بـ محمد بن القاسم من أهل وادي الحجارة يعرف باشكنهاده ، ارتحل الى المشرق لما ضاقت به حضرة قرطبة عند تغلب دولها وتحول ملوكها ، فجال في العراق وحلب ودمشق - ثم رجع الى الاندلس وحل بحضرة عند ملكها مجاهد العامرى ونال من بلوغ الآمال ماليس عليه مزيد . نفح الطيب: ٢/٢/٢٩٨ ، ت محيى الدين عبد الحميد ط - مصر ، ١٣٦٧ هـ - المغرب : ٣١/٢ ، وقال عنه : " اشكهباط " ، الذخيرة : ١/١/٢٣٠ .

٦) انظر ص ١١٦ تحقيق فاروق سعد ، ط بيروت ١٩٧٢ .

من كان اسمه أبا بكر وغاب عن صاحب الذخيرة أن أبا بكر هذا قد مات قبل تأليف الرسالة بزمن طويل ".

ولعل رأى الدكتور هيكل على جانب كبير من الصواب وذلك لأن أبا بكر اشكمياط هذا كان من الذين ينقدون أبا عامر ويعيبون عليه استباحته كنوز غيره ، ولذلك نجد هذه القضية قضيه الأخذ قد أخذت حيزا من الرسالة وفصل فيها أبو عامر القول من حيث الحسن والقبح . وذلك لأن ابا عامر كان مفرطا بمعارضة مشاهير الشعراء والكتاب ويروى ابن بسام أنه عرض على ابي بكر هذا فصولا من كلام ابن شهيد فقال : " فقر حسان الا أنه عثر عليهما " فوصل خبره الى ابن شهيد فكتب اليه بما ملخصه : " ما أغيرك أبا بكر ، على نظم ونثر ، لو اليك كان العلم ، او يكفيك كان الفهم .. لم تترك الارض اعلاما ، ولا لغيرك انصافا ، عرضت عليك الدر منظوما ، فقلت : نعم ماصنعت لو اخترعت ، وما أحسن ما اطلقت لو ابتدعت معرضا بالتقصص ومشيرا الى التلصص ... لأقطعن حبالك هاجرا ، ولأتركن ليلك ساهرا "(١)

ولعل ابن شهيد متأثر في رسالته بحادثة المعراج ، التي تحكي صعود الرسول صلى الله عليه وسلم الى السموات العلى بصحبة جبريل عليه السلام بعد أن جاء من مكة على دابة يقال لها البراق الى بيت المقدس واننا لنلمس التأثر المباشر بالانتقال من مشهد الى مشهد عند ابن شهيد في مقابلته لتوابع الشعراء والكتاب بمن كان الرسول صلى الله عليه وسلم يمر بهم من طوائف المعذبين ، والمنعمين فيسأل رائده ودليله جبريل عنهم ، والفرق بينهما هو ان المعراج واحداثه حقيقة واقعية ثابتة بينما احداث التوابع والزوابع خيال فنان جامح انطلق الى ابو اجواء الفضاء مرتادا لأبواب غير مألوفة محققا لذاته منتصرا لها في عالم يقدر الفن والمواهب هاربا من مجتمع لم يلق فيه غير النكران

---

١) الذخيرة : ١/١/٢٣٠-٢٣١ .

كما أنه من المناسب أن نشير هنا الى مقامة بديع الزمان المسماة بالابليسية "١" والتي تدور حول لقاء حدث بين بطلها وبين شيخ من شعراء الجن حيث طلب الجني من عيسى بن هشام بطل المقامة أن ينشده من أشعار العرب فأنشده لامرىء القيس وطرفه وعبيد ولبيد فلم يطرب لشيء من ذلك ثم انشده لابي نواس فطرب وشهق وزعف .. ، ثم أنشد الجني من شعره فاذا هو ينشد قصيدة جرير :

بان الخليط ولو طوعت مابانا

وقطعوا من حبال الوصل أقرانا

فقال له عيسى بن هشام : " ياشيخ هذه لجرير قد حفظها الصبيان وعرفها النسوان ، وولجت الاخبية ، ووردت الاندية " .

فكان جوابه " ما احد من الشعراء الا ومعه معين منا ، وانا املبت على جرير هذه القصيدة ، وانا الشيخ أبو مرة "

وفكره لقاء شياطين الشعراء ومحادثتهم قديمة عرفها العرب وآمنوا بها منذ زمن بعيد ذلك ان لكل شاعر شيطانا يقول الشعر على لسانه وتروى في ذلك روايات ، عن الاعشى أنه خرج يريد حضرموت لمدح قيس بن معد يكرب وفي الطريق عاج الى خيمة عائذا من المطر فاذا فيها شيخ ، فسأله عن حاله فأخبره مقصده فطلب منه ان يسمعه من شعره الذي أعده لمدح ذلك الرجل الذى يريد الذهاب اليه ، فأنشده :

رحلت سمية غدوة اجمالها

غضبا عليك فما تقول بدالها ؟

فسأله عن سمية التي شبب بها فأجاب الاعشى بانه لا يعرفها ،

---

(١) مقامات الهمذاني : ٢٥٣ .

انما هو اسم ألقي في روعه ، فما كان من الشيخ الا انه نادى ياسمية اخرجي ، فخرجت الجارية فقال لها انشدى عمك قصيدتي التي مدحت بها قيس بن معد يكرب ونسبت بك في اولها ، فأنشدت القصيدة كاملة لم تحرم منها حرفا ، وهكذا في قصيدته التي مطلعها :

ودع هريرة ان الركب مرتحـــل

فهل تطيق وداعا ايها الرجـــــل

فاضطرب الاعشى ونفشته رعدة ، ولكن الشيخ طمأنه بانه هاجشه مسجل بن أثاثه الذى يلقي على لسانه الشعر ، ومثل هذا يروى ايضا عن الصحابي الجليل جرير بن عبد الله البجلي في الجاهلية .
وقالوا ان اسم شيطان أمرئ القيس لاقظ بن لاحظ ، وشيطـــــان النابغة الزبياني يسمى هاذر وهو اشعر الجن "١" .

ولعل هذا من خرافات العرب في جاهليتهم اذ رأوا في الشاعـر مايميزه عن غيره من حيث القدرة على القول فنسبوا هذا الى تأييد قــوة خفية فسروها بالجن والشياطين ،والا كيف نفسر تنقيح بعض الشعـــراء لقصائدهم لفترة طويلة كزهير مثلا ، ونصائح ابي تمام للبحتري بتنقيح الشعر قبل نشره بين الناس ، وقول الفرزدق - وهو اشعر تميم - بأن خلع ضرس اهون عليه من قول بيت من الشعر في بعض الاوقات . . . وغير ذلك ، ولعل هذا مايمكن ان يسمى اليوم بالالهام الشعرى او الموهبة الفطرية . ولا نشك في تأثر ابن شهيد بالمقامة الابليسية بالذات ، فقد التقى بتابع البديع زبدة الحقب وناظره وتفوق عليه وخاصة في وصف الماء - بينما نراه أهمل معظم الكتاب الذين عاصروا البديع بالاضافة الى ان ادب ابن شهيد - بعامه - متأثر جدا بأدب الهمذانـــــي كما أسلفنا .

---

١) اورد الشيخ محيى الدين عبد الحميد هذه الروايات في معرض شرحه للمقامة الابليسية / انظر شرح المقامات - ٢٧٢ - ٢٧٥ .

ومن هنا نستنتج ان فكرة الرحلة الى عوالم خارج عالمنا هذا هي من تأثير قصة الاسراء والمعراج النبوية ، وان فكفكرة اللقاء بشياطين الشعراء من موروثات الاساطير العربية . وقد تمازجت الفكرتان لتخرجا التوابع والزوابع .

تحليل الرسالة :

تبدأ بمدخل يذكر فيه ابن شهيد مناسبة كتابته للرسالة ، فيقول : "١" " وكان لي في صبوتي هوى اشتد به كلفي ، ثم لحقني بعد ملل في أثناء ذلك الميل ، فاتفق ان مات من كنت اهواه ، مدة ذلك الملل فجزعت وأخذت في رثائه يوما في الحسائر "٢" ، وقد أبهمت عليّ أبوابه وانفردت فقلت :

تولي الحمام بظبي الخدور   وفاز الردى بالغزال الغرير

الى أن انتهيت الى الاعتذار من الملل الذى كان ، فقلت :

وكنت مللتك لا عن قلى

ولا عن فساد جرى في ضميرى "

ثم يرتج عليه القول فيتصور له فارس على فرس أدهم ، قد اتكأ على رمحه ، وصاح به " اعجزا يافتى الاندلس " ؟ فيجيبه أبو عامر : " لا وأبيك للكلام أحيان ، وهذا شأن الانسان " .

فأعانه على اكمال قوله الأول ، فقال له قل بعده :

---

١) الرسالة في الذخيرة : ق ١ ج ١ ص ٢٣٥ ، وما بعدها ، كما طبعت منفصلة مصدرة بدراسة تاريخية ادبية ، باشراف بطرس البستاني .

٢) الحائر : البستان .

كمثل ملال الفتى للنعيم
اذا دام فيه وحال السرور

فيثبت ابن شهيد اجازته هذه ويسأله : من يكون ؟ فيجيبه بأنه زهير بن نمير من أشجع "١" الجن وقد تصور له رغبة في اصطفائه ، وهو فيه ، ثم تحادثا وانعقد بينهما لواء محبة وصداقة ، وصار هذا الجن تابعا لابن شهيد يستدعيه في انشاء الابيات التالية :

وآلى زهير الحب يا عز انه
اذا ذكرته الذاكرات أتاها
اذا جرت الافواه يوما بذكرها
يخيل لي أني أقبل فاها
فأغشى ديار الذاكرين وان نأت
اجازع من داري هوى لهواها

ويمكن أن تقسم الرسالة الى مشاهد أو فصول :

المشهد الأول :

في أرض الشعراء ، يلتقي فيه بالشعراء على تسلسل تاريخي من جاهليين كامرئ القيس ، وطرفه ، وقيس بن الخطيم ؛ واسلاميين ومحدثين كأبي تمام والبحترى وابي نواس وابي الطيب تيسائلهم ويساجلهم ينشدهم ويستنشدهم ويعارضهم لينتزع الاعجاب واجازات التفوق برضاهم او رغما عنهم ، ونحس انه لم يقف من الشعراء الا على من يعتبرهم اندادا وأكفاء له . ومن ثم أضرب عن ذكر كثير ممن رأى شاعر يتهم دونه .

---

١) لعله من الطريف أن يجعل ابو عامر تابعه من اشجع ليكون بينهما قرابة ونسب اذ انه هو ايضا من قبيلة اشجع العربية .

المشهد الثاني :

في أرض الكتاب ويسميهم الخطباء ، وهم عنده أصحاب الرسائل الديوانية خاصة لهذا نجده يفرق بين الجاحظ وسهل بن هارون بقوله : "١" : (... وقد وجدنا من ينسب العقل الى سهل اكثر من نسبته الى الجاحظ . ولو شهد الجاحظ سهلا يخادع للرشيد ملكا ، ويديرله حربا ، ويعاني له اطفاء جمرة الفتنة مستطلعا في ذلك كله بعقله ، وجودة علمه ، لرأى ان تلك السياسة غيرتستطيع المقال ، في صفة غراميل الهفال ، وغير الكلام في الجرذان ، وبنات وردان ، ولعلتم ان بين العالم والكاتب فرقا " .

ومن هذا نتبين الانحناء العظيم على سهل لأنه كاتب سلاطين بينما الجاحظ موءلف دواوين مع أن كلا منهما محسن في بابه ولكن غاية أبي عامر كانت النوع الاول من الكتاب امثال سهل بن هارون .

ولقد استحدث ابن شهيد بدعة جديدة لم ترد عن العرب بجعله شياطين للكتاب او الخطباء أسوة بالشعراء فنراه يلتقي بشيطان عبد الحميد والجاحظ وبديع الزمان الهمذاني وابي القاسم الافليلي وغيرهم . فيحاورهم ويسمعهم ويسمع منهم القول والنقد ثم ينتزع منهم شهادات الاجازة والتفوق .

المشهد الثالث :

في مجلس ادبي من مجالس الجن ، يتدارس فيه بعض القضايا الادبية التي كانت تشغل باله ويوضح فيها آراءه ويدعمها بشعره ونثره ومن أهم تلك القضايا قضية الاخذ والمعارضات عند الشعراء .

---

١) الذخيرة : ١/١/٢٤٤

أما المشهد الرابع :

فكان مجلسا أدبيا لحيوانات الجن يحكم فيه ابن شهيد بين قطعتين لحمار وبغل عاشقين كما يلتق ببعض حيوانات ادركهما في عالم الانس كبغلة ابي عيسى فيحادثها ويناقشها في بعض الامور ، وبهذا تختتم الرسالة او ما وصلنا منها .

سبب كتابتها :

لعل نظرة فاحصة في حياة الكاتب تعيننا كثيرا في الرؤية الواضحة لغرض كاتبها ، بل وتبرر لنا مابها من سخرية وحدة ومرارة واحساس بالذات المتفوقة : فهو سليل اسرة عريقة حسبا ونسبا وجاها وثراء ، فوالده نديم المنصور بن أبي عامر المستبد بأمر قرطبة - وعامله على تدمير وبلنسيه لفترة طويلة ، فشهد الابن صولة أبيه وعزه ، ويحدثنا ابن بسام "١" عن الحظورة التي لقيها كاتبنا وهو صغير في قصر ابن أبي عامر . والهبات التي كان ينالها من ابن ابي عامر وزوجته ... وما الى ذلك حتى بلغ رتبة الوزارة ، ولكنه لم يصل الى منزلة الكتابة في الديوان ليلقب بالوزير الكاتب ، على شدة نشوته الى بلوغ هذا الشرف اسوة بغيره من الوزراء الأدباء .

ثم تأتي نكبة قرطبة على يد البربر المؤيدين لسليمان المستعين سنة ٤٠٣ هـ ، حيث هوى المجد العامرى وخربت قرطبة " واصبحت عجوزا نتنة ، ورغم ذلك عجز الفتي عن فراقها وطاب له الموت على هواها "

هذه النكبة وأدت في نفس الشاب فرح الطفولة وطموح السيادة ، وقد ظل وفيا للعامريين مقيما على ودهم وان دعته الحاجة احيانا

---

١) انظر الذخيرة : ١/١/١٩٦ ت عباس

لمدح غيرهم من الحكام ، ولكن بعض ولاة العامريين الذين أصبحوا سادة في جهات الاندلس تنكروا لحقه مما زاد الجرح غورا والالم مرارة أضف الى ذلك زجه في السجن من قبل الحموديين بسبب السعايات والوشايات والتبدل السريع للملوك والحكام ، في هذا العصر القلق .

ومن هنا فان نفس الاديب المرهفة الشاعرة ضاقت بها الدنيا ولم تجد خلاصا في عالم الادباء ولا في عالم القصور والسياسة ، بجانب ذلك كان ثقيل السمع مما قعد به عن الكتابة للسلاطين كما قعد بالجاحظ بروز عينيه وبابن الافليلي ورم أنفه على حد قوله . وذلك مما زاد في حساسيته ، ولعل كل هذه العوامل تفسر لماذا قال ابن شهيد الى "اللهو البطالة" فيقول ابن حيان فيه - بعد ان اشاد بجودة شعره ونثره :

(... غلبت عليه البطالة فلم يحفل في آثارها بضياع دين ولا مروءة فحط في هواه شديدا حتى اسقط شرفه ووهم نفسه راضيا في ذلك بما يلذه فلم يقصر عن مصيبة ولا ارتكاب قبيحة ، وكان مع ذلك اصح الناس رأيا لمن استشاره ، واضلهم عنه في ذاته ، وأشدهم جناية على حاله ونصابه وكان له في الكرم والجود انهماك ، مع شرف وباطلة ، حتى شارف الاملاق) "(١)

---

(١) الذخيرة : ١/١/١٩٣ .

ان كل هذه المؤثرات النفسية الحادة من مجد زائل واحـــلام يقظة بطفولة سعيدة الى واقع قاسي وخصومات سياسية وأدبية بجانب تشويه خلقي بضعف السمع مع احساس بالغربة الروحية لعبقرية ضائعة جعلت ذات ابن شهيد تجاهد لتجد متنفسا لهذا الضيق بالشراب والكرم والفكاهة المرة الحادة . . بالاحساس بالذات المتفوقة.لهـــذا جاءت رسالته مزيجا من هذه العوامل وكأنها قطعة من نفسه .

والرسالة من واقعها معرض يرينا ان ابن شهيد من خلاله صـورة عامة للادب والادباء في عصره ، مظهرا براعته ومراناً عزيته ينقد هـم والسخرية بهم ، كل ذلك في اطار من القصص والخيال المبتكر البديع ، ولعل أهل اغراض الرسالة - بعد وقفتنا القصيرة على التكوين النفسـي لابن شهيد - محاولته اظهار فذ تفوقه وعبقريته حتى يرضى ذاتـه المستعلية ، ولعل هذا الغلو أو الاحساس به هو الذى حمله علـــى الطيران الى ديار الجن ومنازل التوابع." ١"

حيث ركب الجواد برفقه صاحبه زهير بن نمير وسار بهم "كالطائر يجتاب الجو فالجو ، ويقطع الدّوّ فالدو حتى التمحت ارضا لا كأرضنا ، وشارفت جوا لا كجونا . . . فقال لي : حللت ارض الجن ابا عامر . " "٢"

وهذا الاحساس جعله يقول عن نفسه على لسان صديقه ابي بكـــر " كيف أوتي الحكم صبيا ، وهز بجذع نخله الكلام فأساقط عليه رطبـا جنيا ؟ أما ان به شيطانا يهديه وشيصبانا يأتيه ؟؟ واقسم أن لـه

---

١) التوابع : جمع تابع وهو الرئي من الجن يتبع الانسان ، وفي الحديث : أول خبر قدم المدينة يعني من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم - امرأة كان لها تابع من الجن ، والتابع هنا : جني يتبع المرأة يحبها ، والتابعة ، جنية تتبع الرجل تحبه ، وقولهم : معه تابعه اى من الجن / لسان العرب : مادة (تبع) ج ٨ ص ٢٩ والزوبعة : أو الزوبع : اسم الشيطان - او رئيس الجن ، ومنه سمي الاعصار زوبعة وبا زوبعة ، ويقال فيه شيطان مارد . ترتيب القاموس المحيط ، الطاهر احمد الزاوى ، مادة زبع ج ٢ ص ٤٣٨ ط مصر .

٢) رسالة التوابع والزوابع : ١٢٢ .

تابعة تنجده وزابعة تؤيده ، ليس هذا في قدره الانس ولا هذا النفس لهذه النفس) "[١] ونلمح ايضا ذاته المستعلية في عبارات الاجازات ، والتفوق التي استخلصها من توابع الشعراء والكتاب الذين التقي بهم كقول عتاب بن حبناء تابع أبي تمام له " ما أنت الا محسن على اساءة زمانك وقول ابا الاحسان تابع أبي نواس وهذا والله شيء لم تلهمه نحن" وقول حارثة بن المغلس صاحب ابي الطيب عنه ((ان امتد به طلق العمر ، فلا بد ان ينفث بدرر ، وما أراه الا سيحتضر بين قريحة كالجمر ، وهمة تضع اخمصة على مفرق البدر) وهذه النفس المتفوقة ملأت دنيا الناس وشغلتهم بجمعها لاصناف الأدب فهل يجاز شاعرا أم خطيب ؟؟ ويأبى الا بكلتيهما فيجاز بأنه شاعر وخطيب من صاحبي عبد الحميد والجاحظ بينما يضرب / صاحب بديع الزمان الارض برجله عندما سمع وصف الكاتب للماء - فانفرجت له فغاب في جوفها لما لحقه من الخزى والانكسار وبالتالي ينفض الجمع " والابصار اليّ ناظره والاعناق نحوى مائله " .

وبجانب ذلك فالرسالة رد عملي ينافح به ابن شهيد عن ادبه ونبوغه خصومة وحساده يتنقص أدبهم واستحداث مايعجز به منافسيه الذين لا يملون من الطعن والاعتراض عليه ، وهذا ليس بمستغرب على رجل عبقري متفرد عدم فرسان الكلام وهي بغباوة اهل الزمان فكلامهم : " ليس لسيبويه فيه عمل ولا للفراهيدى اليه طريق ولا للبيان عليه سمه) وقد نص في رسالته على ثلاثة اشخاص من هؤلاء الخصوم وهم : ابو محمد وأبو القاسم وأبو بكر " أما ابو محمد فانتض عليّ لسانه عند المستعين ، وساعدته زرافة استهواها من الحاسدين ، وأما ابو بكر

---

١) نفس المصدر ص ١١٨

فأقصر ، واقتصر على قوله : له تابعه تؤيده ، وأما ابو القاسم والا فليلي فمكانه من نفسي مكين وحبه بفؤادي دخيل ،على انه حامل علي " ، ومنتسب الي " "١"

فليس بغريب اذن ان ينتضي ابن شهيد سلاحا حدا من السخرية المريرة الشرسة للهزء والاضحاك ، واظهار الجهالة والغفلة بهؤلاء ، فنراه قد جعل لابن الا فليلي- وهو عالم بالنحو واللغة - تابعا يسمى أنف الناقة وهو اسم يحمل معنى من السخرية ثم صب عليه سوط نقمته ، بالمناظرة والمعارضة حتى أخزاه وفي ذلك يقول بعد انتهاء المجلس " وعلت أنف الناقة كآبة ، وظهرت عليه مهابة ، واختلط كلامه ،وبدا منه ساعتئذ بواء في خطابه رحمه لها من حضر ، واشفق عليه من أجلها من نظر " "٢"

وفي موقف آخر نجد تابع أحد معاصريه بعد المناظرة قد " قل واضمحل ، حتى ان الخنساء لتدوسه ، فلا يشغل رجليها " كما نرى تابعة معاصر أخر أوزة تسمى العاقلة وتكنى بام خفيف ، وهي ذات حظ من الادب فتحاول ان تناظره في النحو والغريب ،فيزجرها في سخرية حادة يقول : (يا أم خفيف بالذى جعل غذاءك ماء ، وحشا رأسك هواء ،الا أيما افضل : الادب أم العقل ؟ قالت بل العقل ، قلت : فهل تعرفين في الخلائق احمق من اوزه .. قالت : لا ، قلت : فتطلبي عقل التجربة ، اذ لا سبيل لك الى عقل الطبيعة ، فاذا أحرزت منه وبوءت منه بحظ ، فحينئذ ناظري في الادب "

---

١) لم نعلم من الادباء من يسمى بأبي محمد وله صلة بابن شهيد غير ابي محمد بن حزم فقد كان صديقه وبينهما مرسلات ومكاتبات ولكن لم يرد في اخبارهم ذكر لخصام او شجار ، وربما حصل شيء من ذلك . وان كانوا اصدقاء فان ابن حزم معروف بسلاطة لسانه . وهناك من معاصريه ابو محمد بن الفرضي القاضي وهو رجل ذو حظ من العلم والشعر ولكن لم نعرف له صلة بابن شهيد ،بالاضافة الى الخلاف في موته ففي الذخيرة سنة ٤٠٠ هـ فلم يدرك اذن حكومة المستعين ، وفي النفح ٢/ ٢٣٩ سنة ٤٠٣ هـ فمما يرجح كون المقصود بابي محمد هو ابن حزم واما ابو بكر فشأنه في الغموض شأن ابي محمد وقد رجحنا سابقا انه المعروف باشكمياط .

٢) جميع النصوص التي بين الاقواس مقتبسة من فصول رسالة التوابع التي في الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٤٥ - ٣٠١ .

وان كان ابن شهيد قد اتخذ رسالته معرضا لاروع انتاجه الشعرى والنثرى فمن الطبيعي ان تتضمن آراءه النقدية التي تقوم بها جودة الشعر والنثر والتي من جرائها اكتسب عداوة معاصريه ، واهم هذه الآراء نظرية الجمال الفني المطلق للعمل الادبي ، ومعياره في ذلك قدرة الاديب وبراعته وحسن سبكه وصياغته بحيث " يتناول الوضيع فيرفعه ، والرفيع فيضعه ، والقبيح فيحسنه " ولعل هذا يفسر انشاءه للقطع الوصفية الصغيرة في برغوث وبعوضة وثعلب والتي يضفي فيها على هذه المخلوقات الضعيفة صفات الشجاعة المرهوبة وذلك بألفاظه الجزلة ومعانيه الفخمة . فقد جاء في وصفه للبرغوث مثلا : " اسود زنجي ، واهلي وحشي ، ليس بوان ولا زميل وكأنه جزء لا يتجزأ من ليل .. يكمن نهاره ويسرى ليله ، يدارك بطعن مؤلم ويستحل دم كل مسلم و، مساور للأساوره ، يجر ذيله على الجبابرة ، يتكفر بأرفع الثياب ، ويهتك سترة كل حجاب ، ولا يحفل بجواب ..) ويقول في وصف الثعلب :

(أدهى من عمرو وأفتك من قاتل حذيفة بن بدر ، كثير الوقائع في المسلمين ، مغرى باراقة دماء المؤذنين ، اذا رأى الفرصة انتهزها ، واذا طلبته الكماة أعجزها ..) وسدة الامر ولحمته عنده الموهبة الفضية وليس العلم والدراسة والتحصيل ومن هنا سخر بابن الاخليلي الذى يزعم انه ابو البيان لتلقيه ذلك عن المؤدبين وذلك لان البيان لا يكتسب بالتعليم انما هو من تعليم الله سبحانه وتعالى حيث قال :

((الرحمن علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان ( ) .

وجوهر نظريته النقدية ان البون شاسع بين الموهبة والاكتساب، وذلك سبب خصومته للغويين وسخريته بهم وايمانه بعجزهم وجدبهم ، وجمودهم على التلقي والاكتساب فقط ، ومن هنا نجده عندما يتحدث عن ضرورة العلم والجلوس الى العلماء يرينا انه نيسج وحده يقول : (.. وقليل الالتماح من النظر يزيدني ويسير المطالعة من الكتب يفيدني ، اذ صادف شن العلم طبقه ، ولم اكن كالثلج تقتبس منه نارا ، ولا كالحمار يحمل اسفارا ، فطعنت ثغرة البيان دراكا ، وأعلقت رجل طيره اشراكا ، فانثالت لي العجائب وانهالت عليّ الرغائب ..)

ومن المشكلات التي شغلت ابن شهيد - ايضا - ذوق العصر في احتفاله بالسجع ، عبّر عن ذلك على لسان تابع الجاحظ حين نقده بقوله : (انك لخطيب وحائك للكلام مجيد لولا . مغرى بالسجع فكلامك نظم لا نثر)

ومن ثم دافع عن نفسه الاتهام موضحا انه بذلك يجارى ذوق عصره مع علمه بأصول البيان واسبابه ، فقد دهى بغباوة اهل الزمان وعدم فرسان الكلام فحركهم بالازدواج ، كما أجازله تابع الجاحظ ان يرمي قومه التي هم تلك حالتهم (بسجع الكهان . فعسى ان ينفعك عندهم ، ويطير لك ذكرا فيهم ..)

أما السرقات الادبية فكانت من قضايا عصره النقدية وكان من المتهمين بها فنراه يبدى فيها رأيا حاسما فيجيز للشعراء الاخذ حسب قانون وضعه هو بقوله : (" اذا اعتمدت معنى قد سبقك اليه غيرك ، فاحسن تركيبه ، وارق حاشيته ، فاضرب عنه جمله ، وان لم يكن بد ففي غير العروض التي تقدم اليها ذلك المحسن ، لتنشط طبيعتك ، وتقوى منتك) " .

ولعله بهذه القاعدة يبرر لنا سر غرامه بمعارضة قصائد الفحول الذين التقى بهم في رحلته ، وهو يقسم أهل صناعة الكلام الى ثلاث طبقات متباينون في المنزلة ، متفاضلون في شرف المرتبة ، على مقدار احسانهم وتصرفهم :

" فمنهم الذى ينظم الاوصاف ويخترع المعاني ويحرز جيد التأليف ، الا أنه يجرى في الابيات القليلة والمآخذ القريبة فاذا كثرت عليه وازدحمت ، وقف وانغل وتلاشى واضمحل ، ومنهم الكارع في بحر الغزارة ، يمر مر السيل في اندفاعه لا يشكو الفشل ، ولا يكل على طول العمل ، فذلك الالسن يوم حرب الكلام ، لا تخطيء ضربته ، ولا تصاب غرته ومنهم من يتجافى عن الكلام ، ويروغ عن المقال ، فاذا مني به أخذ بأطراف المحاسن ، وشارك في انحاء من الصنعة ، وجلّ ماعنده تلفيق وحيله ، وبذلك يصاحب الايام ، ويجارى ابناء الزمان

ومن خرج عن هذه الطبقات الثلاث لم يستحق اسم البيان ، ولا يدخل في اهل صناعة الكلام) . "١"

وله أيضا نظرات نقدية كثيرة ضمنها رسالته كالعلاقة او النسب بين الحروف ودوره في ترتيب الكلمات وعلاقة التأثير الجسمي وتركيب الاعضاء بالبيان وصور الكلام " فمن كانت نفسه مسئولية على جسمه ،كان مطبوعا روحانيا يطلع صور المعاني في أجمل هيئاتها ، ومن كان جسمه مستوليا على نفسه من اصل تركيبه ، كان مايطلع من الصور ناقصا عن الدرجة الاولى .

الخصائص الفنية لاسلوب الرسالة :

قسم الكاتب الرسالة الى مشاهد وفصول في محاولة منه لايجاد بداية قصصية مشوقة فترى العناية بالسرد والاداء حتى يحكم هذا الاطار .

ولعل أهم مقومات اسلوبه القصصي مانجده فيه من خيال قوامه شيء من الاساطير والخوارق وليس ادل على ذلك من اختيار الميدان الذى دارت فيه حوادث قصته ، وطريقة استدعا لمتابعة كما نحس صدى الصور الاسطورية الخيالية في استدعاء بعض من قابلهم كتابع كابي تمام (فانفلق ماء العين عن وجه فتى كفلقه القمر ، ثم اشتق الهواء صاعدا الينا من قمرها حتى استوى معنا "

ومن خصائص الاسلوب العناية الفائقة بتصوير الاخلاق والاشكال للتوابع الذين لقيهم في اطار من التحليلات النفسية ، فصاحب الجاحظ عتبة بن ارقم (شيخ اصلع ، جاحظ العين اليمنى ، على رأسه قلنسوة بيضاء طويلة) وصاحب المتبني حارثة بن المغلس (فارس على فرس

---

(١) رسالة التوابع والزوابع ، للبستاني ص ٨٠ .

بيضاء كأنه قضيت على كتيب ، وبيده قناة قد اسندها الى عنقه ، وعلى رأسه عمامة حمراء قد ارخى لها عذبه صفراء) .

أما تابع ابن الا فليلي (جني اشمط ربعه وارم الانف ، يتظالع في مشيته ، كاسرا لطرفه وزاويا لأنفه ..) بجانب ذلك نجد اهتماما خاصا عند الكاتب بالاوصاف الدقيقة يعمد اليها في اناة وتمهل ، ولعل مرد ذلك الى ضعف حاسة السمع عنده حيث يجد تعويضها في الولوع بالصور المرئية المنتقاة المتنوعة وأوضح مانرى هذه النزعة في لقاءه بحسين الدنان صاحب ابي نواس وكيف سار اليه يقول : " وسرنا بنجتاب أديارا وكنائس وحانات حتى انتهينا الى دير عظيم تعبق روائحه ، وتصول نوافحه .. واقبلت نحونا الرهابين مشددة بالزنانير ، وقد قبضت على العكاكيز بيض الحواجب واللحى اذا نظروا الى المرء استحيا ، مكثرين للتسبيح ، عليهم هدى المسيح .. وجاءوا بنا الى بيت قد اصطفت دنانه ، وعكفت غزلانه ، وفي فرجته شيخ طويل السبله ، قد افترش أضغاث زهر ، واتكأ على زق خمر ، وبيده طرجهاره ، وحواليه صبية كأظب تعطو الى عراره ... " . فنرى هنا تتابع الوصف بدقة ليشخص الموصوف فلا يغادر منظرا صغيرا ولا كبيرا الا وقف عنده يفرد له اوصافا مقصودة لذاتها باسلوب جزيل رشيق يعني برسم صور حسيه ذوقية ، كما نحس ان الكاتب قد وفق في ايجاد تلك الهزة التي يرمي اليها الاسلوب القصصي وذلك بايجاد قدر من التوقع والمفاجأة وهما عماد عنصر التشويق في القصة نحس هذا عندما تجاوز الركب الشاعر قيس بن الخطيم ولم يعرج عليه فاذا فارس يشتد في أثرهم كأنه الاسد على فرس كأنها العقاب وهو في عدوه ذلك ينشد :

طعنت ابن عبد القيس طعنه ثائر

لها نفذ لولا الشعاع أضاءها

ونلاحظ في اسلوب الرسالة ظاهرة الحوار حيث نجده في بداية كل مجالس يبدأ دائما (فقال لي زهير)

ونجده في بعض المجالس مطولا كما في مجلس الجاحظ وعبد الحميد بل قد يهتم ابن شهيد بايجاد قدر من الحوار الداخيلي يديره و- مع نفسه ، فلما نقده صاحب الجاحظ - بقوله : (.. كلامك نظم لا نثر) " فقلت في نفسي : قرعك الله بقارعته " ولما زجره صاحب عبد الحميد واتهمه باللكنة نراه يستدرك " " فقلت في نفسي طبع عبد الحميد ومساقه ، ورب الكعبة .. " ولما احتدم نقاشه مع صاحب الافليلي أنف الناقه ، وقال عن ابن شهيد لم اعرف على من قرأ ؟ " فقلت في نفسي العصا من العصية " .

ولعل المشهد الاخير من الرسالة قد خص بقدر كبير من الفكاهة المضحكة حين يحكم ابن شهيد بين بغل وحمار عاشقين وقد نظم كل منهما قصيدة يصف هواه ويشكو تباريح الصدود والهجر فيحكم للبغل على الحمار : " وقلت للمنشد ماهويت ؟ قالت هو هويت بلغة الحمير ، فقلت والله ان للروث لرائحة كريهة وقد كان أنف الناقة أجدر ان يحكم في الشعر " "١"

وكذلك لا يقل لقاوءه مع بغلة ابي عيسى اضحاكا عن موقفه من الحكم بين العاشقين :

" وقالت لي البغلة : اما تعرفني أبا عامر ؟ قلت : لو كانت ثم علامة : فأماطت لثامها ، فاذا هي بغلة أبي عيسى ، والخال على خدها ، فتباكينا طويلا ، واخذنا في ذكر ايامنا ، فقالت : ما أبقت الايام منك ؟ قلت : ماترين ، قالت شب عمرو عن الطوق ؟ فما فعل الاحية بعدى ، أهم على العهد ؟ قلت : شب الغلمان وشاخ الفتيان

---

١) انظر المشهد كاملا في التوابع والزوابع : ٢٠٢ - ٢٠٥ .

وتنكرت الخلان ... وقالت بحرمة الادب الا ما أقرأتهم مني السلام ، قلت : كما تأمرين وأكثر) .

ولا يخفى ان ابن شهيد كان حاد المزاج في رسالته ، لذلك لم تخل فكاهته من شراسة وسخرية بالمعارضين . وقد حرص ابن شهيد ان يجعل للرسالة بعدا مكانيا حين اختار بلاد الجن مسرحا لقصته .. وبعدا زمانيا حين تدرج تاريخيا في لقاء الشعراء والكتاب .

الخاتمـــة :

المقامة والرسالة الأدبية هما اللونان النثريان المختصان بالنثر الفني الخالص ، دون ألوان النثر الأخرى ، ولذلك فبينهما من التقارب والمماثلة الواضحة في الأغراض المطروقة ، وأساليب الأداء مما جعلني أجمع بينهما في هذا البحث . فاذا نظرنا في موضوعات وأغراض المقامة بشقيها التقليدى وغير التقليدى ، ونظرنا الى أغراض الرسالة الأدبية نجد التشابه الى حد كبير فالمقامات حينما تسخر وتهزل ، وتتهكم تذكرنا بالرسالة الأدبية المختصة في هذا المجال .

وان كانت المقامة قد اعتمدت السخرية في ثياب المكدين مثلا ، فقد اعتمدتها الرسائل الأدبية في ثياب البخلال والفضوليين ، وكل من المقامة والرسالة الأدبية طرقتا الأسلوب الفني للسخرية والهزل والتهكم عن طريق ايراد النكتة البشرية ممثلة في التصوير (الكاريكاتوري) للشخصيات وفي التناقض الذى يأتي به الكاتب في : جوانب الشخصية الواحدة ليصدر بالتالي حكمه عليها ، وان كانت المقامة قد تصل الى درجة الاسفاف أحيانا حين تخرج بالنكتة البشرية عن مقتضيات الذوق العام ، وتعرض لشيء من التهتك والمجون ، وتجريح الحياء ، وما الى ذلك ، فقد سلمت الرسالة الأدبية بوجه عام من هذا الاسفاف .

والمقامات عندما تصف تذكرنا بالرسائل الأدبية الواردة في هذا الغرض ، ويقصدان معا من خلال ايراد الوصف الى احكام الأسلوب، واظهار البراعة اللغوية والادلال على سعة ثقافة الكاتب .

والذى يبدو لنا من دراسة النثر الأندلسي في تلك الحقبة - عصر الطوائف والمرابطين - أن الأندلسيين قد شغفوا بقالب المقامة بوجه خاص ، ومن ثم صبوا في وعائه نثرهم الأدبي ، فلو جعلنا رسالة ابن برد الأصغر في السيف والقلم ورسائل المناظرة بين أنواع الورود من باب المقامة لما جانبنا الصواب كثيرا ، هذا وان كان الكاتب يحرص حين يصب نثره الفني في وعاء المقامة على ايجاد قدر من التأثير الدرامي ،

فهو تأثير محدود . كما سبق ايضاحه في بابه .

والمقامة عندما تمدح او تهجو ، أو تتغزل لهي من باب الرسالة الأدبية العاطفية عندما تطرق أبواب الشعر وتمس دائرة العواطف الانسانية ، فترق وتقسو ، وتشف وتحت في اطار مايتبع ذلك من مؤثرات أسلوبه عامة .

أما المقامة الجامعة فتأخذ من الرسالة الأدبية باكثر من باب ، وتتعلق منها بأكثر من سبب حيث تقص ، وتصف ، وتجادل وتسخر وتهزل .

فالربط بين المقامة والرسالة الأدبية يكمل الصورة المثالية للنثر الأدبي الفني الخالص في الأندلس ، اذ تلتقيان في معظم الأغراض للتعبير عن مناحي سياسية واجتماعية وخلقية وفكرية وأدبية ، وان اختلفتا بعض الشيء في أسلوب التعبير فهو اختلاف في القالب ، وليس في المحتوى . فالمقامة التقليدية حكاية قصيرة يسودها شبه حوار درامي قوامها بطل وراو وعقده ، وبين الراوى والبطل صلة وثيقة ونسب هو نسب العلم ، فلذلك نجد الراوى باحثا عن البطل في شتى الأصقاع ، وملتقيا معه في جميع أحواله على أشكال مختلفة لتحل بذلك عقدة المقامة .

أما غير التقليدية فهي رسالة تكون أولا تكون في قالب قصصي ، وفي الغالب تخلو من عناصر المقامة التقليدية كالبطل والراوى والعقدة .

فهذه الأشكال الفنية من التعبير - أعني المقامة والرسالة الأدبية - تلتقي في مصب واحد حين تعبر عن أحوال المجتمع وما يعتريه من تقلبات سياسية واجتماعية وخلقية وفكرية وأدبية . عبرت تعبيرا فنيا عن طريق الوصف والقصص والسخرية والمفاخرات والعاطفة وغير ذلك .

من هنا جاز لنا أن ننظر للرسالة والمقامة نظرة شاملة لا تخل بها اختلافات طفيفة قد تطرأ على الأسلوب أو المعالجة الدرامية ، وهما يلتقيان في الأسلوب النثرى التقاءها في الأسلوب الفني من حيث

تزاوج الشعر بالنثر ، وجودة تداللفظ ، وتضمين الأخبار والأمثال والنوادر والحكم واستعمال المحسنات اللفظية والمعنوية بمختلف أساليبها . وقد يختلفان شيئا ما حين تعمد المقامة - في الغالب - الى التزام السجع والصياغة الخطابية ، وتعمد الرسالة المزاوجة والصياغة الذاتية ، عدا رسائل المناظرات فهي خطابية النزعة .

وبعد ، فالرسالة أقدر من المقامة على طول النفس والامتداد ، أما المقامة فأقدر على وحدة الغرض حين تسلك نهج الجهارة والقصر لتضمن التأثير المنشود ، ويقابل ذلك اعتماد الرسالة جانب الأناة والتجويد في الايقاع لتضمن الاحتفال بأكبر قدر من الذاتية والغنائية في التعبير الذى لم تعرفه المقامة .

. . . .

مصادر البحث ومراجعه

أولاً : المصادر المخطوطة :

ابن أبي الخصال : أبو عبد الله محمد بن مسعود الغافقي .
١ - ترسل الفقيه الكاتب - مخطوط بالاسكوريال تحت رقم ٥٣٨ أدب .

السرقسطي : أبو الطاهر محمد بن يوسف المازني التميمي :
٢ - المقامات اللزومية ، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت رقم ٧٩٤ أدب .

مؤلف مجهول :
٣ - رسائل أدبية ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٦٥٠ أدب .

مؤلف مجهول :
٤ - مجموعة رسائل سياسية وأخوانية اندلسيه ، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت رقم ٤٢١ أدب .

مؤلف مجهول :
٥ - مخطوط بالاسكوريال رقم ٤٨٨ ، لا عنوان له .

المصادر المطبوعة :

ابن الابار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي
٦ - اعتاب الكتاب ، تحقيق صالح الاشتر ، ط دمشق ١٩٦١م
٧ - التكملة لكتاب الصلة ، نشر عزة العطار ، ط القاهرة ١٩٥٦م
٨ - الحلة السيراء ، تحقيق حسين مؤنس ، ط القاهرة ١٩٦٣م
٩ - المعجم في أصحاب الصدفي ، ط مدريد - ١٨٥٨م .

ابن الأثير : ضياء الدين :
١٠ - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة . القاهرة - ١٣٧٩ هـ - ١٩٥٩م

البحتري : أبو عبادة ، الوليد بن عبيد الطائي :

١١ - ديوان البحتري ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، القاهرة ١٩٧٤م .

ابن بسام : أبو الحسن علي الشنتريني :

١٢ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

القسم الأول ج ١ ، ج ٢ ، تحقيق احسان عباس ط بيروت ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م

القسم الثاني ج ١ ، ج ٢ ، تحقيق احسان عباس ط بيروت ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م

القسم الثالث ج ١ ، تحقيق احسان عباس ط بيروت ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م .

القسم الرابع ج ١ ، تحقيق احسان عباس - ط بيروت ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م .

القسم الأول ج ٢ ، مطبوعات جامعة القاهرة ، ١٣٦١ هـ - ١٩٤٢م

القسم الرابع ج ١ ، مطبوعات جامعة القاهرة ، ١٣٦٤هـ ١٩٤٥م .

ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك :

١٣ - الصلة ، ط القاهرة ١٩٦٦م

البغدادي : أحمد بن علي ، الخطيب

١٤ - تاريخ بغداد ، ط بيروت د . ت .

البغدادي : عبد القادر بن عمر :

١٥ - خزانة الأدب ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط القاهرة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨م

البكري : أبو عبيد الأونبي :

١٦ - سمط اللآلي - القاهرة : ١٣٥٤ هـ - ١٩٣١م

البلاذري : أحمد بن يحيى :

١٧ - أنساب الاشراف ، تحقيق محمد حميد الله ، القاهرة ١٩٥٩م

البيهقي : أبراهيم بن محمد :

١٨ - المحاسن والمساوىء ، ط بيروت ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠م

التطيلي : أحمد بن عبد الله بن هريرة :

١٩ - ديوان الاعمى التطيلي ، تحقيق احسان عباس ، ط : بيروت ١٩٦٣م .

ابو تمام : حبيب بن أوس الطائي :

٢٠ - ديوان أبي تمام ، تحقيق محمد عبده عزام ، القاهرة ١٩٦٤م

التوحيدى : ابو حيان ، علي بن محمد .

٢١ - الأمتاع والموانسة ، ط - بيروت ، د . ت .

الثعالبي : أبو منصور ، عبد الملك بن محمد بن اسماعيل النيساوبورى :

٢٢ - يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، بيروت ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م

٢٣ - المنتحل ، ط الاسكندرية ١٣٢١ هـ .

الجاحظ : ابو عثمان ، عمرو بن بحر :

٢٤ - البخلاء ، ط بيروت د . ت .

٢٥ - البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة ١٣٩٥ هـ .

٢٦ - الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦م .

٢٧ - مجموعة رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤م .

ابن الجوزى : عبد الرحمن بن علي :

٢٨ - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - ط حيدرآباد ١٣٥٨ هـ

الجهشيارى : ابو عبد الله ، محمد بن عبد القدوس :

٢٩ - الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا ، وابراهيم الابيارى عبد الحفيظ شلبي - القاهرة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م

الجوهري : اسماعيل بن حماد :

٣٠ - الصحاح ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، القاهرة ١٣٧٧هـ

حاجي خليفه : مصطفى بن عبد الله ، الشهير بخالص جلبي :

٣١ - كشف الظنون ، ط بغداد ١٩٤١م .

الجريري : القاسم بن علي :

٣٢ - المقامات الأدبية ، القاهرة ١٩٥٥م

ابن حزم : أبو محمد ، علي بن أحمد :

٣٣ - جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة ١٩٦٢م .

٣٤ - طوق الحمامة في الألفة والالاف ، تحقيق فاروق سعد ، بيروت ١٩٧٢م .

الحصرى : ابو اسحاق ابراهيم بن علي القيرواني :

٣٥ - زهر الآداب ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، ط بيروت ١٩٧٢م

الحموى : ابو عبد الله ، ياقوت بن عبد الله

٣٦ - معجم الادباء ، ط مصر د . ت

٣٧ - معجم البلدان ، ط بيروت ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م .

الحميدى : ابو عبد الله محمد بن أبي نصر الازدى :

٣٨ - جذوة المقتبس ، القاهرة ١٩٦٦م

الحميرى : محمد بن عبد المنعم :

٣٩ - الروض المعطار ، ط بيروت ١٩٧٥م

الحنبلي : ابو الفلاح عبد الحي بن العماد :

٤٠ - شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، ط بيروت د . ت

ابن حيان : أبو مروان حيان بن خلف بن حيان :

٤١ - المقتبس من انباء أهل الاندلس ، تحقيق محمود مكي ، ط بيروت ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م .

ابن خاقان : الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي :

٤٢ - قلائد العقيان ، تحقيق محمد العنابي ، ط تونس د . ت

٤٣ - مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الاندلس ، القاهرة ١٣٢٥ هـ .

ابن الخطيب : ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني ، لسان الدين :

٤٤ - اعمال الأعلام ، تحقيق أحمد مختار العبادي ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤م .

٤٥ - الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، ط القاهرة ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد :

٤٦ - المقدمة ، ط بيروت د . ت .

٤٧ - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في اخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ط بيروت ١٣٩٩ هـ .

ابن خلكان : شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر :

٤٨ - وفيات الأعيان ، ط بيروت ١٩٧٢م

الخنساء : تماضر بنت عمرو :

٤٩ - ديوان الخنساء ، ط بيروت ١٩٦٣م

ابن خير : ابو بكر محمد بن عمر الآمدي الاشبيلي :

٥٠ - الفهرسة ، ط القاهرة ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢م

ابن دحيه : عمر بن الحسن بن علي بن أحمد :

٥١ - المطرب من اشعار أهل المغرب ، تحقيق ابراهيم الابياري ، حامد عبد المجيد ، ط الاميرية ١٩٥٥م .

ابن أبي دينار : ابو عبد الله أحمد بن أبي القاسم الرعيني :

٥٢ - المؤنس في اخبار افريقيا وتونس ، تحقيق محمد شمام ، تونس ١٩٦٧م .

الرازي : محمد بن أبي بكر عبد القادر :

٥٣ - مختار الصحاح ، ط بيروت ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩م .

ابن الرومي : علي بن العباس بن جريج :

٥٤ - ديوان ابن الرومي ، تحقيق حسين نصار ، ط القاهرة ١٩٧٤م .

الزبيدي : محمد مرتضى :

٥٥ - تاج العروس ، ط بيروت ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣م

ابن أبي زرع : ابو الحسن علي بن محمد :

٥٦ - الأنيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس - ط الرباط - ١٩٧٣م

ابن زيدون : ابو الوليد احمد بن عبد الله :

٥٧ - ديوان ابن زيدون ، تحقيق ، سيد كيلاني ، القاهرة : ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥م .

الزمخشري : أبو القاسم محمود بن عمر :

٥٨ - اساس البلاغة ، ط القاهرة ١٩٦٠م .

الأزهري : أبو منصور ، محمد بن أحمد :

٥٩ - تهذيب اللغة ، تحقيق عبد الحليم النجار ، محمد علي النجار ، ط القاهرة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤م .

ابن سعيد : محمد بن عبد الملك :

٦٠ - المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، القاهرة ١٩٦٤م .

ابن سلام : محمد بن سلام الجمحي :

٦١ - طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود شاكر ، ط القاهرة ١٩٧٤م .

ابن أبي سلمى : زهير :

٦٢ - ديوان زهير ، شرح ابي العباس ثعلب ، ط القاهرة ١٣٦٣ هـ - ١٩٤٤م .

السلاوي : ابو العباس احمد بن خالد الناصري :

٦٣ - الاستقصاء لاخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق ، جعفر الناصري ، محمد الناصري ط الدار البيضاء ، ١٩٥٤م .

السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن :

٦٤ - بغية الوعاه ، تحقيق ابو الفضل ابراهيم ، ط القاهرة : ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤م

الشريشي : أحمد بن عبد المؤمن القيسي :

٦٥ - شرح المقامات الحريرية ، تحقيق ابو الفضل ابراهيم ، ط القاهرة ١٩٧٢م .

الشهاب : احمد بن محمد بن عمر الخفاجي :

٦٦ - ريحانة الالباء ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ، القاهرة : ١٣٨٦ هـ .

ابن شهيد : أبو عامر ، احمد بن عبد الملك :

٦٧ - رسالة التوابع والزوابع ، تحقيق بطرس البستاني ، بيروت ١٩٤٦م .

الصفدي : خليل بن ايبك :

٦٨ - تمام المتون شرح رسالة ابن زيدون (الجدية) ، تحقيق ابو الفضل ابراهيم - ط - القاهرة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩م

٦٩ - الوافي بالوفيات : ط فرانز شتايز بفيسبادن ١٣٨٤ هـ - ١٩٧٤م .

٧٠ - نكت الهميان في نكت العميان : ط القاهرة د . ت .

الأصفهاني : أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد المعروف بالعماد الكاتب :

٧١ - خريدة القصر وجريدة العصر ، القسم الرابع ج ١ ، ج ٢ ، تحقيق عمر الدسوقي ، وعلي عبد العظيم - ط القاهرة ١٩٦٤م .

الأصفهاني : أبو الفرج ،علي بن الحسين :

٧٢ - الأغاني ،ط - بيروت ١٩٥٨م .

صفوان : ابو البحر :

٧٣ زاد المسافر ، تحقيق عبد القادر محداد ، بيروت ١٩٣٩م

الضبي : احمد بن يحيى بن احمد بن عميره :

٧٤ - بغية الملتمس ،ط مدريد ١٨٨٤م .

الضبي : ابو العباس المفضل بن محمد :

٧٥ - المفضليات ، تحقيق يعقوب لايل ، بيروت ١٩٢٠م .

الطرطوشي : ابو بكر محمد بن الوليد القرشي :
٧٦ - سراج الملوك ، ط الاسكندرية ١٢٨٩ هـ - بعناية أنطون غندور .
ابن الطقطقا : محمد بن علي بن طباطبا :
٧٧ - الفخرى في الآداب السلطانية ، بيروت ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦م .
العسكرى : ابو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل :
٧٨ - الصناعتين ، تحقيق علي محمد البجاوى ، ومحمد ابو الفضل ابراهيم ، ط القاهرة ١٩٧١م .
الفيروز ابادى : مجد الدين :
٨٠ - القاموس المحيط ، القاهرة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨م .
ابن قتيبة : ابو عبد الله محمد بن مسلم الدينورى :
٨١ - عيون الأخبار ، ط القاهرة ١٣٤٨ هـ .
القفطي : جمال الدين ابي الحسن علي بن يوسف .
٨٢ - انباه الرواه ، ط القاهرة ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢م
القلقشندى : أبو العباس احمد بن علي :
٨٣ - صبح الأعشى في صناعة الانشاء ، ط المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر - د . ت .
القالـي : ابو علي اسماعيل بن قاسم البغدادى :
٨٤ - الأمالـي ، بيروت سنة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م
كعب : ابن زهير :
٨٥ - ديوان كعب ، شرح السكرى ، القاهرة ١٩٥٠م .
الكلاعـي ، ابو القاسم ، محمد بن عبد الغفور :
٨٦ - احكام صنعة الكلام ، تحقيق رضوان الداية ، بيروت ١٩٦٦م
المتنبي : أحمد بن الحسين :
٨٧ - ديوان المتنبي ، بشرح العكبرى ، بيروت ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٨م .

المحبي : محمد أمين بن فضل الله :

٨٨ - خلاصة الأثر في اعيان القرن الحادى عشر ، بيروت د.ت

المراكشي : احمد بن محمد بن عذارى :

٨٩ - البيان المغربي في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق : ليفي بروفنسال - بيروت ١٩٦٧م .

المراكشي : ابو عبد الله محمد بن عبد الملك الانصارى :

٩٠ - الذيل والتكملة ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٦٥م

المراكشي : محيى الدين عبد الواحد بن علي :

٩١ - المعجب في اخبار المغرب ، تحقيق سعيد العريان ، القاهرة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣م .

المرزباني : ابو عبد الله ، محمد بن عمران :

٩٢ - نور القبس ، تحقيق رودلف زلهايم ، ط بقسبادن - ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤م .

المسعودى : أبو الحسن - علي بن الحسين بن علي :

٩٣ - مروج الذهب ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، بيروت ١٩٧٣م .

المعرى : أبو العلاء ، أحمد بن سليمان التنوخي :

٩٤ - رسالة الغفران ، تحقيق بنت الشاطيء القاهرة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩م .

المقرى : احمد بن محمد التلمساني :

٩٥ - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق احسان عباس ، ط بيروت ١٣٨٨ هـ .

٩٦ - ازهار الرياض في اخبار القاضي عياض ، تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الابيارى ، عبد الحفيظ شلبي - ط القاهرة ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩م .

ابن منظور : ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم :

٩٧ - لسان العرب ، ط بيروت ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦م

مؤلف مجهول :

٩٨ - الحلل الموشيه في ذكر الاخبار المراكشية ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامه ط- الدار البيضاء ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م .

ابن نباته : جمال الدين المصرى :

٩٩ - سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون (الهزلية) تحقيق ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤م

الانبارى : كمال الدين عبد الرحمن بن محمد :

١٠٠ - نزهة الالباء في طبقات الأدباء ، تحقيق ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨م .

الانصارى : عبد الرحمن بن محمد الاسيدى الدباغ :

١٠١ - معالم الايمان في معرفة أهل القيروان ، تحقيق : محمد أبو النور ، محمد ماضور ، القاهرة ١٩٧٢م .

أبو نواس : الحسن بن هانيء :

١٠٢ - ديوان ابي نواس ، ط القاهرة ١٨٩٨م .

ابن النديم : ابو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحق الوراق :

١٠٣ - الفهرست : ط طهران ١٣٩١ هـ - ١٩٧١م

النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب :

١٠٤ - نهاية الأرب في فنون الأدب ، ط القاهرة ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٣م .

الهمذاني : بديع الزمان احمد بن الحسين :

١٠٥ - المقامات الهمذانية ، شرح محمد محيي الدين عبد الحميد ط القاهرة ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢م .

الورغـي : ابو عبد الله محمد بن أحمد الورغي :

١٠٦ - مقامات الورغي ورسائله ، تحقيق عبد العزيز الفيزاني ، ط تونس ١٩٧٢م .

المراجع الحديثة :

أمين ، أحمد :

١٠٧ - ظهر الاسلام ، ط بيروت ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩م .

الأشتر : عبد الكريم :

١٠٨ - نصوص مختارة من الأدب العباسي ، ط بيروت ١٩٦٩م

بروكلمان ، كارل :

١٠٩ - تاريخ الأدب الاسلامي وانحلالها في الأندلس ، بيروت ١٩٥٤م ، ترجمة نبيه فارس ، ومنير البعلبكي

بلنثيا : آنخل :

١١١ - تاريخ الفكر الاندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، ط القاهرة ١٩٥٥م .

الأحدب : ابراهيم الطرابلسي :

١١٣ - كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان ، بيروت ١٨٩٠م .

خالص ، صلاح :

١١٣ - اشبيلية في القرن الخامس ، بيروت ١٩٦٥م

خفاجي : محمد بن عبد المنعم :

١١٤ - أبو دلف الخزرجي ، المكتبة الصغيرة : د . ت .

الزركلي : خير الدين :

١١٥ - الاعلام ، ط بيروت ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩م .

الزيات : أحمد حسن :

١١٦ - تاريخ الأدب العربي - ط بيروت - د . ت .

سالم ، عبد العزيز :

١١٧ - تاريخ مدينة المريه الاسلامية . ط بيروت ١٩٦٩م .

١١٨ - قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس ، بيروت ١٩٧١م

شارل ، بلا

١١٩ - ابن شهيد الاندلسي ، عمان ١٩٦٥م .

الشرتوني : سعيد الخورى :

١٢٠ - اقرب الموارد ، بيروت ١٨٨٩م .

الشكعة : مصطفى :

١٢١ - الأدب الاندلسي ، بيروت ١٩٧٥م .

١٢٢ - بديع الزمان الهمذاني ، القاهرة ١٩٥٩م .

الصديقي : محمد أحمد :

١٢٣ - ابن الحريري ومقاماته ، ط طهران ، ١٩٥٣م .

صفوت : أحمد زكي :

١٢٤ - جمهرة رسائل العرب ، القاهرة ١٣٥٦ هـ .

ضيف : شوقي :

١٢٥ - الفن ومذاهبه في النثر العربي ، القاهرة ١٩٧٧م .

١٢٦ - المقامة ، القاهرة ١٩٧٦م .

١٢٧ - ابن زيدون ، القاهرة ، د . ت .

ضيف : احمد :

١٢٨ - بلاغة العرب في الأندلس ، ط القاهرة ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤م .

العبادي : عبد الحميد :

١٢٩ - المجمل في تاريخ الاندلس ، ط القاهرة ١٩٦٤م .

عباس : احسان :

١٣٠ - تاريخ الأدب الاندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) بيروت ١٩٧٨م .

عبود ، مارون :

١٣١ - أدب العرب ، ط بيروت ١٩٦٨م .

غومس ، غارسيه :

١٣٢ - الشعر الاندلسي ، ط القاهرة ١٩٥٦م

كحاله : عمر رضا :

١٣٣ - الأدب العربي في الجاهلية والاسلام ، دمشق - ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢م .

كرد ، محمد

١٣٤ - رسائل البلغاء ،القاهرة ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦م .

مبارك ،زكي :

١٣٥ - النثر الغني في القرن الرابع ، ط بيروت ١٩٧٥م

مجمع اللغة العربية :

١٣٦ - المعجم الوسيط ، ط القاهرة ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢م .

عبده ، الشيخ محمد :

١٣٧ - شرح مقامات الهمذاني : ط بيروت سنة ١٩٢٤م

مكي : الطاهر أحمد :

١٣٨ - دراسات اندلسية ، القاهرة ١٩٨٠م .

المويلحي : محمد بن ابراهيم بن عبد الخالق :

١٣٩ - حديث عيسى بن هشام ، القاهرة ١٣٣٠ هـ .

هلال : محمد غنيمي :

١٤٠ - الأدب المقارن ، ط بيروت د . ت .

١٤١ - النقد الأدبي الحديث ،ط القاهرة .

هيكل : احمد :

١٤٢ - الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة ، القاهرة ١٩٦٢م .

اليازجي : ناصيف بن عبد الله بن ناصيف :

١٤٣ - مجمع البحرين - ط بيروت ١٨٨٠ م - ١٢٩٧ هـ .

الدوريات :

بروكلمان ، كارل :

١٤٤ - مقال بعنوان : " بديع الزمان الهمذاني " دائرة المعارف الاسلامية - الجزء الثالث (الترجمة العربية) .

البيومي : محمد رجب :

١٤٥ - مقالة : " من رائد فن المقامة " ، مجلة الثقافة المصرية سنة ١٩٧٩م .

الشاروني : يوسف :

١٤٦ - مقالة " المقامة في تراثنا العربي " مجلة الفيصل سنة ١٣٩٨ هـ .

عاشور : عبد القادر :

١٤٧ - مقالة " نشأة فن المقامات " مجلة المقتطف مج ٧٧ ، سنة ١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠م .

عزام : عبد الوهاب :

١٤٨ - مقالة " بديع الزمان الهمذاني " مجلة الرسالة مج ١ عدد ٤١ سنة ١٩٣٤م .

العماري : علي حسن :

١٤٩ - مقالة " نشأة المقامة " مجلة الأزهر مج ١٦ ، سنة ١٣٦٤ هـ .

فهرس الموضوعات

* * * *